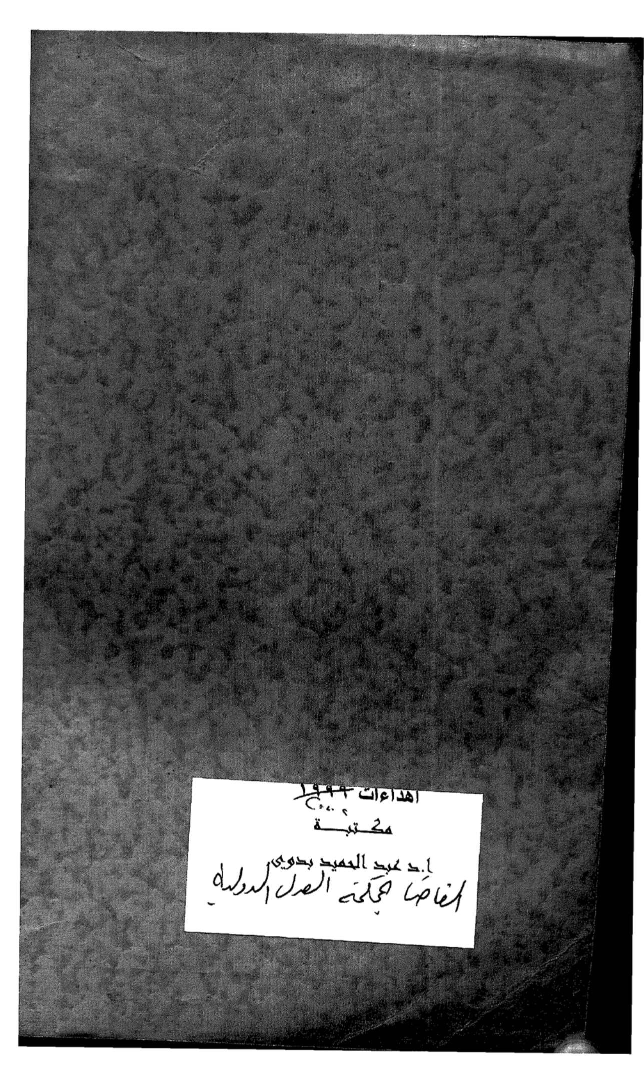


الجزء الثانى

مسجد محمد على باشا

الطبعة الأولى
١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥م


اهداءات ١٩٩٩
مكتبة
أ.د عبد الحميد بدوي
قاضيا بمحكمة العدل الدولية



الملازم الأول

عبد الرحمن زكي

من ضباط الأشغال العسكرية

[الجزء الثانى]

إلى زملائى
وإلى الذين عاونونى فى كتابة
القـاهرة



المقدمة

بقلم الدكتور زكى محمد حسن

ظهر الجزء الأول من هذا الكتاب فى العام الماضى فكنت من أشد الناس إغتباطا به وابتهاجا لظهوره ولا غرو فقد سدّ فى عالم التأليف العربى فراغا كبيرا إذ كان من العار أن لا يوجد فى اللغة العربية كتاب بل كتب حديثة عن عاصمة الديار المصرية وان نطرق أبواب الأجانب نستهديهم ما نحتاج اليه فى دراسة تاريخها وآثارها

ويسرنى اليوم أن أقدم الى القراء الجزء الثانى من كتاب القاهرة وانا حريص الحرص كله على أن أفى المؤلف حقه من المدح والثناء ليس فقط لأنه أحسن القيام بما أخذه على عاتقه فأفلحت محاولته ولم يضع جهده عبثا بل لأنى كنت أخشى أن يقعده عن اتمام هذا الجزء مايحسنه ويشعر به هو وغيره من المؤلفين فى مصر من قصور فى تشجيعهم وتقدير ما يبذلونه من جهود كبيرة ولا سيا حين ينهضون بعبء الكتابة فى موضوعات لم يسبقهم كثيرون الى البحث فيها ولا تنعم دراستها الا بيئات خاصة بينما يقابلها سواد الناس بشىء من الوجوم والاستخفاف

وليس هذا الجزء من كتاب القاهرة بأقل طلاوة من الجزء الذى سبقه فمنهاج البحث فيهما واحد والعصر الذى يعرض لنا المؤلف صورته هنا ليس أقل أهمية من العصور التى سبقته بل ان فى هـذه الصورة مايبعث على تفكير أكثر لتعمق حقائقها وتعرف ماوراءها

وفى الواقع ان انحلال دولة المماليك وتفككها بينما كانت الدولة العثمانية تسير بخطى واسعة الى التوطد والنماء جعل مصر فريسة هينة لها وكان استيلاء العثمانيين على وادى النيل وانتزاعهم الخلافة الاسلامية إيذانا بانتهاء مرحلة العصور الوسطى فى مصر وابتداء العصور الحديثة بما فيها من علاقات سياسية متصلة بالامبراطورية العثمانية والعالم الأوربى

وقد وفّق المؤلف كل التوفيق فى شرح الحوادث التاريخية التى مرّت بمدينة القاهرة منذ استولى عليها السلطان سليم حتى أشرق نجم محمد على باشا الكبير فنجح فى وضع الحجر الأساسى لاستقلال مصر الحديث . وجاء خلفاؤه من بعده فعملوا على تدعيم هذا الاستقلال . وعرض المؤلف فى هذا الجزء صورة بديعة للقاهرة ولتطور فن العمارة فيها وما أصابه و بقية الفنون من تعضيد أو غيره على يد الذين استولوا على أزمة الحكم فى وادى النيل .

ورب معجب بطريقة المؤلف لم يكن ذلك الإعجاب ليمنعه من مناقشته فى أمور قليلة ليكون كتابه أقرب ما كتب عن القاهرة الى الاتقان والكمال ولكن علينا جميعا أن نذكر أن الملازم الأول عبد الرحمن زكى عمل على أن يلائم بين كتابه و بين عقول سواد القراء وأخذ على عاتقه أن يلتزم الايجاز وأن يترك التحليل والدقة والاستقصاء الى المفصّل من كتب التاريخ والفنون والآثار

ومهما يكن من شىء فان رجاءه فى هذا الكتاب انما هو تمهيد السبيل ليستطيع غيره أن يصل الى حيث لم يصل

فعسى أن يحرص القراء على الانتفاع بما كتب وأن يبعث ذلك فيهم روح التزيد من البحث والانعام فى دراسة كتب الفنون والآثار ؟

زكى محمد حسن

تمهيد

الجندى أقرب أفراد الشعب الى وطنه وهو أحق الناس بتعريف مواطنيه ببلاده . فلا غرو مطلقا إذا كنا نرى فريقا من العسكريين يشتغلون فى أوقات فراغهم بوصف المدن التى زاروها أو عاشوا فيها والبحث عن الآثار ودرس فنون العمارة والكتابة عن تاريخ الفن .

يخيل الى بعضهم أنه ليست هناك ثمة علاقة بين الجندية والآداب والفنون . وفى الواقع أن الفنون الجميلة متصلة إتصالا وثيقا بالحرب . وما هذه إلا دعامة قوية لها . فأنا لم نر فنا من الفنون على وجه البسيطة تقوم له قائمة الا بين أمة مسلحة . ولم نر فنا يقوم بين شعب من الرعاة أو شعب زراعى . تلك الشعوب التى تمت بطبيعتها الى السلام . فإن الفن الكامل لا يقوم إلا مع القوة

ان الجندية أساس الفنون والفضائل العالية وفى مقدمة عوامل الرجولة الكاملة . ونحن إذا قارننا حالة الفنون بعد الحرب الكبرى بحالتها قبلها تبين لنا بسهولة تلك الرابطة الوثيقة بين الحرب والفن

***

تناولنا فى الجزء الأول من كتاب القاهرة تاريخها منذ أسسها القائد جوهر وسورها البطل صلاح الدين وحصنها خلفاؤه ونسقها المماليك بآثارهم الجميلة . وفى هذا الجزء نقرأ كيف أصبحت القاهرة فريسة بين أيدى البكوات والباشوات ومن بعدهم نابليون بونابرت وما أن تخلصت من احتلال الفرنسيين حتى أنقذها محمد على باشا بعبقريته العجيبة ثم تولى أمرها الخديو اسماعيل باشا فنهض بها دفعة واحدة ونقلها من الشرق الى الغرب

لقد أخذت القاهرة الأولى تتوارى عن الأبصار وتغير كل شىء فيها إلا بقية من آثارها العظيمة وحلت محلها القاهرة الجديدة بعماراتها المختلطة وأسواقها النظيفة ومتاحفها

الأنيقة ومعاهدها الجميلة . وتغيرت ملابس ساكنيها وآثاث بيوتها ومجتمعات شعبها .
والقاهرة سائرة بقدم سريعة نحو الحضارة الغربية مظهرا وروحا .

***

ولا يتسع المقام لذكر أسماء جميع الأفاضل الذين ساهموا معي في اخراج الجزء الثاني من كتاب القاهرة . فمن الواجب على أن أشكر حضرة الدكتور زكى محمد حسن الأمين العلمي بدار الآثار العربية وقد تفضل بكتابة مقدمة الكتاب وغمرني بارشاداته وآرائه عند ما كتبت فصول هذا الجزء كما أذكر له مع الشكر الجزيل مراجعته إياها . ولا يفوتنى التنويه بمجهود الاستاذ محمود أفندى شافعى لتهذيب صفحات الكتاب فقد تعب معى كثيرا . وسوف لا أنسى أيضا فضل صديقى الأستاذ كريم افندى ثابت فى هذا السبيل

ولست أنسى توجيه خالص شكرى لجميع أصدقائى من موظفى دار الكتب المصرية ولاسيما حضرة صاحب العزة محمد بك أسعد براده مديرها المفضال ولحضرات أمناء دار الآثار العربية ولجناب مديرها العالم المسيوفييت . وللجنة حفظ الآثار العربية ومديرها العالم الأستاذ محمود بك أحمد والاستاذ حسن افندى عبد الوهاب وللجمعية الجغرافية الملكية وحضرة أمين مكتبة المعهد العلمى

وأرى حقا على أن أدون آية الشكر لجميع الذين تفضلوا بتعضيدى عند ظهور الجزء الأول وأخص بالثناء أعلام الصحافة فان ما أسدوه الى من العطف والتشجيع والنقد كان له أحسن الوقع فى نفسى . فلهم على فضل لن أنساه

وأسأل الله تعالى أن يديم صاحب الجلالة مليكنا المعظم ويحفظ ولى عهده حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق انه سميع مجيب .



(١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م) .

قاهرة السلطان الغوري

كلمة عامة ـ القاهرة كما شهدها ابن إياس ـ مرج دابق ـ طومان باى ـ أعمال الغورى ـ السلطان سليم فى القاهرة ـ العثمانيون ينتقمون فى القاهرة ـ آخرة السلاطين المصريين ـ تدمير القاهرة ـ السلطان سليم يغادر القاهرة

اتسعت القاهرة فى أيام المماليك الجراكسة بمصر اتساعا كبيرا وتقلّبت بين أطوار العمارة والدمار تبعاً لما أصابها من معارك الدماء ونكبات الوباء ومجاعات الغلاء وحوادث الاعتداء . واستجدت فيها جهات كما تخربت جهات فكان يتحول العامر دارسا والدارس عامرا بحسب أمزجة السلاطين ومماليكهم وأتباعهم !

وكانت القلعة من الأجزاء التى لقيت عناية كبيرة منذ قيام الدولة الأيوبية فشيدت فيها المبانى الفاخرة والقصور الزاهرة وعمر ماحولها فاتصلت بأسوارها العمائر بالمحجر والرميلة وكانت مقر السلطنة ومسكنا للمماليك السلطانية وخواص الأمراء ودواوينهم وطباخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وكان بها عدة أبراج لسجن الأمراء والمماليك وجب هائل مظلم كريه الرائحة عمّره السلطان قلاوون عام ٦٨١ وأبطله الناصر محمد ابنه عام ٧٢٩ هـ

باب زويلة

واستجدت فى أيام الجراكسة عمائر نخمة بالقاهرة وبولاق ومصر القديمة وكثرت القصور والبساتين فى أرباض المدينة وأخذ نطاق العمارة ينمو ويتسع . وتنافس الأمراء فى بناء الدور والمدارس والمساجد والرباطات والأسبلة والمشاهد

وعمرت فى أيامهم جهة الحسينية وباب اللوق وحكرت بعض البساتين وزادمظهرها رونقا وتحسينا وأدخلت فى أيامهم القباب الجركسية العظيمة والقاعات المصرية فبنى السلطان حسن بالقلعة قاعة البيسرية وأتمها سـنة ٧٩٠ هـ وبلغ ارتفاعها فوق وجه الأرض ٨٨ ذراعا وعمل بها برجا يبيت فيه من العاج والأبنوس المطعم تعلوه قبة بعقد مقرنص قطعة واحدة يؤخذ الناظر إليها بحسنها ويدهش لجمالها وجعل نوافذه وشرفاته من الذهب الخالص . قيل إنه صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب

لقد سبق الكلام عن قاهرة هؤلاء المماليك البحرية والجراكسة فى الجزء الأول وسأقصر الكلام فى هذا الفصل عن القاهرة فى أثناء الفترة القصيرة التى سبقت دخول العثمانيين فيها واستيلاءهم على البلاد

القاهرة كما شاهدها ابن إياس

فى آخر شهر المحرم (٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) أمر السـلطان الغورى بعرض الجنود فجلس بالميدان وعرض قواته التى تألفت إذ ذاك من أربع طباق وبعد أيام أعاد السلطان عرض الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشرات ثم أكمل عرض جميع جنوده وتفقد آلات القتال والمعدات والذخيرة فدخل إلى قاعة البيسرية وشاهد ما فيها من « بكاتر وقرقلات وجواشن »

فى تلك الفترة احتفلت القاهرة بالمولد النبوى الشريف فأقام السلطان الخيمة العظيمة التى صنعها الأشرف قايتباى وقد بلغ ثمنها ستة وثلاثين ألف دينار . وكانت على شـكل قاعة فيها ثلاثة لواوين فى وسـطها قبة على أربعة أعمدة عالية « لم يعمل كما قيل فى الدنيا لها نظير » . وصنعت من قماش ملون يقيمها ثلثمائة رجل من النواتية فنصبها بالحوش ونصب الشربدارية فيه أحواض جلد ممتلئة بالماء المسكر . وجلس السلطان فى الخيمة وحضر الأتابكى (قائد الجيش) سودون العجمى والأمراء من المقدمين والقضاة الأربعة والأعيان وقراء المدينة والوعاظ ثم مد السلطان السماط الحافل فأكلوا وشربوا هنيئا . وكان ذلك اليوم أبهج أيام المولد السابقة

وفى أواخر ربيع الأول أمر السـلطان الغورى بصرف الأموال للأمراء المقدمين فأرسل للأتابكى سودون خمسة آلاف دينار وأمراء الطبلخانات وللجنود القائمين للسفر معه للشام لصد تقدم السلطان سـليم ونادى المنادى بأن السفر سيكون فى أول ربيع

الثانى . فاضطربت أحوال الجند وقامت القاهرة وندر وجود الخيل والبغال وهجم المماليك على طواحين الغلال ليأخذوا منها الخيول والبغال . فغلقت الطواحين وقل الخبز فى الأسواق وكثر الدعاء على السلطان واختفى الصناع واضطربت أحوال القاهرة . وكان بعض الناس قد عاب على السلطان عرضه لجنود مصر فى أربعة أيام فخشوا أن يشاع هذا الخبر فى بلاد العثمانيين فينسبوهم إلى قلة

خرج السلطان الغورى قاصدا الريدانية للاجتماع بقواته قبل السفر الى الشام . واستمرت قوات المماليك تخرج من القاهرة حتى كملت كلها فخرج السلطان من باب الأسطبل الذى عند سلم المدرج بالقلعة وأمامه النفير السلطانى وهو فى موكب عظيم أوله الأفيال الثلاثة مزينة بالصناجق ثم ترادفت صفوف الجند يتقدمهم بعض الناس يفسحون الطريق ثم الأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات ثم أرباب الوظائف فالسادات الأشراف فالأمراء المقدمون وصحبتهم أمير أخور والى جانبه الأتابكى سودون العجمى و بعدهم السادة القضاة الأربعة يخلفهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب العباسى وتبعه الحرس السلطانى . ثم أقبل السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغورى يمتطى ظهر فرس أشقر مال بسرج ذهب وخلفه الصنجق السلطانى . وسار المهرجان من باب زويلة فشق القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريد من الشرفات ومر من باب النصر حتى وصل الى مخيم الجيش بالريدانية

تحرك الجيش بقيادة السلطان بعد ان ولى على القاهرة الأمير ألماس وأوصى بالمحافظة عليها حتى عودته . فطلب الأمير ألماس إلى الأهالى تعمير بعض الحارات والأزقة . فعمروا دربا فى رأس سوق الدريس ودروبا فى الحسينية وآخر على قنطرة الحاجب، ومثله عند المقسى وسدعدة خوخ وأصدر أوامره بأن يعلق على كل دكان قنديل وألا يخرج أحد من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح

وعين السلطان الأمير طومان باى الدوادار نائبا عنه فى الحكم بمصر فضبط أحوالها فى غيبته ولم يقع أى حادث . وكان الأمير يركب كل يوم ومعه الأمراء والجند الذين بمصر فيسير نحو المطرية و بركة الحاج فاذا عاد دخل من باب النصر تحف به الجنود والأهالى

احتفل فى ذلك الحين بوفاء النيل وفتح السد فتوجه الأمير طومان باى لفتحه فنزل فى سفينة كبيرة وتوجه الى المقياس وعاين ارتفاع النيل ولما انتهى الاحتفال عاد الى داره فى موكب حافل

ومن أوامر الأمير أنه منع الناس من السكن بالجسر الذى ببركة الرطلى وبالمسطاحى ومنع السفن من الدخول فى البركة فصارت بيوت بركة الرطلى خاوية وخسر أصحاب الأملاك أموالا كثيرة وفى ذلك قال الشيخ بدر الدين الزيتونى :

وأضحت بيوت الجسر خالية فلا لصاحبها سكنى ولا واحد يكرى

وقد أصبحت تلك القصور خواليا فياوحشة السكان من كل ذى قصر

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا لما حل فيها من نكال ومن خسر

رعى الله أياما تقضت بطيبها ونحن بمصر فى أمان وفى بشر

وكان الدوادار الكبير هو الذى أشار بهذا المنع بالنهى والأمر

تلك صورة من صور القاهرة فى أواخر أيام المماليك الجراكسة اقتبستها مما كتبه المؤرخ المعاصر لحوادث ذلك العصر الأديب الكاتب محمد بن إياس (٨٥٢ – ٩٣٠ هـ ١٤٤٨ – ١٥٢٣ م) صاحب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور »

مرج دابق

مضت مدة طويلة لم تصل إلى مصر فى اثنائها أخبار الجيش المصرى فى الشام حتى أشيع أن السلطان الغورى قد هزم . وملخص ماحدث أن السلطان الغورى خرج من حيلان متوجها الى مرج دابق واستقر فيها استعدادا للعركة لكنه بوغت بالقوات العثمانية فقاتلت القوات المصرية قتالا عنيفا وهزمت العثمانيين وأسروا سبعة صناجق وبعض المكاحل وحاول سليم الفرار بعد أن قتل من جنوده أكثر من عشرة آلاف . لكن دارت الدائرة فيما بعد على الجيش المصرى وقتل قائد الجيش « سودون » وملك الأمراء « سيباى » وخان خير بك نائب حلب الجيوش المصرية فتهازم أمام الترك لاتفاق سابق بينه وبين رؤسائهم فعزل السلطان وحده مع نفر قليل من مماليكه وحاول أن يشجع من بقوا حوله من الجند لكن كانت قوات الأعداء قد اشتد هجومها فوقع تحت سنابك الخيل وهرسته أقدامها ولم تظهر جثته بين أشلاء القتلى

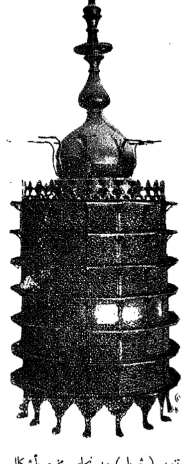
زحف السلطان سليم بجنوده الى معسكر السلطان واستقر فى خيامه واستولى على ما فيها من سلاح ومال وتحف . وتحول بعد ذلك عن مرج دابق قاصدا حلب فاستولى عليها وصعد الى قلعتها فعرض مخازنها ومحتوياتها وقيل إنه كان فيها من المال ماقيمته ألف ألف دينار غير السروج الذهبية والطبول واللجم المرصعة بالفصوص الثمينة والسيوف المسقطة بالذهب والزرد والخوذ . . . الخ

طومان باى وأيامه فى القاهرة

نعود الى القاهرة بعد أن وصل إليها نبأ هزيمة الغورى فنرى أنه لما ثبت للأمير الدوادار موت السلطان لم يدع الخطباء يوم الجمعة باسمه بل دعوا باسم الخليفة فقط واستمرت مصر بدون «سلطان» مدة . وفى هذا الشهر (شعبان ٩٢٢ ﻫ) عرض الأمير جنود القاهرة وخطب فيهم بأن يكونوا على استعداد

بعد أيام عاد بعض الأمراء الذين كانوا مع السلطان فى الشام فاستقبلهم الأمير الدوادار خارج القاهرة واتفقوا على أن يولوه السلطنة فامتنع فى أول الأمر ثم رضخ أخيرا لطلبهم

ففى يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان (٩٢٢ ﻫ — ١٥١٧ م) اجتمع الأمراء وعلى رأسهم أمير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله وكان فى أسر سليم بالشام فبايعه هذا نيابة عن والده بعد أن أظهر تفويضا مطلقا من ابنه . فلما تمت البيعة لطومان باى وعمره اذ ذاك ثمانية وثلاثين سنة أحضروا له خلعة السلطنة وتلقب بالملك الأشرف وأقبل الأمراء أمامه يقبلون الأرض ودقت له البشاير بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة كما ارتفعت له الأصوات بالدعاء وزالت دولة الغورى وغربت شمسها



تنور (ثريا) من نحاس مخرم بأشكال نجمية كثيرة الأضلاع عليه ألقاب السلطان الغورى وتاريخ صنعه (٩٠٩ ﻫ — ١٥٠٣)

« مجموعة دار الآثار العربية »

استطاع طومان باى أن يلم شعث مما ليكه ليحاول أن يكسر شوكة عدوه العثمانى فاشترى ثمانين مدفعا كبيرا من جمهورية البندقية ولكن قيل إن المماليك لم يحسنوا الاستفادة منها لجهلهم طريقة استعمالها وظل العثمانيون أقوى منهم فى أسلحتهم الحربية بالرغم من استعداد طومان باى وحشده عددا كبيرا من الرجال .. وفى أوائل شهر ذى الحجة عام ٩٢٢ راجت إشاعة فى

القاهرة مؤداها ان العثمانيين وصلوا إلى الريدانية فخرجت بعض قوات المماليك لصدهم ولكن اتضح ان القادمين كانوا قوما من الأعراب تغلب عليهم المماليك دون كبير صعوبة

قامت القاهرة على قدم وساق وانتظر الجند أوامر السلطان للتحرك للقتال وجمعت كميات كبيرة من المؤونة والذخيرة من عجلات ومكاحل و بنادق وحراب . . الخ وأمر السلطان بعرض قواته وهم بملابسهم العسكرية الكاملة وأسلحتهم وفى طليعتهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة . وفى اليوم الموعود خرجت الجنود الى الريدانية وقد سدوا الفضاء واجتمع السواد الأعظم من الناس كما ارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر وخرج السلطان من وطاقه الى المسطبة فجلس فيها ونادى قواده وأمرهم بأن يكونوا على استعداد للسفر الى الصالحية بعد ثلاثة أيام . و بدأ الجند فى السير الى الصالحية وهو يشرف على حركاتهم ويراقب سيرهم ويستحثهم حتى مضوا جميعا وعاد هو الى القلعة مطمئنا

بينما كان السلطان يستعد مع أمراء جيشه لصد أعداء البلاد كان تجار القاهرة ينقلون أمتعتهم وأموالهم من بعض الحوانيت التى فى الأسواق ويدخلونها فى الأماكن المهجورة وترك كثير من الأهالى أطراف المدينة ودخلوا الى القاهرة وسكنوا بعض احيائها ونقل أعيان المدينة نفائسهم الى المقابر والمدارس والزوايا والى بيوت الفقراء لكى تسلم من نهب الغوغاء

ثم وردت الأنباء بخروج القوات العثمانية من غزة ووصولها « قاطية » داخل الحدود المصرية فقابل الجيش المصرى هذه الاشاعة بتحصين الريدانية تحصينا كاملا واقامة سور لستر المكاحل التى أقيمت ثم حفرت خنادق كبيرة وعرض السلطان قواته كلها ثم تقدم بها حتى بركة الحاج . وكانت الجنود تمتد من الجبل الأحمر الى حقول المطرية و بعد أيام وصلت أخبار تفيد أن العثمانين احتلوا بلبيس وتحولوا منها الى بركة الحاج فاضطربت أحوال الجيش وغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وباب القنطرة وغيرها من أبواب القاهرة وغلقت أسواقها وتعطلت الطواحين

ولما ثبت للسلطان وصول مقدمة الجيش العثمانى الى بركة الحاج جمع قواته وصار يرتبها فى مواقعها بالريدانية وحصن وطاقه بالمكاحل وبالمدافع وكان الخندق الذى أكمل حفره يمتد من الجبل الأحمر الى حقول المطرية وجعل خلف المكاحل نحو ألف جمل عليها المؤونة . وبدأ ينتظر وصول العثمانيين مع أنه لو تقدم لمقاتلتهم ببركة الحاج لكان من المحتمل أن ينتصر عليهم . ولكن بعد أيام زحف العثمانيون حتى وصلوا الى الجبل الأحمر فلما سمع طومان باى بتقدم الأعداء قام فى الحال بقواته التى تلاقت مع الأعداء

فى أوائل الريدانية . وفى ذلك الميدان حدثت المعركة الفاصلة بين المصريين والعثمانين .

كان ذلك اليوم الأسود هو التاسع والعشرون من ذى الحجة عام ٩٢٢ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ وهو اليوم الذى فقدت فيه مصر استقلالها

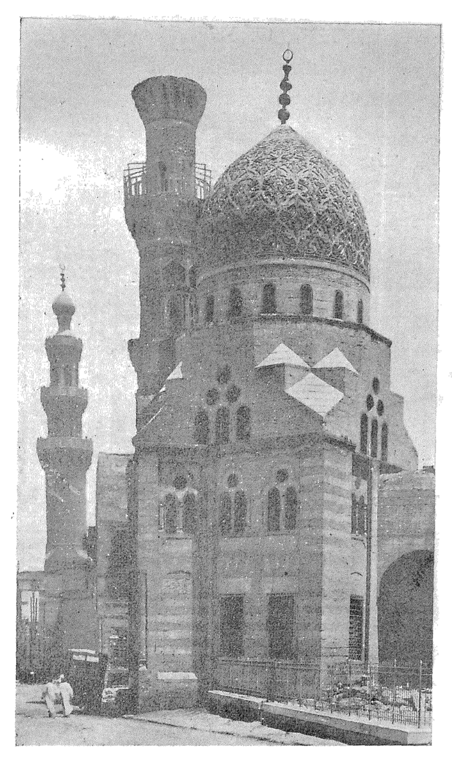
لم تدم معركة الريدانية أكثر من ساعة ويالها من ساعة أليمة قضى فيها على الجيش المصرى قضاء تاما فأصيب فى صميم كبرياله وفر أكثر رجاله نحو القاهرة

أما السلطان طومان باى فقد صمد فى مكانه وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من الرماة والماليك السلحدارية . لكنه لما رأى قلة عدد من أصبحوا حوله خشى أن يقبض عليه وينكل به فطوى صنجقه السلطانى وولى واختفى وقيل انه قصد طره . فما كان من إحدى فرق الجيش العثمانى إلا أن اتخذت طريق تقدمها من تحت الجبل الأحمر حتى نزلت على الوطاق السلطانى فنهبته واستولت على جميع معدات الجيش فيه . بينما استطاعت جماعات عدة من فلول الجيش العثمانى دخول القاهرة من نواح شتى وأخذت تنهب ما تقع عليه أيديها . ومما لاشك فيه أن انتصار العثمانين كان نكبة على مصر والمصريين . وفى ذلك قال الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة

أعمال الغورى

أعود الى ذكر ما أنشأه الغورى من العمائر فى القاهرة فمنها الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما متقابلين . والمأذنة التى أنشأها فى الجامع الازهر وهى ذات رأسين وأنشأ أيضا الربع والحوانيت التى كانت بالسوق خلف مسجده وأنشأ بضعة ربوع فى خان الخليلى كما شيد فى باب القنطرة ربعين ودكاكين وأنشأ بيتا لولده فى البندقانيين وغالى فى زخرفته وأنشأ هناك أيضا ربعاً ووكالة . وأمر بانشاء الميدان الذى تحت القلعة ونقل اليه الاشجار من الشام وأجرى اليه الماء من السواقى وأنشأ به المناظر والمقعد والمبيت وأنشأ جامعا خلف الميدان المذكور وجدد معظم عمارة القلعة منها الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة الاعمدة وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش وجدد أيضا عمارة المطبخ الذى بالقلعة وأنشأ سوقا للرقيق بالقرب من خان الخليلى . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى كان بالقرب من قناطر السباع بناه بالحجر بعد ما كان بالطوب اللبن . وجدد عمارة المقياس وأنشأ به



جامع خيربك (٩٠٧ هـ — ١٥٠٢ م)

قصرا ومقعدا مطلا على البحر وجدد عمارة الجامع الذى هناك . وجدد عمارة قنطرة بنى وايل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخروبى وعلاّها حتى صارت السفن تمر من تحتها وجدد أيضا عمارة قناطر السباع وأنشأ بمدينة الطينة على ساحل البحر الأبيض قلعة لطيفة بها أبراج كما أصلح طريق العقبة

وقد قام السلطان الغورى بانشاء وتجديد كثير من الآثار الاسلامية فى مصر وبلاد العرب والشام وأعد لنفسه ضريحا ولكنه لسوء حظه لم يدفن فى مقبرته التى بناها لنفسه والتى تعرف الآن بالخزانة الزكية نسبة الى شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا

السلطان سليم فى القاهرة

فى اليوم التالى دخل وزراء السلطان سليم القاهرة يصحبهم أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله وملك الأمراء خير بك الذى خان سيده السلطان الغورى وانضم الى العثمانيين . دخلوا من باب النصر واخترقوا القاهرة وأمامهم المشاعلية تنادى بالأمان . وبالرغم من ذلك فان الجنود العثمانيين كانوا ينهبون بيوت الناس الأغنياء والفقراء واستمر النهب ثلاثة أيام وفى يوم الجمعة خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مساجد مصر والقاهرة

بدأ رجال السلطة الجديدة يقبضون على رجال العهد الماضى ويقتلونهم ويشهرون بهم ومنهم والى القاهرة الأمير كرتباى الأشرفى فحزوا رأسه وعلقوها فى وطاقهم وولوا مكانه « يحيى بن نكار » . ثم نقل السلطان سليم وطاقه من الريدانية ونصبه فى بولاق بالقرب من الجزيرة الوسطى وقيل ان مفاتيح القلعة أحضرت اليه فلم يسر اليها وفضل أن يقيم على شاطىء النيل

وفى يوم الاثنين ثالث المحرم دخل السلطان سليم الى القاهرة من باب النصر واخترق المدينة فى موكب حافل وأمامه الجنود المشاة والخيالة حتى وصل باب زويلة ثم عرّج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق حيث أقيم وطاقه

وفى يوم الأربعاء بوغت سليم بهجوم طومان باى عليه فقتل كثيرا من العثمانيين وأحرق معظم الخيام واستولى المصريون على رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر والى قنطرة قديدار واستمرت الحرب بين الفريقين من الفجر الى مابعد المغرب . ثم اشتد القتال ونادى طومان باى فى جهة الناصرية وقناطر السباع بأن كل من يقبض

على عثمانى يأخذ ماعليه و يقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان . وقد نجح المصريون فى طرد العثمانيين من بولاق وجزيرة الفيل وامتلكوها كما طردوهم أيضا من الجزيرة الوسطى الناصرية . ودمرّوا عقدة قنطرة قديدار خوفا من هجوم العثمانيين واستيلائهم عليها. ونزل السلطان طومان باى فى جامع شيخو بالصليبة وصار يركب بنفسه و يتجول فى نفر قليل من جنده من الصليبة الى قناطر السباع . ثم أمر بحفر خندق فى رأس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عند رأس الرملة وآخر بالقرب من جامع ابن طولون . وأمر السلطان طومان باى بحرق خان الخليلى وقيل ان بعض الأمراء منعه من ذلك

اذن فالقاهرة فى ذلك الأسبوع كانت ميدانا لمعسكرين ... هناك فى الشمال المعسكر العثمانى . . . وهناك فى جنوب القاهرة المعسكر المصرى يحتله جنود طومان باى ومماليكه . و يلذ للقارىء أن يلم ببعض الحركات العسكرية التى اتبعها المصريون للاستيلاء على القاهرة بعد أن احتل العثمانيون جزءا منها . فقد قسّم طومان باى جنوده الى أربع فرق : الفرقة الأولى احتلت منطقة قناطر السباع والفرقة الثانية احتلت جهة الرملة والثالثة جهة جامع ابن طولون والرابعة جهة باب زويلة . و بينما كان هذا الاستعداد تاما كنت ترى بعض مماليك السلطان يختفون فى الاسطبلات خوفا من القتال و بطش جنود ابن عثمان . وقيل ان فرقة عثمانية عبرت النيل بالقرب من مصر القديمة واتجهت الى القرافة الكبيرة واستولى رجالها على المنطقة الممتدة بين باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة فاقتحموا ضريحها وامتهنوه وسرقوا قناديله الفضية و بسطه النفيسة وقتلوا كثيرا من الناس الذين احتموا بالضريح . و بينما استمر القتال فى تلك الجهة اذا ببعض الجنود العثمانيين الفارين أمام المصريين قد صعدوا الى مأذنتى الجامع المؤيدى وصاروا يوجهون رصاص بنادقهم نحو المارة و يمنعونهم من الدخول الى باب زويلة واستمروا على هذه الحال حتى صعد فريق من المصريين وقتلوهم فى قمة المأذنة شر قتلة . وكان المرء أينما قادته قدماه يرى جثث القتلى من الفريقين ملقاة مشوهة فى الطرق بين بولاق وقناطر السباع والرملة والقلعة . وفى تلك الفترة القصيرة خطب باسم طومان باى على منابر القاهرة

لكن لم يدم الأمر طويلا فى جانب المصريين . ففى يوم السبت الثامن من المحرم (٩٢٣ هـ) فترت همة الجند وتكاسل معظم الأمراء ولم يبق بجانب طومان باى الا نفر قليل من عبيده ومماليكه المخلصين منهم « شادبك » الأعور . فلما لاح له أن نجمه قد أفل و بدت الهزيمة أمام عينه فر قاصدا بركة الحبش ثم توجه الى البهنسا

العثمانيون ينتقمون فى القاهرة

لما انهزم السلطان هجمت جنود العثمانيين على حى الصليبة وأضرموا النار فى جامع شيخو فاحترق سقف الأيوان الكبير والقبة وأحرقوا البيوت التى حول الجامع وقبضوا على الشرفى بن العداس خطيب الجامع وأحضروه بين يدى السلطان سليم فهمّ بضرب عنقه فلما بلغ الخليفة ذلك ركب قاصدا السلطان وشفع فى ابن العداس وأنقذه من القتل . وبدأ الجنود انتقامهم من الأهالى بحالة فظيعة فكانت الجثث ملقاة فى كل مكان وبلغ عدد قتلى تلك المعارك فوق العشرة الآلاف فى مدة لا تتجاوز أربعة أيام وصار العثمانيون يهجمون على بيوت المماليك الجراكسة ويضربون اعناق من عثروا عليه منهم . وتحول الهجوم إلى المساجد فقصدوا الأزهر والحاكم وابن طولون وغيرها من المدارس والأضرحة وقتلوا من وجدوه فيها من المماليك . وقيل إنهم قبضوا على ثمانمائة منهم ضربوا رقابهم كلهم بين يدى سلطانهم . ولما انتهى انتقام العثمانيين عادالسلطانسليم الى وطاقه فى الجزيرة الوسطى وأعلن الأمان لكل من يظهرمن الأمراء على اختلاف مراتبهم ويتوجه الى مدرسةالسلطانالغورى فظهر الأمير أركاس أمير السلاح والأمير أنصباى أمير أخور كبير والأمير تمر الحسنى رأس نوبة النوب وغيرهم من الأمراء الطبلخانات والعشرات . فلما اجتمعوا قابلوا السلطان سليم فى وطاقه فوبّخهم ثم أمرهم بالاقامة فى القلعة

وفى يوم الخميس عشرين من المحرم نادى السلطان سليم فى الصليبة وقناطر السباع بأن يخلى أصحاب الأملاك فى الصليبة وجامع ابن طولون بيوتهم لأنه سيقصد القلعة للأقامة فيها فأطاع الأهالى ذلك الأمر وخرجوا من بيوتهم فاحتلها العثمانيون فى الحال وأصبحت مناطق الصليبة الى جامع قوصون الى قناطر السباع ابتداء من باب زويلة يشغلها العثمانيون . وبعد أيام صعد السلطان سليم الىالقلعةفى موكب عظيم وحوله جنده وكان ذلك أول صعوده اليها واحتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ولم يجلس على التكة بالحوش السلطانى كما جرت العادة من قبل . وأهملت فى أيامه القلعة اهمالاشائنا . فقد ربطت الخيول فى الحوش الى باب القلة الى الايوانالكبير وجامعالناصروخربت أكثر الأماكن التى فيها . وأمر السلطان بفك رخامها ليشحنه الى الاستانة بعدوضعه فى صناديق من الخشب ومن أهم مافكه رخام قاعة البيسرية الذى كانالسلطان الغورى

قد اغتصبه بدوره من أولاد ناظر الخاص حيث كان يزين قاعتهم المسماة بنصف الدنيا فسلط الله تعالى بعد موته من اغتصبه من البيسرية .ولم يقصر السلطان همه على نقل الرخام والتحف والآثار الى بلاده بل رحل طوائف من البنائين والمهندسين والنجارين والحجارين والمرخمين والمبلطين من المسلمين والمسيحيين الى الأستانة ليعملوا فى المدرسة التى أراد بناءها فى الأستانة على طراز مدرسة السلطان الغورى

آخر سلطان مصرى

وفى شهر صفر (٩٢٣ هـ) أشيع زحف طومان باى على العثمانيين فى الجيزة فوقعت بعض اضطرابات فى القاهرة ثم دارت مفاوضات بين السلطانين سرعان ما انتهت بالفشل لتناقض وجهتى النظر . ثم أشيع أن جنود طومان باى وصلت الى تَرسه بالقرب من الجيزة فاجتاز السلطان سليم النيل بالقرب من الجيزة لما بلغه وصول طومان باى الى «المناوات» وتلاقى الفريقان عند وردان فدارت معركة شديدة بينهما انتصر فيها المصريون على العثمانيين ولكن تكاثر العثمانيون بعد ذلك وتغلبوا عليهم فهرب طومان باى الى «البوطة» ولما تم النصر للسلطان سليم على الجنود المصريين قطع رءوس المماليك الجراكسة والعربان ووضعها فى سفينة الى بولاق ثم حملها النوتيون على أكتافهم ومروا بها وأمامهم الطبول والزمور وزينت المدينة بأكملها لهذا النصر المشهود

وقد أقام فى الجيزة أياما زار فى أثنائها الاهرام التى دهش من بنائها الخالد ووقف أمامها تلك الوقفة التاريخية التى وقفها من بعده بثلاثة قرون نابليون بونابرت على رأس حملته الفرنسية على مصر

أما طومان باى فانه بعد هزيمته توجه الى «تروجه» فى مديرية الغربية قاصدا صديقه حسن بن مرعى وابن أخيه فى ضيعة تسمى «البوطة» بالبحيرة وأقام ضيفا عندهما واستوثق من وفائهما بأن أحضر مصحفا شريفا حلفهما عليه ألا يخوناه وأن لا يغدرا به . فلما استقر عندهما أحاط به الاعراب من كل جانب ووصل للسلطان سليم خبر يفيد وجود طومان باى فى ذلك المكان فأرسل اليه جماعة من جنده قبضوا عليه وهو متخف فى زى الأعراب وكبلوه بالحديد وتوجهوا به الى السلطان سليم فما كاد يراه حتى وقف وعاتبه وأمر بوضعه فى الحفظ فى الوطاق العثمانى بانبابة وهو مكبل فى الحديد سبعة عشر يوما الى اليوم الثانى والعشرين من ربيع الأول (٩٢٣ هـ) ففى ذلك اليوم عبروا به النهر من

امبابة الى بولاق فالمقس وأمامه نحو أربعمائة عثمانى فشقوا القاهرة حتى وصلوا الى باب زويلة وهو لا يدرى من أمره شيئا . فلما أتى تحت الباب أنزلوه من على فرسه وأرخوا له الحبال ووقف حوله الجنود العثمانيون شاهرى سيوفهم استعدادا لتنفيذ أمر السلطان سليم بشنقه . فلما تحقق من مصيره قال للناس الذين التفوا حوله :

« اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات » . وكان هو اول من بسط يده وقرأ السورة ثلاثا وقرأها الناس معه ثم قال للجلاد :

« اعمل شغلك »

فقام الجلاد بمهمته ووضع الحبل حول عنقه وفى لمحة قصيرة كان جثة هامدة . فصرخ الناس من الرعب وكثر الحزن عليه . فقد كان سلطانا شابا فى نحو الرابعة والأربعين من عمره شجاعا ثبت أمام أعداء بلاده

وقد بقيت جثته ثلاثة أيام معلقة على باب زويلة حتى فاحت ريحتها فأنزلوها ووضعوها فى تابوت وتوجهوا بها الى مدرسة عمه السلطان الغورى حيث غسل وكفن وصلى عليه . ثم دفن فى الحوش الذي خلف المدرسة ومضت أخباره وعنه قال المؤرخ الكاتب ابن إياس :

لهفى على سلطان مصر كيف قد	ولى وزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة	ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب فاعفوا عن عظايم جرمه	واجعل بجنات النعيم له قرا

ولما تخلص السلطان سليم من منافسه غادر وطاقه بأمبابة وتوجه الى القاهرة وشقها من باب الخرق ودخل من باب زويلة وتوجه الى الجامع الأزهر فزينت له المدينة وصلى فيه صلاة الجمعة وتصدق بمبلغ من المال ثم عاد ثانية الى بولاق من الطريق الذى أتى منها ·وفى شهر ربيع الآخر اجتاز النيل ونزل بالمقياس بالروضة . وكانت فى ذلك اليوم رياح عاصفة كادت تغرق سفينته . وبعد أيام نقل معسكره الى الروضة ومصر القديمة وأمر بطرد سكانهما واحتل العثمانيون منازل الأهالى . وكان يتردد عليه وزراؤه يوميا يطالعونه بالأمور التى يفعلونها ويأخذون عنه أوامره وكان ينتقل كثيرا بين القلعة ومقياس الروضة

فى الشهر التالى عرض السلطان سليم جيشه بالجيزة وعين منه جماعة للسفر معه الى الاسكندرية حيث قضى فيها خمسة عشر يوماً ثم عاد ثانية الى القاهرة وقصد المقياس بالروضة

تدمير القاهرة

ويا ليت الأمر اقتصر على ما اتلفته معارك الجند فى أحياء القاهرة أو ما أمر السلطان بفكه من رخام القلعة ونقله مع تحفها وآثارها الى عاصمة ملكه بل كان والى القاهرة « يحيى بن نكار » يأخذ معه جماعة من المرخمين يهجمون على بيوت الناس الهادئين وينزعون منها الرخام المنوع الألوان فخربوا بذلك عدة بيوت كاملة فى بولاق وعلى بركة الرطلى كان يمتلكها تجار وأغنياء وأمراء وقواد . وبينما كان هؤلاء يجدون فى أعمال التخريب كان الوزراء العثمانيون ينهبون الكتب النفيسة من المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية وغيرها من المدارس التى اشتملت على المكاتب الثمينة . فكان التدمير مزدوجا تدميرا فى العمارة وتدميرا فى الأدب . وقاست بسبب ذلك أبنية كثيرة كما فقدت حلقة من حلقات الأدب المصرى

ولم يقصر العثمانيون همتهم على نقل الآثار المصرية الى بلادهم بل كانت القاهرة كما يحدثنا ابن إياس تهيج وتموج وصار رجال الحفظ يلقون القبض على كل من يخترق أبواب المدينة سواء أكان رئيسا أو وضيعا ويضعونهم فى الحبال ويأخذونهم إلى القلعة لسحب المدافع النحاسية الضخمة التى كانت مركبة فى أسوارها ثم ينزلونها فى السفن لنقلها الى استانبول . وكانوا قبل ذلك قد نقلوا العامودين الرخاميين المعروفين فى الأيوان الكبير بالقلعة

وقد أعجب السلطان سليم بمنطقة المقياس فبنى عليها قصراً من الخشب بالقرب من القصر الذى كان أنشأه هناك السلطان الغورى وقد انتهى من بنائه بسرعة عجيبة

وفى شهر رجب عام ٩٢٣ هـ احتفل بفتح السد وجرى ماء النيل فى الخليج الحاكمى والناصرى وقد حضر الاحتفال يونس باشا نائب السلطان وكان احتفالا هادئا . ولما امتلأت بركة الرطلى بالمياه قصدتها جماهير العثمانيين وأجبروا أصحاب البيوت المطلة عليها على مغادرتها وأخذوا أبوابها وشرفاتها ودرابزيناتها وأضرموا فيها النار

وكانت الجزيرة الوسطى قد خربت عن آخرها نتيجة للمعارك التى دارت حولها أو فيها ولم يبق منها سوى بعض الجدران . ونقل أصحاب الأملاك سقوف بيوتهم وأبوابهم ونوافذهم الى حيث أودعوها فى أماكن مستورة . وفى بركة الأزبكية خط العثمانيون معسكرهم ومنعوا تسرب المياه إليها وخربوا كثيرا من بيوتها وسرقوا ما فيها من أخشاب وكذلك عملوا فى منازل حى بولاق

وللقاضى أبو الفتح السراجى أحد نواب الحنفية وكان مجلسه بخط جامع ابن طولون مرثية تضمنت أكثر حوادث التاريخ بمصر أقتبس منها الأبيات الآتية :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى من حادث عمّت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك في غمض العيون كأنها سنة الكرى
لهفى على شيخو وجامعه الذى قد كان للصلوات مجتمع الورى
درست معالمه بحرق صار من بعد التزخرف والرياضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد أخلت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله من كل بيت كان زاه أزهرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا وخلت منازلهم وعادت مقفرا

السلطان يغادر القاهرة

وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من شعبان (٩٢٣ هـ) خرج السلطان سليم من بيت ابن السلطان قايتباى الذى كان خلف حمام الفارقانى واخترق الصليبة وصعد الى الرملة وخرج من القلعة بموكب عظيم يسبقه ملك الأمراء خير بك نائب حلب وجان بردى الغزالى نائب الشام وأمام الحرس السلطانى فرقة موسيقية . وكان السلطان يمتطى ظهر بغلة صفراء عالية قيل إنها من بغال السلطان الغورى . وكان معه فى الموكب يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء وأعيان البلاد . وصل الموكب الى الصوة فمقبرة الأشرف قايتباى حيث وقف السلطان لقراءة سورة الفاتحة واستمر فى سيره حتى وصل الى وطاق بركة الحاج . ولاندرى لماذا لم يخترق الموكب السلطانى قلب القاهرة وفضّل السلطان السير فى خارجها وعلى حين فجأة

بعد ذلك سار الموكب الى الخانقاه فنزل للاستراحة وقيل إن السلطان سليم خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ذهبا وفضة وتحفا وسلاحا وأوانى من الخزف والصينى والنحاس والخيول والبغال والجمال . . . الخ

أقام السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر الا أياما قلائل قضى أكثرها بالمقياس ولم يجلس على سرر الملك بالقلعة

وغادر السلطان سليم عاصمة الديار المصرية دون أن يترك فيها أثرا قائما يكون تذكارا لفتحه بلاد الفراعنة أو كفارة عما تركته جيوشه فيها من آثار الخراب والدمار وما سلبها إياه من تحف وصناع وفنانين كان لهم بعد ذلك فضل كبير فى خلق صناعات عديدة ازدهرت فى الأمبراطورية العثمانية

قاهرة الباشوات والبكوات

نبكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالذل مقهورة بعد ما كانت هى القاهرة

« بدر الدين الزيتونى »

الأتراك فى مصر ــ خيربك ــ صور للقاهرة العثمانية ــ القاهرة كما وصفها بعض الرحالة الأجانب ــ القاهرة فى أثناء القرن السادس عشر ــ القاهرة فى أوائل القرن السابع عشر ــ قاهرة الرحالة « دى تيفنو » ــ قلعة القاهرة ــ فانسلب والقنصل دى ماييه ــ قصة واعظ ــ القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار ــ مشيخة عثمان بك ــ القاهرة بين الأميرين ابراهيم ورضوان ــ أسرة الشرايبى ــ الحياة العقلية ــ الرحالتان بوكوك ونوردن ــ قاهرة على بك الكبير ــ أبو الذهب فى القاهرة ــ قاهرة عبد الرحمن كتخدا ــ سونينى وسافارى ــ القاهرة تستقبل الوالى ــ القاهرة بين البكوات اسماعيل ومراد وابراهيم ــ القاهرة بين الأميرين إبراهيم ومراد ــ ثقافة القاهرة فى العصر التركى ــ هل تطورت القاهرة خلال الحكم التركى ــ مهرجانات القلعة ــ الخاتمة

الأتراك فى مصر

لعل تاريخ مصر الاسلامى لايشمل فترة أكثر غموضا من العصر الذى كانت فيه البلاد ولاية عثمانية بحتة يحكمها ولاة يرسلهم السلطان العثمانى من قبله أو بعبارة أخرى العصر الذى يبدأ باستيلاء السلطان سليم على مصر عام ١٥١٧ وينتهى بقيام الدولة المصرية الحديثة على يد منشئها المغفور له محمد على باشا سنة ١٨٠٥

فالمصادر التاريخية عن هذا العصر ليست وافرة وإن يكن بعض الأدباء المصريين وكتاب الافرنج قد دونوا حوادثه فان المؤرخ لايسعه إلا ملاحظة ما فى كتاباتهم من نقص وغموض وإبهام

ومهما يكن من شيء فقد كتب المؤرخ المصرى محمد بن احمد بن إياس « تاريخه المشهور » فوصف فيه حوادث السنين الأولى للفتح العثمانى حتى سنة ١٥٢٢ . وألف ابن أبى الفضائل كتابه « تاريخ سلاطين المماليك » وقد ترجم الى اللغة الفرنسية . كما أن كتاب « عجائب الآثار » للجبرتى مصدر أساسى لتاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفى خلاله . ومن المحتمل ان تكون فى اللغة التركية كتب صنفها مؤرخو العثمانيين لذلك العصر باللغة التركية عن ولاتهم الذين أوفدهم الخليفة ليحكموا مصر بالسوط

وقد زار مصر كثير من الأجانب فى عهد الاتراك ووصفوا أحوالها وآثارها وعادات سكانها فى مؤلفاتهم . وفى مقدمة هؤلاء الدكتور القس « ريشارد بوكوك » الذى زار مصر عام ١٧٣٧ م وكتب مؤلفه الضخم « وصف الشرق و بلاد أخرى » وفى نفس ذلك الوقت زار مصر « فردريك توردون » الضابط بالبحرية الدنماركية وكتب عنها كتابا ليست له قيمة من الناحية التاريخية . كذلك كتب المسيو « دى مايية » قنصل فرنسا فى مصر فى عام ١٦٩٢ كتابا نفيسا عن أحوال مصر فى أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر الميلادى*

استولى السلطان سليم على مصر وشرع فى تأييد سلطته على البلاد فجعل عليها حاكما يلقب بالباشا وخشى أن يخرج الباشا على الأستانة و يستقل بمصر فاهتدى الى طريقة تضمن له بقاء البلاد تحت سيطرته . فجعل فى مصر ثلاث إدارات كل منهما تراقب أعمال الأخيرين فلا يخشى من اتحادها وتمردها . فالقوة الأولى « الباشا » أهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها وليس له أن يغادر القلعة بأى حال من الأحوال والقوة الثانية « الوجاقات الستة » وواجباتها حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الخراج وقد وزع هذه الوجاقات فى القاهرة وفى المراكز الرئيسية من القطر وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة وكان تنظيم تلك الوجاقات كما يأتى :

١ ـ وجاق المتفرقة وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطانى

٢ ـ « الجاويشية « « من صف ضباط جيش السلطان سليم وعهد اليهم بجباية الخراج

٣ ـ وجاق الهجانة

---

* انظر المراجع بآخر الكتاب

٤ – وجاق التوفكجية

٥ – « « الأنكشارية وهو أهمها

٦ – « « العزب

وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه فى الاستانة ضابط برتبة « سكبان باشى » وهى رتبة تعادل القائمقام اليوم

أما القوة الثالثة فهى المماليك وهم بقايا المماليك البحرية والجراكسة وواجبهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها اثناعشر يحكمها البكوات المنتخبون من أمراء المماليك

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أصحاب القوة الفعلية فى البلاد وان كان السلطان هوالذى « يعين الباشا » فقد كان ميسورا لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه ضده من المؤامرات وبغير ذلك من الوسائل . ومهما يكن من شىء فقد كان الباشا يصل الى مصر تحف به حاشية مؤلفة من اثنى عشر شخصا فيبعثر أكياس الذهب يمنة ويسرة فى الأعياد والحفلات ولكن ذلك لم يمنع ثورات الجند مما أدى الى زيادة نفوذ المماليك حتى أصبحوا لاينقصهم الا لقب السلطنة الذى استبدلوه بلقب « شيخ البلد »

كان كلما تقلص نفوذ الباب العالى قل نفوذ ولاته فى مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك الذين شيدوا القصور العظيمة على حافة بركة الأزبكية أو بركة الفيل وفى الصليبة وفى حى سوق السلاح . وسكن بالقرب منهم أتباعهم المسلحون الذين كانوا يهجمون على أحياء منافسيهم بأشارة من مولاهم فيسرقونها وينهبونها ويقتتلون فى الشوارع ويتقاذفون الرصاص من النوافذ والمشربيات . وزاد الطين بلة ذلك العنصر المشاكس الذى تألف من أفراد الأورطتين التركيتين أورطة العزب وأورطة الأنكشارية ومقرهما ثكنات القلعة . وكان قائد الأورطتين من أقوى الأمراء أعوانا ونفوذا فى القطر ولم تختلف أخلاقهما كثيرا عن أخلاق المماليك الأول

إذا كانت مصر فى عصر العثمانيين لاتزال يحكمها المماليك ولاسيما أن ولاتها الباشوات كانوا دائما يستبدلون بأوامر الباب العالى . وكانوا يخافون نفوذ زعماء رجال حاميتهم ويخشون بأس بكوات المماليك الأقوياء الذين كانوا يضمون صفوف بعضهم إلى بعض

ويكونون شبه ائتلاف فيما بينهم كالقاسمية والفقارية وكانوا ينتهزون الفرص أحيانا للتعارك فى الطرقات أو محاصرة جنود أورطة العزب

وقد تنبه رجالهم إلى امكان الاستيلاء على القلعة إذا احتلوا التل الخلفى الذى يشرف عليها .وكثيرا ما نقرأ فى تاريخ الجبرتى أخبار الجنود الذين احتموا فى مساجد ابن طولون وألماس والمحمودية . . . الخ وأطلقوا كرات المدافع من المآذن المجاورة . وقد وصل العسف والاستبداد إلى حد لا يمكن وصفه فقد كانت الطرقات تخلوا أياما من المارة . . والبيوت يهجم عليها لتنهب . ولم يكن يجسر انسان على الذهاب إلى بولاق ومصر القديمة . فاذا مضت تلك الفترة المخيفة أعقبتها فترة أخرى سادتها السكينة وشملها الهدوء لماذا ؟ لأن أميرا قويا تغلب على منافسيه فتخلص منهم واستطاع أن يعيد إلى البلاد طمأنينتها . ومن الصعب جدا ان نعثر على أمير من أمراء هذه الطبقة لكى نقارنه بأحد أمراء المماليك السابقين الذين جلسوا على عرش دولة قوية . . عرش مصر القوية المستقلة الغنية المتحضرة . كانت الفرص أمامهم قليلة فلم يقوموا بالحروب المجيدة فى الشام أو آسيا الصغرى . وكانت بعض الفرق المصرية التى تذهب للخدمة فى بعض نواحى السلطنة ينظر اليها كأنها وحدات من جيش الامبراطورية العثمانية ولم تكن لهم أو لجنودهم شخصية مستقلة فكانوا كالفرق المراكشية أو الجزائرية التى تقصد اليوم باريز للخدمة فى حاميتها كوحدة من وحدات الجيش الفرنسى

خير بك

كان أول الولاة الذين ولاهم السلطان سليم على مصر «خير بك» وكان من كبار رجال قنصوه الغورى انضم إلى الأتراك فى الشام وكان يشغل منصب نائب حلب . وعده السلطان سليم بأن يوليه ولاية مصر جزاء له على معاونته فى فتح مصر وقد بر السلطان بوعده .

ففى يوم الأحد سادس وعشرين شهر شعبان صعد الخائن خير بك إلى قلعة الجبل بموكب عظيم وأمامه بعض رجال العثمانيين فاخترق الصليبية فى الفجر وأقام بالقلعة . ورغب تصليحها ليعيد اليها شيئا من مجدها القديم فأرسل فى طلب البنائين والنجارين والمبلطين ليرمموا ما أفسده العثمانيون فيها . ثم أسند خير بك ولاية القاهرة لرجل تركى كان مملوكا له اسمه كشبغا كما أسند عدة وظائف لبعض رجاله المخلصين . أما يونس باشا الذى

كان السلطان سليم عينه نائبا عنه فى مصر وكان أعظم وزرائه فقد قتله وليس السبب معروفا

وفى يوم من الأيام أشيع عقد قران «خير بك» على « خوند مصر » زوجة الظاهر قنصوه . وقد تحققت تلك الاشاعة لما طلعت إلى القلعة قبل شروق الشمس وفى صحبتها جماعة من نساء الأعيان راكبات الحمير . ولكن بعد مضى خمس سنوات على زواجهما غضب عليها « خير بك » وأنزلها من القلعة وأمرها بأن تسكن فى مدرسته التى بباب الوزير ورتب لها فى آخر كل شهر مايكفيها من النفقة . وقيل إن سبب ذلك قدوم زوجته الأولى من الاستانة . ففضل خير بك أن تكون الزوجة الأولى صاحبة القاعة عوضا عن « خوند مصر » . و بعـد شهر وصلت الزوجة المذكورة فصعدت إلى القلعة ليلا فى محفة على ضوء المشاعل

كانت أهم حوادث القاهرة فى أول ولاية خير بك تزايد أذى العثمانيين للقاهريين . ومن سيئات أعمالهم سطوهم على حى الأزبكية ونزعهم الأبواب والسقوف والشبابيك الحديدية فكانوا يحملونها على الجمال لبيعها فى الأسواق بأبخس الأثمان كذلك كانوا ينزعون أخشاب طباق القلعة لاستخدامها فى النار المعدة لطهى طعامهم . ولما زاد الأمر تدخل قاضى القضاة واتصل بخير بك فعمل على تهدئة الأحوال وان لم يكن قد نجح فى الوصول الى ذلك دفعة واحدة فان الامن أخذ يستتب شيئا فشيئا وساعد على ذلك رحيل عـدد عظيم من الجنود الانكشارية والدلاة (Spahis) الذين كانوا يعصـون الأوامر جهارا ويرتكبون كل محرم علنا وجهرا ومالبث خير بك ان تخلص من جزء كبير من الجنود العثمانية

فى أواخر شهر ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ وصل الى مصر مندوب من الاستانة يحمل نبأ وفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان سليمان . فأمر خير بك فى اليوم التالى بأن يطوف فى القاهرة أربعة « مشاعلية » اثنان يناديان باللغة العربية واثنان باللغة العثمانية العبارة الآتية : « ترحموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان »

وفى اليوم التالى وكان يوم الجمعة أمر خير بك بالصلاة على السلطان سـليم صلاة الغيبة بجامع القلعة وفى سائر جوامع القاهرة والدعاء للسلطان سليمان على المنابر فى ذلك اليوم . ثم أقيمت معالم الزينة فى القاهرة ثلاثة أيام فى مناسبة ارتقاء السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية فارتدت المدينة ثياب الفرح لا سيما خان الخليلى اذ قام تجاره بتزيينه

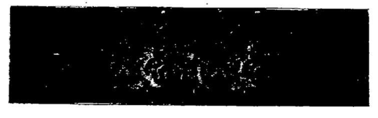
زينة فاخرة وصار والى القاهرة الأمير على الكيخيا يطوف يوميا عـدة مرات يحرض الناس على الاكثار من معالم الزينة !

زينت مصر وأضحت بعد حزن فى تهان
مذ غدت بعد سليم لسليمان الزمان

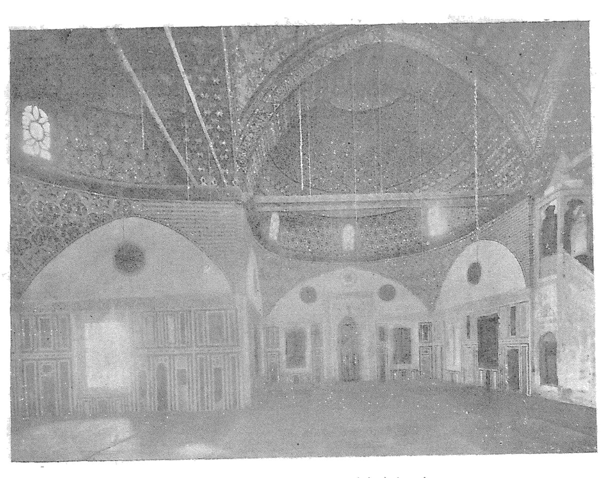
وفى يوم الأحد (٢٤ ذى القعدة ٩٢٨ هـ) مات خير بك ونعى بالقلعة بعد الظهر وبات تلك الليلة فيها وفى اليوم التالى غسلت جثته وكفنت وحمل الناس نعشه وصلوا عليه ثم نزلوا به من سلم المدرج وسار أمام جنازته الجنود العثمانية وامراء الجراكسة والقضاة الأربعة الذين التقوا بالموكب عند مدرسة أيتمش بقرب باب الوزير وساروا به إلى مدرسته التى أنشأها فدفن مع أخوته . وكانت مدة ولايته على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما وخلف أموالا تقدر بستمائة ألف دينار ذهب

تولى الأمير سنان بك ولاية القاهرة بصفة مؤقتة حتى وصـل الوالى الجديد من الأستانة وهو الوزير مصطفى باشا . وصل بولاق وكان فى استقباله الأمير سنان المذكور والأمير خير الدين نائب القلعة وبعض الأمراء . ارتدى خلعة السلطان وامتطى ظهر فرس من الجياد الخاصة وسار موكبه إلى باب البحر واستمر إلى باب القنطرة وشق سوق مرجوش مخترقا القاهرة . وكان الأمير سنان عن يمينه والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وكانت ترتفع له أصوات الدعاء كما انطلقت زغاريد النساء وكان يوما مشهودا . ثم وصل الموكب إلى الرملة ودخل إلى الميدان ثم صعد الى القلعة وتسلم مفاتيح بيت المال

لم يدم مصطفى باشا فى منصـبه هذا أكثر من تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما ثم أبدل بأحمد باشا الذى قطعت رأسه وعلق جسمه على باب زويلة . ثم أرسل السلطان قاسم باشا فابراهيم باشا فسليمان باشا. وكان السلطان راضيا عنه واثقا منه فأبقاه فى الولاية تسع سنوات وأحد عشر شهرا حتى اسـتدعاه الى الأستانة ليسلمه قيادة حملة أعدّها لمحاربة الفرس والهند . وقد أقام فى أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية بالقلعة . ويعرف بجامع سليمان باشا وكان أول جامع شيد فى مصر على الطراز العثمانى



ألواح من قاشانى صناعة الأناضول اصلها من الجامع الازهر من القرن السادس عشر الميلادى



جامع سليمان باشا (٩٣٥ ﻫ ـــ ١٥٢٨ ـــ ١٥٢٩)

صور للقاهرة العثمانية

ولقد وصفت مدينة القاهرة فى عام (٩٢٣ هـ – ١٥٢٦ م) فى مؤلف ألمانى نشر نحو سنة ١٥٧٤ جاء فيه مايلى :

ان الكاير (Alcaire) مدينة مصر الكبيرة هى التى ندعوها كيروس (Cairus) ويدعوها العرب مارار (Mazar) أو ميزير (Mizir) واقعة فى نقطة حسنة مناسبة أى حيث يبتدىء النيل بالانقسام إلى فروع عديدة فهى شبه سد للنيل

وللمدينة ضواح كبيرة جدا يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على اثنى عشر ألف منزل ويقال ان (الكاير) القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللكثيرين من أهلها مساكن كبيرة جدا وفيها قصور وهياكل فخمة عديدة تدعى (جيوما) جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التى يستخدمونها لتقديم الضحايا وفاقا لعاداتهم (!) و يوجد فى المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير وفيها أيضا مبان كبيرة يجعل منها الوجهاء مدافنهم (أضرحة) . ويظن حكام القاهرة الظالمون أنهم يستطيعون ان يكفروا عن ذنوبهم السيئة ببناء بيوت عظيمة قرب أضرحتهم ووقف مبالغ عظيمة عليها للفقراء والحجاج والطلبة والزهاد والنساك

وقد وجدت الفقرات الآتية فى دليل قديم عن مصر :

« الكاير » مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف حجم مدينة باريس وفيها كثير من الكنائس المسيحية وشوارعها مزدحمة ازدحاما عظيما بالناس والخيل والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون عائق . ويشتغل الصناع أمام المنازل فى الشوارع . وقليلون يطبخون طعامهم فى منازلهم لأن بعض الناس يبيعون جميع الأطعمة فى الشوارع مطبوخة أفضل طبخ ويوجد فى القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طباخا

وقد أرفق المؤلف الألمانى هذا الوصف بخريطة طريفة للقاهرة فى عصره وبين عليها مجرى النيل وتخلله المدينة ونواحى العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل . .

القاهرة كما وصفها بعض الرحالة الأجانب

وصف القاهرة فى العصر التركى موجود فى طائفة كبيرة من المراجع العربية والافرنجية وفى مقدمة المراجع العربية تاريخ الجبرتى وابن أبى السرور . وفى هذين المرجعين يضل

الباحث كثيرا لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث التافهة التى لا يهتم بها القارىء الا للتسلية وان كان لبعض تلك الحوادث أهمية اذ يستطيع ان يرجع اليها المؤرخ فيستنتج منها كثيرا من الحقائق ومهما يكن من شىء فانه ان لم يكن قديرا موفقا فان عددا كبيرا من الموضوعات الهامة يفوته فى هذه القصص والذكريات

أما المراجع الافرنجية فتنحصر فيما كتبه السياح الأجانب فى اثناء زياراتهم لمصر أو التقارير الوصفية التى كتبها بعض الرجال السياسيين وأكثر هذه التقارير ليس ممتعا بحيث يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البلاد . فهؤلاء الأجانب أكثرهم متفرجون يشاهدون عن بعد ويثبتون أحكامهم على أسس غير موثوقة وعلى كل حال فان آراء أغلبهم سطحية سريعة . غير ان علينا رغم ذلك ان نلم بما نعثر عليه فى تلك المؤلفات القديمة وندقق بين آراء كل منهم حتى نستطيع ان نعطى صورة صحيحة للقاهرة فى اثناء العصر التركى

هؤلاء الرحالة الأوربيون لاسيما الذين زاروا مصر فى اثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يذهبون مذاهب شتى فى تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ماوقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح أفكارهم ولم يستطيعوا أن يلمسوا محيط الحياة المصرية ولعل خير مصدر يعطى صورة جيـدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو كتـاب « الحاج الفرنسى » « جريفا أفاجار » (Greffin Affagart) واسمه Relation de Terre Sainte وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها فى عدة صفحات من كتابه قال :

تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريز وهى ذات شوارع ضيقة وملتوية وقصيرة وأكثرها غير منظم ومن هذه الطرقات ماهو مغطي بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف والتى بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم وفى اثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم

وشعب القاهرة خليط من أجناس وأديان العالم المختلفة فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعقوبيون والنسطوريون . وبالاختصار فان حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة على قوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية

وقد كتب ليون الأفريقي قبل ذلك بعدة سنوات فقال :

« والقاهرة مملوءة بالتجار والصناع ولكل أصحاب حرفة من الحرف حي خاص بهم ومقر أصحاب الحرف الرفيعة وتجار الأقمشة والحرائر والأصواف والخردوات الواردة من بلاد الفلاندر وتجار السجاجيد الفارسية خان الخليلي وكان مؤلفا من ثلاث طبقات وفي القاهرة كثير من محال بيع أنواع الجبن المشبعة بالزيت وحوانيت الشربات في أوانيها البلورية الجميلة وكذلك حوانيت بيع الفطائر الدسمة والحلوى المصنوعة من عسل النحل أوسكر القصب

وذكر الرحالة « كاربيه دى بنو »(Carbier de Finon) أن القاهرة أرحب من الاستانة وقال فيرمانل (Fermanel) وقد زارها اثناء القرن السابع عشر ان القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الأمبراطورية العثمانية ازدحاما . أماالرحالة « ديلا فالى »(Della Valle)فقدرها تقديرا تفوق به الاستانة وروميه وكل البلدان التي شاهدها في اثناء رحلاته . فلما زارها كوبان (Coppin) وصفها بأنها أصغرمن باريس وأقل سكانا على عكس ماذكره فيما بعد تيفنو(Thévenot)

وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالين أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريز في المساحة وعدد السكان وأولهم الطبيب جرانجر (Granger) وكان قد استهوته القاهرة كما وصفها إليه صديقه المسيو « بينيون » قنصل فرنسا في القاهرة وثانيهم « لوماسكريه » (Le Mascrier)وثالثهم دانفيل (Danville)

ووضع بروين (Bruyn) مدينة القاهرة في مرتبة امستردام أو رومة . فلما اطلع فان اجمون (Van Egmont) على ما كتبوه احتج على تقديراتهم جميعا لاسيما الذين قالوا بأن القاهرة أعظم مدن العالم ودهش كيف أن « لوما سكريه » قدر عدد سكانها بالملايين

ولا نرى أيضا كلمة متفقة عن مساحة القاهرة لنستدل منها على حالتها الحقيقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر فبينما ذكر « هاكلو » (Hakluyt) في القرن السادس عشر ان دورة القاهرة أي محيطها ٣٣ كيلو مترا قال كوربييه دى بنو ان طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلومترا وعرضها خمسة كيلومترات ونصف . وذكر « فيرمانل » أنها ٣٦ كيلومترا في محيطها . وذكر « بوفو » (Beauvau) أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون يخص القاهرة منها أربعون حتى إذا وصلنا

إلى القرن الثامن عشر وجـدنا « بوكوك » (Pococke) وجرانجر (Granger) يقولان إن محيطها لايزيد عن أربعة عشرة ! بينما ذكر بروس (Bruce) وبروين (Le Bruyn) أنهما قطعا بعدها الطولى فى ثلاث ساعات مشيا على الأقدام

ولا شـك أن ذلك التناقض فى التقدير وتضارب الآراء فى الأبعاد يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لانتجاوزه فى الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مددا تتفاوت فى القصر . فليس كل رحالة يسـتطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصـيرة فى القاهرة مايجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات

كانت مساحة المناطق المزدحمة الآهلة بالسـكان من أحياء القاهرة كبيرة لـكنها كانت خداعة أيضا ! فضيق الشوارع يوهم بارتفاع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنهـا تكون عادية العلو . كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحيانا تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان . هذه الاعتبارات لم يلتفت إليها أكثر الرحالين

القاهرة أثناء القرن السادس عشر

رأت القاهرة فى أيام السـلاطين المماليك الذين عرفوا بتشـجيع الفنون والآداب أنواع العمائر الجميلة تشيد فى جميع أنحائها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلدا لاتربطهم به أى عاطفة من حب الوطن ولا يرون فيه إلا أشـبه شىء بمزرعة عليهم أن يحسنوا اسـتغلالها ليكونوا لأنفسهم بعض الثروة كان لذلك عواقب وخيمة على مصر فبدى الهزال على وجه القاهرة وبدت ضعيـفة وما لبث أن تغلب النعاس عليها فنامت نوما عميقا . وأهملت وفقدت جاذبيتها الرشيقة وأصيبت فى أكثر مبانيها وعمائرها المجيدة التي كانت رمزا لعصورها الزاهرة وظهرت عليها كل عوامـل الفساد ولكن مع مالحق القاهرة من تشويه كبـير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد أقيمت و بعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت . . أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك

وفى سنة (٩٤٥ هـ = ١٥٣٨ م) عهدت ولاية مصر إلى داود باشا فبـقى عليها إحدى عشرة سـنة وثمانية أشهر وقد شـعر الأهلون فى مدة حكمه بالعدل والطمأنينة

CAIRUS, QUAE OLIM BABYLON; AEGYPTI MAXIMA URBS

NILUS FLU.

خريطة وضعت للقاهرة فى مؤلف المانى نشر نحو سنة ١٥٧٤ فى نورمبرج بألمانيا ويفهم منها كيف كانت ترسم الخرائط فى ذلك العهد وكيف كان النيل يتخلل القاهرة وأين كان اتجاه العمران

وعند وفاته (٩٥٦ هـ) تولى مكانه على باشا الذى قام بترميم عدة مبان عمومية فى القاهرة واستنسخ كل ماظفر به من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة عظيمة وجاء بعده آخر حكم عليه بالقتل (٩٦٣ هـ)

كان الوالى يتلو الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد و بنى فى بولاق شارعا ووكالات وجامعا لايزال معروفا باسمه لليوم . و بموته خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه إلى إبطال السرقات و بلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحى القرافة عرف باسمه وقد خرب الآن . وتولى بعده واليان لايجب أن نعرف عن أمورهما شيئا

تولى عويس باشا حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ وأراد تدريب الجنود فعصوه وهجموا عليه فى الديوان وأهانوه ونهبوا بيته وفى جملة مانهبوه منه ساعة كبيرة تعرف منها الأيام وقاموا بثورة فى جميع أنحاء القطر وأخير ا استقال من ولاية مصر (٩٩٩ هـ — ١٥٩١م) وخلفه خادم حافظ احمد باشا الذى شيد فى بولاق وكالتين وعدة قيصريات و بيوت خصص ريعها لعمل الخير . وتبعه الكوردى باشا وكان محبدا لمساعدته للفقراء ورعايته للأدباء . وخلفه السيد محمد باشا ومن أهم أعماله أنه أعاد بناء الجامع الأزهر و رمم المشهد الحسينى . وفى أيامه قامت ثورة عسكرية فشل فى اخضاعها وانتهت باستبداله بخضر باشا فى عام (١٠٠٦ هـ — ١٥٩٨ م) وولى مكانه على باشا السلحدار وكان يكرم الجند سفاكا للدماء لم يكن يخرج فى موكبه الى المدينة أو ضواحيها حتى يقتل عشرة أشخاص على الأقل تحت حوافر جياده . وفى أيامه حدثت مجاعة وعم الخراب فترك القاهرة فرارا من العاقبة واستخلف على الحكومة « بيرى بك » و بوفاته انتخب السناجق الأمير « عثمان بك » ليقوم مقامه حتى عين الباب العالى ابراهيم باشا فثار عليه الجند وقتلوه وحملوا رأسه مع رأس أحد أعوانه وطافوا بهما شوارع المدينة الى أن علقوهما على باب زويلة . ثم أرسلت الاستانة محمد باشا الكورجى فاستطاع بيقظته معاقبة المفسدين من الثائرين وقتل منهم نحو مائتى رجل

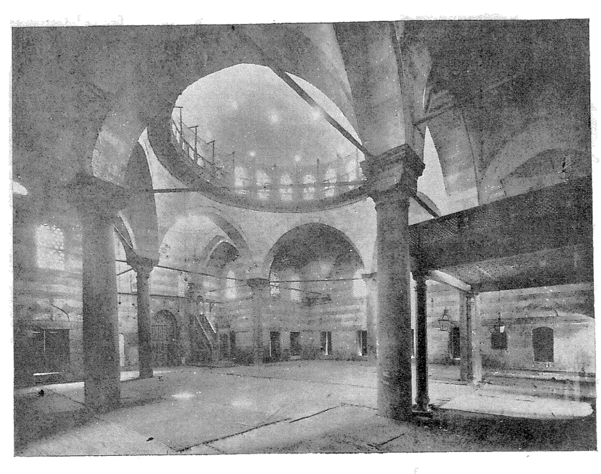
القاهرة فى أوائل القرن السابع عشر

وفى سنة (١٠٢٢ هـ — ١٦١٣ م) أرسل السلطان عشرة آلاف جندى الى اليمن إجابة لطلب حاكمها لاخماد ثورة هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر ومعهم أمر إلى الوالى بامدادهم بالمؤونة الضرورية وبوسائل النقل داخل البلاد وتشييع الحملة الى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان مااشتروه ادعوا أنهم جاءوا ليقيموا فى مصر وقد راقت لهم المعيشة فيها . ولم يذعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح وطردوا أصحاب البيوت منها الى الشوارع وأقاموا المتاريس فى أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع فى برجه . فاضطر الباشا الى الذهاب اليهم ومحاصرتهم بالقوة وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد أمرائه وهو عابدين بك من الدخول الى صهريج مياه فارغ لاحدى المدارس المجاورة المدعوة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم ففوجئوا وسلموا ولكن ذهبت كل محاولة لمعاقبة رءوس الثورة وتسلموا نقودهم وأمروا بمغادرة البلاد فسافروا

بعد قليل عزل محمد باشا الصوفى فاعتزل فى قبة العدلية ولم يبرحها إلا بعد أن علم بوصول خلفه احمد باشا الدفتردار (١٠٢٤ هـ = ١٦٥١ م) الذى جاء الى القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما هو فى موكبه بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فكسر الهلال الذى كان فوق عمامته ولم يؤذه . فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل فى ذلك المكان

تبعه سلسلة من الولاة الأتراك من بينهم الوزير « فرغلى مصطفى » «وجعفر باشا» «ومصطفى باشا» فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر . ثم بيرم باشا فموسى باشا والوالى حسين الدالى وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم نفوذ ما . وأخيرا تحولت القوة الى المماليك البكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبناء البلاد وليسوا كباشوات الأتراك اذا أتوا مصر كان همهم اكتساب الثروة قبل أن يأتيهم الأمر العالى بالعزل

وفى أيام الوالى مقصود باشا (١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م) قاست مصر وباء الطاعون فقد ظهر فى بولاق فى أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد الى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة فى كل ساعة وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمرفى



جامع الملكة صفية (١٠١٩ هـ — ١٦١٠ م) بالداودية

الطريق الواحدة أحيانا ثلاثون أو أربعون جنازة . وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين فى الجوامع الخمسة الرئيسية فى القاهرة ألفان وتسعمائة وستون فى خلال ثلاثة أشهر . وصار الناس فى آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتكا وقيل إن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا لاصابة سكانها جميعا بذلك الداء . وقدّر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا فى أماكن أخرى. وبالرغم من أن هذا التقدير فيه مبالغة ظاهرة فانه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة في تلك السنة

ومما ذكر أيضا شمس الدين ان عدد النساجين المصريين فى القاهرة وإمبابه والجيزة كان يبلغ فى أيامه ١٧٠٠٠ أكثرهم من المسيحيين

قاهرة الرحالة دى تيفنو

زار الكاتب الرحالة « جان دى تيفنو »(de Thevenot) القاهرة بين سنتى (١٦٥٦ و ١٦٥٨ م) وذكر عنها فى كتابه عن سياحاته فى بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة فى سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريبا

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حمارا ودار حول المدينة والقلعة فقطع تلك المسافة فى ساعتين وربع ساعة . وفضلا عن ذلك فانه سار من أول الخليج الى آخره مشيا على القدمين ليعرف امتداد المدينة . فقال إن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبركا متعددة تحيط بها منازل كبيرة

ومعظم الذين قالوا ان القاهرة أكبر من باريس (ومنهم أحد الرحالة الألمان الذى قال ان القاهرة تبلغ أربعة أضعاف باريس) ضموا اليها مصر القديمة وبولاق وقال « دى تيفنو » فى ذلك الصدد انه اذا جاز ذلك فيجب أن تضم الى باريس القرى المجاورة لها لأن مصر القديمة كانت منفصلة عن القاهرة الجديدة وكان حى بولاق ضاحيه ذات حقول خضراء .

وأشار « دى تيفنو » إلى حى بالقاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه

لزبيكه (الازبكية) وذكرأن المـاء كان يظل فيه نحو أربعة أوخمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه . وكانت حوله قصور جميلة للبكوات ولكبراء البلاد أقاموا فيه من وقت إلى آخر بضعة أيام طلبا للراحـة . وان كان « دی تيفنو » لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من « باريس » فى ذلك الوقت فقد قال ان الأولى كانت تفوق الأخيرة فى عدد السكان . وقال أيضا ان الشوارع كانت مزدحمة فى كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء مملوءة بالنساء والأطفال وانه عند ماجرف الطاعون مائتى ألف نسمة من مكانها لم يكد أحد يشعر أن عددالسكان قد نقص !

وكتب كثيرون من السياح أنه لم يكن للقاهرة سور . ولكن « دی تيفنو » قال إنها كانت محاطة بجدران جميلة جدا وكثيفة ومشيدة بحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجـدران فتحات مزخرفة وأبراج لايبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال . كانت الجدران عالية جدا لكن بعضها كان مطمورا بين الانقاض . وكانت الطرقات قصيرة وضيقة . واذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلى) والخليج الذى كان يجف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة اذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى فى بنائها انشاء مدينة . فلم تكن هناك لائحة للتنظيم مثلا وكان كل انسان يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكترث بخط الشارع أو استقامته ويظهر أن « دی تيفنو » حاول احصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان مربوط كل منهما الآخر بسلسلة لـكى لا يسير كل منهما فى جهة ! وكان الرجال الذين عهدت اليهم هـذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجرة حسنة . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل حاكم الحى فيفتحها أو يقفلها بواسطة أحد أتباعه ؛ وكان بالقاهرة عـدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة والتى تعلوها المآذن العالية الممشوقة القد . وكانت منازل القاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة منظرها من الخارج كان قبيحا لكن داخلها كان مزينا أجمـل زينة بالألوان الذهبية والزرقاء لاسيما بيوت البكوات والكبراء . اذ كانت دورهم تحتوى على مخادع بديعة

وصالات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب لها حدائق تتدفق فيها المياه وتندفع نوافيرها الى علو شاهق . كانت جميع الاقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها فيسهل فتحها بدون وجود المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس . وفى نهاية ذلك الشارع كان يوجد شارع قصير عريض اسمه خان الخليلى وهو يحوى على جانبيه مخازن للبضائع الحريرية ويتصل به خان كبير يحتوى على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالا ونساء . أما الأرقاء السود من الجنسين فكانوا يباعون فى خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلى كان مستشفى المجاذيب أوالمارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة . وفى هذه النواحى أيضا كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولادوكانوا يصنعون سجاجيد جميلة ترسل إلى الأستانة وأوربا

وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلو مترين من القاهرة على شاطىء النيل فى حالة خراب على أنه كان لايزال باقيا فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجيس وديرمارجرجس . وكانت فى مصر القديمة مجرى المياه الذى كان ينقل فيه الماء من النيل للامام فالقلعة . وفى أعلاه ثمانى سواق تديرهاالجواميس فترفع الماءوتصبه فى حوض كبير يجرى منه نحو القلعة

قلعة القاهرة

كانت القلعة أشهر مكان فى القاهرة تشرف على المدينة ولها مركز هام لتعزيز قوة حكام مصر . وقد تهدم فى ذلك العهد أكبر قسم من مبانيها لكن بقيت فيها بعض الأبنية الصغيرة الجميلة احتوت على ردهات رحبة . وكانت قاعة يوسف بأعمدتها الثلاثين من حجارة طيبة قد أصيبت بأضرار جسيمة ولكن نقوش جدرانها الذهبية كانت باقية وبقربهاقاعة حاجب يوسف التى كانت مصابة بأضرار أكثر من سابقتها فلم يكن باقيا منها سوى اثنى عشر عمودا . وكانت فى القلعة أيضا قاعة كبيرة جيدة البناء يعمل فيها ستار الكعبة ويرسل سنويا لمكة باحتفال عظيم . وكانت القلعة تحت أوامر أغا الانكشارية الذى يقيم فيها والى جانب القلعة قصر الباشا يفصل بينهما جدار وكان قصراً جميلا جدا يشرف على منظر جميل من مناظرالقاهرة وأرباضها . وكان أجمل مافى

القصر الديوان الكبير وقد علقت على جدرانه عشرة تروس من الخشب مخرمة بطعنات رماح . قيل ان السلطان مراد وكان قويا يحسن الرماية أصابها برمحه دفعة واحدة ثم أرسلها مع الرمح الى مصر ليظهر للمصريين قوته . وقد أثار منظر القلعة دهشة « دى تفنو » وقال فى كتابه : إنه لم ير قط فى العالم كله أجمل وأفخم من أبنيتها وأمنع منها

وتاريخ القلعة فى عصر العثمانيين مملوء بالحوادث الجسام . وقد ذكر العلامة « كازانوفا » كثيراً من أحوالها فى عهد الباشوات منذ استولى السلطان سليم على مصر . وقال ابن إياس :

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الجنود فى الحوش الى باب القلعة عند الأبواب الكبيرة وباب الجامع الذى بالقلعة وقد صار زبل الخيل هناك كالكيمان وخرب أكثر الأماكن التى بها وفك رخامها ونزل به فى المراكب وتوجهوا به الى استانبول

وذكر المؤرخ المصرى « الجبرتى » وأيده القنصل الفرنسى « دى ماييه » ان اسماعيل الباشا التركى (١١١١ هـ - ١١١٦ هـ) قام باصلاحات كثيرة فى مبانى القلعة لاسيما فى زاويتها الجنوبية الغربية حيث سكن الباشوات . ومن مآثره أيضا أنه عمر الأربعين ؟ الذى بجوار باب قرة ميدان وأنشأ فيه جامعا وأنشأ فيما بينها و بين بستان الغورى حماما فسيحا بالرخام الملون وجدد البستان المذكور وغرس فيه الأشجار ورمم قاعة الغورى التى بالبستان و بنى صهريجا بداخل القلعة

وكان من عجائب القاهرة حوض العشاق وهو بيضاوى الشكل مصنوع من قطعة واحدة من الرخام الأسود طوله ستة أقدام وعلوه ثلاثة أقدام وعلى ظاهره كتابة دقيقة بالهيروغليفية ويقص بعض الأهالى قصصا عديدة عن هذا الحوض يعتقدون فيه اعتقادات خرافية كثيرة . وهناك تفاصيل كثيرة ذكرها « دى تفنو » يمكن جمعها وسردها لرسم صورة واضحة جلية لما كانت عليه قاهرة البكوات منذ ثلثمائة عام . وهذه الصورة تختلف اختلافا عظيما عن صورة قاهرة اليوم لاسيما فى القسم الواقع بين الخليج والقلعة وباب الفتوح . فعندما نخترق القاهرة من باب زويلة الى الشمال سائرين فى شارع السكرية فالخردجية حتى جامع الحاكم ونرجع من باب النصر من طريق الجمالية الى الأزهر نجد أنفسنا بين آثار العصور الماضية ذات الروعة والجمال والفن والهندسة ولاسيما تلك الأبواب التى مرت بها الأجيال جيلا بعد جيل فهى الآن تحدثنا عما رأته من عظمة ماضيه ومجد غابر

فانسلب والقنصل ديمايبه

جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » فى عهد الباشا التركى ابراهيم رحالة آخر اسمه « فانسلب » (Vansleb) . زار مصر عام ١٦٧٢ م وكان يقيم فى مصر المسيو دى « مايبه » قنصل فرنسا فى القاهرة . وكان عمره يقرب من الثلاثين عاما لما جاء الى مصر يمثل الملك لويس حيث قضى فى مهمته ستة عشر عاما وكان مغرما بالعاديات الشرقية والابحاث المصرية وتعلم اللغة العربية وأخرج كتابه القيم فى وصف مصر عام ١٧٣٥

وفى اثناء وجوده بمصر هبت فى القاهرة عاصفة شديدة (١١٠٥ هـ — ١٦٩٤ م) فظن الناس ان الساعة قد أوشكت وان يوم القيامة قد دنا وأظلم الجو من التراب الكثيف وكان الناس فى صلاة الجمعة فى رمضان وسقطت المركب التى على منارة جامع ابن طولون وأصيب جزء منه بأصداع وهدمت دور كثيرة

وفى العام الأخير من القرن السابع عشر توفى المؤرخ شمس الدين من مشاهير علماء مصر الأقباط وقد كتب عدة مؤلفات علاوة على ما كتبه فى تاريخ مصر مما يعتبر مرجعا أساسيا لحوادث ذلك العصر ونحن نقتطف هنا شيئا مما كتبه عن القاهرة دى مايبه القنصل الفرنسى فنذكر ان الذى كان يشغل منصب الوالى حينئذ هو اسماعيل باشا بينما كان نفوذ شيخ البلد (حاكم القاهرة) يتزايد يوما بعد يوم . وكانت هناك أسرتان تتنازعان السلطة هما الفقارية والقاسمية . وقد كتب « دى مايبه » فى كتابه أبحاثا طويلة عن الكنيسة المصرية وعلاقاتها مع الحبشة . وذكر ان عدد سكان القاهرة بلغ اذ ذاك نصف مليون نفس لكن الطاعون والمجاعة انقصتا منه عددا كبيرا

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ هـ الى ١١١٩ هـ اثنان وعشرون واليا وفى سنة ١١١٩ هـ فى أيام السلطان أحمد خان تولى مصر حسن باشا وكانت مشيخة البلد فى يد قاسم عيواظ بك وبوفاته تولى مشيخة البلد من بعده ابنه اسماعيل بك فظل فيها ست عشرة سنة تقلب فى أثنائها على مصر عدة باشوات كانوا لا حول لهم أو شأن وانتهى أمره بأن قتل بيد أحد مماليك « ذى الفقار بيك » فكانت نهاية مشيخته عام ١١٣٦ هـ

ومن الحوادث التى ذكرها القنصل الفرنسى وأيدها المؤرخ الجبرتى ماحدث فى الأزهر عام (١١٢٠ هـ — ١٧٠٩ م) بعد وفاة شيخه الشيخ محمد النشرتى فقد وقعت بعد موته فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالأقبغاوية وانقسم الأزهريون

قسمين . فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى وأخرى تريد الشيخ عبد الباقى القلينى ولم يكن حاضرا بمصر . فتصدر الشيخ أحمد النفراوى للتدريس بالأقبغاوية فمنعه طلبتها وحضر القلينى فتعصبت له جماعة النشرتى وحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم البنادق وصوبوها على المسجد وأخرجوا جماعة القلينى وكسروا باب الأقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان النشرتى فهجمت جماعة القلينى على الجامع وقفلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوى فقتلوا منهم نحو عشرة أشخاص ونهبت خزائنه وتحطمت القناديل . . وأخيرا حضر الوالى فأخرج القتلى وفرّق الطلبة ولم يبق بالجامع أحد . وفى اليوم التالى صعد النفراوى إلى ديوان القلعة ومعه كشف بأسماء القتلى فلم يلتفت الباشا الى دعواه وأمره بلزوم بيته وأمر بنفى الشيخ أحمد شنن من الزعماء الى بلده واستقر القلينى فى المشيخة

قصة واعظ

وذكر الجبرتى بين حوادث عام (١١٢٣ هـ — ١٧١١ م) أن رجلا روميا واعظا جلس يعظ الناس بجامع المؤيد وازدحم عليه المسجد وأكثرهم من الأتراك ثم انتقل من موضوعه الى مايفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل عليها وشنع على ذلك وذكر أنه لا يجوز بناء القباب على الأضرحة والتكايا ويجب هدمها فلما سمع رجاله بذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبابيت والأسلحة فهرب الذين وقفوا بالباب قائلين : « أين الأولياء » وذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر وأخبروهم بما حدث . فأفتى الشيخ النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وان على الحاكم زجره عن ذلك وأخذ بعضهم تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه . فلما قرأها غضب وقال . «أيها الناس ان علماء بلدكم أفتوا بغير ماذكرت لكم وأريد ان أباحثهم فى مجلس قاضى العسكر فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق» فقالوا له « نحن معك لا نفارقك » فنزل عن الكرسى واجتمع به نحو ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى قرب العصر فانزعج القاضى وسألهم عن مرادهم فقدموا له الفتوى وطلبوا منه احضار المفتين والبحث معهم فقال القاضى : « اصرفوا هذا الجمع ونسمع دعواكم » . فقالوا ما تقول فى هذه الفتوى ؟ قال « هى باطلة » . فطلبوا منه ان يكتب لهم حجة ببطلانها . فقال ان الوقت قد ضاق والشهود

قد ذهبوا الى منازلهم . وخرج المترجم وقال لهم ذلك فضربوه واختفى القاضى بحريمه .

وفى وقت الظهيرة اجتمع الناس بالمؤيد لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر لهم الواعظ فسألوا عن المانع لحضوره . فقال بعضهم : أظن ان القاضى قدمنعه من الوعظ فقال رجل منهم : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى . فتبعه الجم الغفير فمضى بهم الى مجلس القاضى . فلما رآهم القاضى ومن فى المحكمة طارت عقولهم من الخوف وفر الشهود ولم يبق الا القاضى فدخلوا عليه . وقالوا له أين شيخنا « فقال لأدرى» فقالوا له : «قم فاركب معنا الى الديوان (القلعة) لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين قضوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فان ثبت دعواهم نجوا من أيدينا وإلاقتلناهم» . فركب القاضى معهم مكرها وتبعوه من خلفه



صورة احتفال القاهرة برؤية رمضان فى أول عهد العثمانيين

وأمامه الى أن طلعوا إلى الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فى غير وقته فقال: « انظر الى هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا به » وعرفه عن قصتهم وما وقع منهم بالأمس واليوم . وأنهم ضربوا المترجم وأتوا اليوم وأركبوه قهرا . فأرسل الباشا الى كتخدا الانكشارية وكتخدا العزب وقال لهما :

« اسألا هؤلاء عن مرادهم »

فسألاهم فقالوا « نريد احضار النفراوى والخليفى ليحبسا مع شيخنا » فأعطاهم الباشا مهلة ونزلوا إلى جامع المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه على الكرسى فصار يعظهم ويحرضهم على اجتماعهم فى الغد بالمؤيد ليذهبوا جميعا الى القاضى وحضهم على الانتصار للدين وافترقوا على ذلك

ثم جمع الوالى الأمراء السناجق والأغاوات قواد الأورط فى بيت الدفتردار وأجمعوا على ان ينفوا الواعظ من القاهرة

لم يظهر الواعظ بعد ذلك اليوم وقيل انه قتل فسكتت الفتنة وعن ذلك قال الشيخ حسن الحجازى :

مصر قد حل بها واعظ ... عن منهج صدق قد أعرض
فأساء الظن بسادات ... أحكام الدين بهم تنهض

القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار

(١٧١٩ — ١٧٣٠)

استطاع الأمير شركس محمد بدهائه أن يتفق مع الوالى راغب باشا بعد قتله الأمير اسماعيل وتولى حكم البلاد وشيد قصرا جميلا وقلد رجاله أهم مناصب الحكم فى مصر وقد قاست القاهرة فى أيامه كثيرا من حوادث مماليكه واعتداءاتهم وسرقاتهم . فقد اعتدوا على الحمامات العامة فى أثناء الأوقات المخصصة للسيدات والأطفال واختطفوا ملابسهن وأظهروهن عرايا على قارعة الطريق . ولم تنته تلك الحوادث حتى عزل الوالى فاتحد مع أحد البكوات واسمه ذو الفقار وألف الاثنان حزبا لم يلبث طويلا حتى فشلت أغراضه

جاء بعده الوالى الجديد فجمع حوله فريقا من أعداء شركس وسلحهم بالبنادق والمدافع وحاصروا قصره وكان يحتمى معه داخله لفيف من رجال حزبه المخلصين فتبادل الفريقان النيران مدة طويلة وفى نهاية الأمر تمكن الامير شركس من الهرب تاركا وراءه قصره وما احتواه من الرياش الفخمة والأثاث الثمين لأيدى الناهبين الناقمين عليه الذين قبضوا على أعوانه ونكلوا بهم تنكيلا

لم يمض عام على هذه المأساة الحزبية حتى ظهر الامير شركس ثانية . فكأن

الحوادث لم تنتـه بعد و بطله لايزال يمثل دوره و إن كان قد اختفى قليـلا خلف الستار . وكان بعد هزيمته عام ١٧٢٦ قد ولى شطره نحوطرابلس الغرب فاستقبله واليها باجلال واحـترام . وسـهل له جمع أربعمائة مغربى من المرتزقة قام بهم فى أوائل عام ١٧٢٨ قاصداالصعيد حيث ألف جيشا مؤلفا منهم ومن بعض الناقمين على ذى الفقارمن أعدائه السابقين واشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الفريقين . وكان ذو الفقار قدجمع ثلاثة آلاف من أشياعه القاهريين ووضعهم تحت قيادة عثمان بك فانتصر عليهم الأمير شركس وقتل قائد القوة ولكنه لم يستطع دخول القاهرة بالرغم من هذا النجاح

فى ذلك الحين قام فى القاهرة منافسان من البكوات كلاهما يريد اغتصاب القاهرة من الآخر فانتهز شركس تلك الفرصة واشترك فى الميدان ولم يطل الأمر حتى استولى ذو الفقار على المدينة وهلك المنافسان . وفى احدى الليالى كنت ترى اثنين من بكوات المماليك هما يوسف بك وسليمان أبو دفية على رأس ثلاثين من الشجعان ينجحون فى المرور بين بوابات قصر ذى الفقار ويذبحونه . وكان هذا قد أمر قبيل مؤامرة هذين البكوين بتجريد قوية بقيادة على بك ومع حيطة شركس لتلك المفاجأة فقد هجمت على رجاله وأفنتهم . وحاول شركس ان يعبر النيل فأصيب جواده برصاصة لم يستطع أثرها أن ينجو بنفسه . وعقب المعركة كان ينتقل فلاحان بين جثث القتلى لاختلاس ماتقع عليه أيديهما من الغنائم فوقع نظرهما عليه لما حاولا انتزاع زرده . وفى ذلك الحين لمحه أحد المماليك فعرفه فى الحال من خاتم أصبعه فقدموه للقائد على بك فأمر بضرب عنقه ولحده باحترام وأخذ رأسه وقدمها للوالى ليبعثها إلى الخليفة . ودخل على بك مدينة القاهرة ظافرا وفى ركبه المماليك والحشم والأتباع وأمامهم الموسيقيون يعزفون بطبولهم وزمورهم ويدقون الصاجات النحاسية

مشيخة عثمان بك

ابتدأت بعد ذلك مشيخة عثمان بك فاشتهر بعدله وحزمه وحسن تدبيره للأمور وكان يلازمه فى مجالسه العالم الفاضل حسن الجبرتى والد المؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتى. وفى أيامه استراحت القاهرة قليلا . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوى المطامع وفى مقدمتهم الأميران ابراهيم كتخدا الانكشارية ورضوان كتخدا العزب وأولهما من طائفة القزدغلية وثانيهما من طائفة الجلفية وقد تزوج ابراهيم من ابنة محمد البارودى أحد

تجار القاهرة الاغنياء فاستفاد من مالها الكثير وارتفع شأنه حتى ارتقى الى رتبة البكوية لتقربه من بيت شيخ البلد . وتشاء الصدفة أن يرتقى صديقه رضوان فى ذلك الوقت فيعرف اسم رضوان بك فاتحد الاثنان قلبا وقالبا وتوليا أمور القاهرة فيما بينهما

فلما رأى عثمان بك نمو مكانة هذين المنافسين الجديدين ضم اليه ثلاث أحزاب : حزب ابراهيم بك قطامش وحزب على بك الدمياطى وحزب على بك الطويل وشاورهم فى الأمر فأقروا على قتلهما ولكن لم يطل أمر تحالف عثمان معهم فقد أبعد عن مصر بحيلة وكيله فوصل سوريا ومنها إلى الأستانة . واستمر ابراهيم بك قطامش إلى النهاية مع خمسة بكوات من حزبه فتحصنوا فى قصره للمقاومة . فلما علم بذلك الوالى اتصل بالأميرين ابراهيم ورضوان فأخذ كل منهما وجاقه وقصدا قصر قطامش وصبوا نيران بنادقهما نحو القصر فقاومتها قوة قطامش عدة ساعات واستمرت النيران متبادلة بين الفريقين حتى أقبل الليل واستطاعت جماعة قطامش ان تنجو بنفسها فولت الأدبار قاصدة الوجه القبلى

القاهرة بين الأميرين ابراهيم ورضوان

ومع ذلك لم يصف الجو أمام ابراهيم ورضوان . فكان فى انتظارهما كثير من الحوادث الجسام وسترى القاهرة وقد تحولت الى مسرح تمثل عليه مشاهد المآسى . فلقد صمم الزعيمان على إبادة فئة البكوات الباقية واتفقا على ذلك مع الوالى « كيور أحمد » واستعانوا بالمؤامرة وبالمال . فقتلوا على بك الدمياطى بيد وكيله سليمان ثم أمر الأميران ابراهيم ورضوان بقفل جميع منافذ القلعة وجعلا الحرس على بابى الانكشارية والعزب من جنودهما المخلصين وابتدأت المذبحة الرهيبة فكانت الجثث تلقى من النوافذ والدرج وسالت الدماء فى جميع نواحى القاهرة

وكانت مؤامرة ناجحة . تخلصت القاهرة فى أثرها من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها وأصبحت فى رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ماتم فى القاهرة من أعمالها .

كان لكل من هذين الأميرين متجه يتجه اليه فى رياسته فكان ابراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدبر السياسة على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد . وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين فقضيا فى رياستهما سبع سنين ونيفا

هناك على ضفة الخليج المصرى اشترى رضوان دارا أصلها بيت التاجر الغنى الشرايبى وهى التى كان بها العمودان الملتفان المعروفة « بثلاثة ولية » كانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم مايلى حديقة الأزبكية وميـدان الأوبرا . وكانت تلك البركة اذ ذاك منتزها من منتزهات القاهرة المحبوبة تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . فلما اشتراها الأمير رضوان بالغ فى زخرفتها وعقد على قاعاتها العالية قبابا عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الانوار تسطع فى هذه القباب اثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار . وكان للأمـير فوق ذلك فى الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعـة تطل من الغرب على الخليج الناصرى ومن الجنوب على بركة الازبكية ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء فى الخليج القاهرى مما يلى قنطرة الدكة وأنشأ فى صدر البركة مجلسا خارجا بعضه على عدة قناطر لطيفة و بعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية وبوسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلى وينصب منها الى الحوض من أسـفل ويجرى إلى البستان لسقى الأشـجار وبنى قصرا آخر بداخل البستان مطلا على الخليج . فكان يتنقل فى تلك القصور التى نسقها أبدع تنسيق

وقصارى القول ان قصور رضوان كانت تتألق دائما بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والابداع وتجتمع فى أبهائها هامات العصر من الأدباء والعلماء فلاغروان تفنن الشعراء فى مدح رضوان وفى العمل على الاتصال به . من هؤلاء عبدالله بن سلامة المعروف بالأدكاوى نسبة الى بلدته التى ولد فيها « أدكو » ومصطفى اللقيمى والسيد السديدى وقاسم التونسى وغيرهم . فقد مدحـه هؤلاء جميعا وانشأوا فيه المقامات والتوشيحات . ورأينا الأدكاوى يجمع كل ماقاله الشعراء فى هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها « النوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ولايكاد يوجـد شاعر فى ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان . الاأن رضوان قد أضله ماهو فيه من نعمة فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصى . وقد ذكر الجبرتى أنه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لاهل المجون فصارت القاهرة ميادين للغزلان ونعيما للعشاق

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم فى البلاد حتى أنعم الأمـير ابراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله فشق ذلك على ابراهيم بك الشركسى ونمت بينهما الضغائن حتى قتله بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده الى أن ظهر شأن عبدالرحمن كتخدا

الانكشارية فأخذ يعضد مماليك الأمير ويقربهم على أمراء رضوان وتآمروا على اغتيال الامير رضوان والقضاء على سلطته فتنبه رضوان لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهرة وجامع المحمودية وجامع السلطان حسن. واجتمع اليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة لولا ان سعى اليه الأمير عبد الرحمن كتخدا وأعوانه لاجراء الصلح وطلع بهم الى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسنت نيته وسلم بنصحهم

وبعد ان نزل إلى داره فى « قوصون » اغتنم اعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا واستولوا على القلعة وبعض الابواب بينما كان رضوان آمنا فى بيته فلم يشعر الاوهم يطلقون عليه المدافع. وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجلل على داره. فأمر بالاستعداد وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحدا منهم يقف بجانبه فحارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب فى ساقه برصاصة من مملوكه الصغير « صالح » الذى التجأ الى خصومه. ولما أصيب رضوان طلب الخيل وخرج من نقب نقبه فى جدار بستانه وخرج قاصدا البساتين فلم يتبعه أحد ونهبوا داره ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ودفن فيها

وعمرّ رضوان بك باب القلعة بالرميلة وهو الباب المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين الباقيتين إلى اليوم

أسرة الشرايبى

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة فى القاهرة فقد كان من بين قصور الأزبكية قصر التاجر الغنى الشيخ أحمد الشرايبى الذى استطاعت أسرته أن تنجب امراء وان يكون لها مماليك وان تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء. وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد. فأمهم أهل العلم والأدب وامتلأت خزائن كتبهم بالمخطوطات الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع. وكانوا يدفعون أى ثمن لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجودا فى مكتبتهم فاذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل زائر يقصدهم. وكان الأديب المثقف اذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ الشرايبى وكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير ان يسأله أحد اعادته إلى مكانه. وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة

من أشد المتمسكين بمذهب المالكية و يتزوجون من بين أفراد أسرتهم وكانوا غاية فى التحفظ لاتخرج بناتهم من بيوتهم الا عند زواجهن فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن عظمتها ولا حرج . . . اقرأ عنها فى « تاريخ الجبرتى » لتعرف عنها الشىء الكثير . فقد كانوا على كثير من الحذر لا يظهرون بناتهن أمام الناس . كانوا ينتهزون فرصة صلاة المدعوين فى جامع أزبك (الذى شيده الأمير المشهور أزبك طوطوش ومنه اتخذت الأزبكية اسمها وقد هدم عام ١٨٦٩) المواجه لبيتهم فيأخذون العروس و يسرعون بها نحو زوجها السعيد إلى بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المماليك والعبيد . ثم تطلق الصواريخ و يتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة تلقى ضوءا ساطعا نسترشد به عن حال التربية والتعليم فى تلك الازمان . فلقد أنشئت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المماليك الأولى وأكثرها كان منهوبا من مساجد الشام . و يستطاع تكوين فكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرنين السابع والثامن عشر عندما تقرأ « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » للمؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتى . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى عصره . وأورد فى تاريخه بالجزء الأول مناقشة حدثت بين الوالى أحمد باشا والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عام (١١٦٣ هـ — ١٧٥٠ م) وكان الباشا من أرباب الفضائل ميالا للعلوم الرياضية . فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله كبار العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى والشيخ عبد الله الشبراوى تكلم معهم وناقشهم ثم حدثهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا : « لا نعرف هذه العلوم »

فتعجب وسكت وكان الشيخ عبد الله الشبراوى له وظيفة الخطابة بجامع سارية يطلع إليه كل يوم جمعة و يدخل عند الباشا و يتحدث معه ساعة وربما تغذى معه ثم يخرج إلى المسجد . وفى ذات يوم قال له الباشا :

وهنا ننقل ماجاء بتاريخ الجبرتى :

« عندنا بالديار الرومية ان مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . فقال له الشيخ « هى

ياًمولانا كما سمعتم موطن العلوم والمعارف » فقال وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد. فقال له : نحن لسنا أعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب فقال له : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم الفقراء واخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فتندر فيهم القابلية لذلك . فقال وأين البعض ؟ فقال « موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم » . ثم أخبره عن والده الشيخ الجبرتى وعرفه عنه وأطنب فى ذكره . فقال : « التمس منكم إرساله عندى »

فقال « ياًمولانا انه عظيم القدر ليس هو تحت أمرى »

فقال « وكيف الطريق إلى حضوره »

قال « تكتبون له ارسالية مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع » ففعل ذلك وطلع اليه ولبى دعوته وسر برؤياه وواصله بالبر والاكرام ولازم المطالعة عليه مدة ولايته . وكان يقول « لولم أغنم من مصر الا اجتماعى بهذا الاستاذ لكفانى »

واتفق للوالى أنه لم يوفق فى حل مسألة من المسائل فاشتغل ذهنه وتحير فكره الى ان حضر اليه الاستاذ فى الميعاد فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة فكشف له علة ذلك . فلما انجلى وجهها على مرآة عقله كاد يطير فرحا وحاف أن يقبل يده ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور باعها (والد الجبرتى) بثمانمائة دينار . وكان يشتغل برسم المزاول على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرا بالأزميل وكان ينقش عليها أبياتا من الشعر المناسبة ومنها :

مزولة متقنة * نظيرها لا يوجد * راسمها حاسبها
هذا الوزير الأمجد * تاريخها اتقنها * وزير مصر أحمد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل وأخرى بسطح جامع الأمام الشافعى وأخرى بمشهد السادات الوفائية

ويمكن ان يستنتج مما ذكره الجبرتى ان دراسات العلوم لم تكن عميقة بل سطحية بعكس دراسة العلوم الدينية التى كانت أعمق . والواقع ان ذلك كان فى أغلب الأحيان ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية فى مصر الأسلامية ومن عجائب حوادث ذلك العصر ان أشيع بين الناس بمصر ان القيامة ستقوم يوم الجمعة فى السادس والعشرين من ذى الحجة (١١٤٧ هـ = ١٧٣٤ م) فودع الناس بعضهم بعضا وكان يقول الانسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان وخرج الكثيرون من الناس الى الغيطان والمتنزهات قائلين لبعضهم البعض : « دعونا نودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا للاغتسال فى النيل . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الهم والوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المحدد ليوم القيامة فلم يقع شىء ! ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت وهم يقولون فلان العالم قال ان سيدى احمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيرد عليه الآخر « اللهم انفعنا بهم فاننا يا أخى لم نشفع من الدنيا . . . »

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفى أثناء ولاية أمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠ هـ - ١٧٣٧ م) زار مصر الرحالة الانجليزى القس ريشارد بوكوك (Richard Pococke) وكتب مؤلفه النفيس « رحلة للشرق و بلاد أخرى » فى سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية وقصد رشيد لزيارة البطريرك « كوسماس » وتعرف الى كبار المسلمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليك من رهبان الفرنسسكان وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الانجليز وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى . ثم قصد القاهرة وقضى فيها أياما لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها . وزار الفيوم وعاد منها الى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلى وآثاره

وفى نفس العام (١٧٣٧ م) جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه « رحلة إلى مصر و بلاد النوبة » فى ثلاثة أجزاء ويعد مؤلفه من أهم ما كتب فى الرحلات وأدقها وأوفاها وله ملحق مصور فيه بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباى

وقلعة أبو قير و رشيد والبحيرة ومصر القديمة وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها العامة

وفى عام (١١٥٦ هـ — ١٧٤٣ م) شاهدت القاهرة والياجديدا هو « محمد اليدقجى» وكان يريد القيام بحملة إصلاحية . فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف فى طرقات القاهرة لتفتيش المارة والقبض على المدخنين أوالذين يحملون الدخان ولانزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبسا بالجريمة ! لكن لم تطل مدة اقامة هذا الوالى واستدعى للاستانة . وجاء من بعده « راغب محمد » ثم الوالى العالم احمد باشا الوزير الكبير (١٧٤٨ م) الذى ذكره فى عدة مناسبات المؤرخ الجليل الشيخ عبدالرحمن الجبرتى

قاهرة على بك الكبير

(١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

كأن قاهرة ذلك العصر الغريب قُدِّر لها ان ترى عجبا بعد عجب ! فلو انك كنت من أحياء ذلك العهد واتيح لك أن تركب متن طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر إذن لرأيت فى انحائه وميض نار تشتعل لهيبها وفتنا قد تفاقم شرها

حكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الادارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام حروب لايخمد لها لهيب والناس لاتعرف من الأمن الا اسمه . فاذا ماسار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات البلد من منطقة الى أخرى وجب عليه دفع الاتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق وهم طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف اتخذت السلب حرفة اتقنت أساليبها وحصلت منها على الثروات الطائلة وتفننت فيه وأثرت منه . وان لم يفعل أصاب أسطوله النهب والتحطيم

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير وكان كبقية أمراء هذا العصر مملوكا . وكان واحدا من بين ألفى مملوك للأمير ابراهيم . لكن كتب له أن يكون له شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح برؤس الأمراء . عاش مملوكا جزءا كبيرا من حياته تمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر . لكنه كان مملوكا أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر اطماعا من غيره . كان يحبه مولاه

فجعله حامل سيفه وكان الحظ يريد دائماً أن يطيعه فصحب سيده مع قافلته الى بلاد النبي وكان قد رقاه كاشفا فسار فى طليعة الركب . وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق فقاومهم على بقلب ثابت ودحرهم فلما عاد الأمير ابراهيم الى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة « بك » لكن صغر سنه ودسيسة أحد رؤساء المماليك حالا دون ذلك . واستمر القدر يخدم عليا حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ = ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر كما سنرى وبدأ يتخلص تدريجيا من مزاحميه زعماء المماليك الشاغبين ورقى اتباعه المخلصين وكان أعزهم لديه واحدا منهم اسمه محمد . قلده البكوية ثم لقب بأبى الذهب وسنرى أنه لم يكن مثلا حسنا لعرفان الجميل بل أن فضل سيده عليه لم يزده الا كفرانا بنعمته

***

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ماحدث فى أيام مصر اثناء سيادة على بك الكبير لكننا لا يسعنا الا التنويه باعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانيـة فقد انتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحربها مع الروسيا (١٧٦٨) وأعلن استقلاله وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مرافقها وعين على ماليتها مدير الجمرك القديم المعلم « رزق القبطى » ونظم التجارة الخارجية والمواصلات واستمتعت البلاد فى عهده بالأمن وبشىء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره ونمى فى البلاد نوع من الشعور الوطنى اذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل لمصر مركزا ممتـازا بين الدول

وفى أيام على بك الكبير مر على القاهرة الرحالة الانجليزى « جيمس بروس » (James Bruce) فى طريقه الى « أتيوبيا » وقد تقابل مع المعلم رزق الذى كان من المتبحرين فى علم الفلك . فاستفاد الرحالة من علمه كثيرا . ولما جاء الى القاهرة أرسل الرحالة الى المعلم رزق هدية ثمينة اعترافا بالجميل . ولكننا نراه وقد أعادها اليه وبصحبتها هدية منه وأعطى رسوله خطابا دعى فيه الرحالة الى زيارته فى بيته بعد الاستراحة من عناء رحلته لكى يطلعه على عدده وآلاته الفلكية . ثم نال اذناً من على بك الكبير لكى يقوم برحلته وهو فى أمان واطمئنان . وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه فى القاهرة ضيفا فى حى قلعة بابليون وأوصى البطريرك بأن تهيأ له بعض الغرف . وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية الى الأقصر ومنها أخذ طريقه الى القصير فاثيوبيا عن طريق البحر الأحمر . ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد على بك فقد انتقل الحكم الى مملوكه ابى الذهب كما سيجىء

أبو الذهب فى القاهرة

ان قصة المعارك التى دارت بين على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب طويلة وليست من أبحاث هذا الكتاب لكنها تدل بوضوح على ما كانت عليه أخلاق ابى الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . وقد تمادى على بك فى ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسه فى الشام والحدود . وأخيرا تحصن مع جيشه الباقى عند دير البساتين الذى استولى عليه من الأقباط وجعله حصنا حربيا . وبنى المعاقل والحصون والطوابى من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطىء النيل حتى سفح المقطم ووضع المدافع الكبيرة فى ذلك الخط الحربى الطويل بين تلك الاستحكامات القوية . ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فان أبا الذهب جاء لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التى خانه أغلبها وانضم الى جيوش أبى الذهب

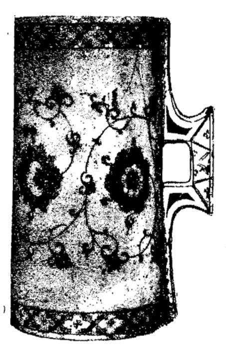
دخل أبو الذهب القاهرة دون أن يضطر لعمل حربى لأن الأهالى وعددا كبيرا من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ولكن مع سنوح تلك الفرصة لأبى الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فان أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه ثم دخل القاهرة دخول الفاتح المنتصر

ولا شك أن على بك الكبير يعد من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر لكن اشتغاله بالسياسة وبالحروب التى استلزمتها محاولته الاستقلال بمصر لم تجعله قادرا على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار المجيدة . ولولا تجديده لقبة الامام الشافعى وتشييده سورا عظيما فى بولاق وبنائه سوقا كبيرة وترميمه بعض المساجد والمدارس والسبل والجسور لما ترك أى أثر فى أبنية القاهرة وعمارتها . ولولا تلك المخلفات العظيمة التى شيدها أحد أمراء عصره وهو عبد الرحمن لتناسينا عهده وأهملناه من الناحية المعمارية

دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم يتنعم طويلا بثمار نصره إذ توفى ودفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر . وكان خاتمة الجوامع العظيمة التى أنشئت فى القاهرة فى عهد حكم الباشوات الأتراك

ولقد تمتعت مصر فى أيام أبى الذهب بعهد من الرخاء والطمأنينة وترك له الباب العالى الأمور تجرى كما أراد . وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ — ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب

فى بناء مدرسته تجاه الجامع الأزهر . وكان محلها رباعا متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع السنانية ببولاق . ولما تم البناء فرشت جميعها بالحصر ومن فوقها الأبسطة حتى فرجات الشبابيك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات والتعيينات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة (شعبان ١١٨٨ هـ) ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى فألبس الشيخ الصعيدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتيين الثلاثة فراوى سمور وباقى المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا ومن آثار عهده أيضا سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياتم وبيت الست حفيظه (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق . ووكالة أبى الذهب بالصنادقية وسبيل محمد ابى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ المطاهر بالخردجية وقصر المسافرخانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ)

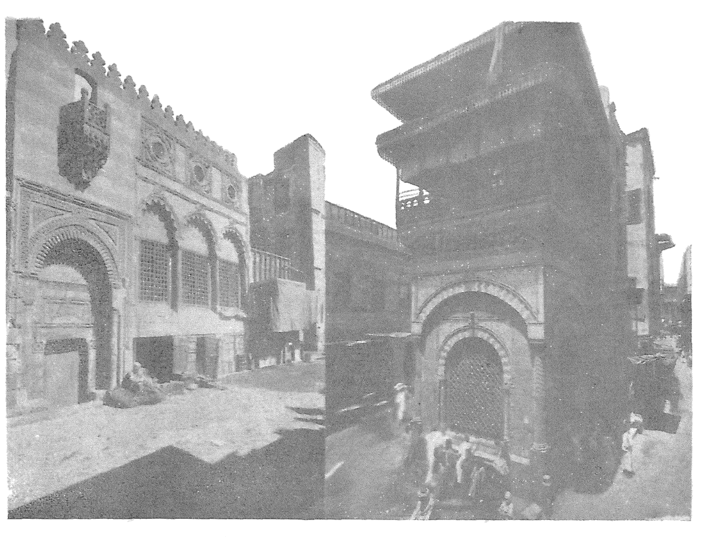


كوب من خزف صناعة دمشق تتكون زخارفه الوسطى من فروع نباتية وبه من أعلى ومن أسفل شريطان من زخارف هندسية (القرن الحادى عشر الهجرى — السابع عشر الميلادى) — مهداة من حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال لدار الآثار العربية

قاهرة عبد الرحمن كتخدا

ليس من شك فى أن عبد الرحمن كتخدا يعتبر أمير المجددين وفى مقدمة الساعين فى تجميل وتعمير القاهرة . وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير . وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه عثمان كتخدا الذى استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها مدرسة ومسجدا ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية . وفى يوم افتتاحها ملأ حوضا كبيرا وكل ما وصلت اليه يده من الأوانى بالشربات ليسقى الأهالى وبنى أيضا مدرسة للعميان فى الأزهر ومنشآت خيرية أخرى

أما ابنه عبد الرحمن فقد فاته فى هذا المضمار اذجمع فى أكثر مبانيه الجمال والفن ويتجلى ذلك فى سبيله اللطيف الواقع فى ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم . له ثلاث وجهات وبالدور الأرضى منه الكتاب . وانشأ عندباب الفتوح مسجدا ظريفا بمنارة وصهريج وكتاب . وانشأ بالقرب من قرافة الأزبكية سقاية وحوضا لسقى الدواب وكتابا . وانشأ وزاد فى مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولا وعرضا ويشتمل على خمسين عامودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت وبنى به محرابا جديدا وأقام له منبرا وأنشأ له بابا عظيما بجهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن . وبنى المدرسة الطيبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المبانى فخامة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسينى وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا . وشيد جامعا بجهة الأزبكية ومكتبا وحوضا وميضأة وساقية ومنارة . وبنى مشهد السيدة زينب بقناطر السباع ومشهد السيدة سكينة بخط الخليفة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة والسيدة فاطمة والسيدة رقية وعمّر المدرسة السيوفية وجدّد المارستان المنصورى وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التى شيدها خارج القاهرة



الى اليمين سبيل عبد الرحمن كتخدا (١١٥٧ هـ — ١٧٤٤ م) والى اليسار وكالته

ومن عمائر عبد الرحمن كتخدا دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان لم تماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقاشانى والذهب المموه وأنواع الأصباغ وغرس بها بستانا بديعا بداخله قاعة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام وأركانها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . و بلغ عدد المساجد التى أنشأها وجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجدا خلاف الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر . وكان له فى هندسة المبانى وحسن وضع العمائر ملكة يقتدر بها على مايروم من الوضع ولو لم يكن له من المآثر الا ما انشأه بالجامع الأزهر من الزيادة والعمارة التى تقصر عنها همم الملوك لكفاه

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل فأخرجه منفيا إلى الحجاز وذلك فى أوائل ذى القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثنى عشر سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج فى (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد ان استولى عليه العى والهرم فدخل إلي بيته مريضا فأقام فيه أحد عشر يوما ومات ودفن بالمدفن الذى أعده لنفسه بالأزهر عند بابه القبلى وسار فى جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته ونعمه واحساناته

سونينى وسافارى

بعد مرور عشر سنوات على مجيء الرحالة الانجليزى « بروس » أوفدت الحكومة الفرنسية المسيو سونينى (Sorini) فيما بين عامى (١٧٧٧ و ١٧٨٠ م) للوقوف على الأحوال السياسية والعلمية التي احتاجتها حكومة الملك لويس السادس عشر لوضع خططها فى الاستيلاء على مصر . تلك الخطة التى لم تتحقق الا على يد نابليون حين غزا مصر سنة ١٧٩٨ على رأس حملته المشهورة فى أواخر القرن الثامن عشر . ولقد كان المسيو سونينى باحثا وعالما إنما كانت طبيعته لا تتفق مع مهمته التى جاء من أجلها الى مصر . فكان يصدق كل ما يقال له وما يسمعه ممن اختلط معهم فى اثناء رحلته ولوكان ماقيل ضد المصريين أنفسهم أو المماليك . ولقد قضى معظم سني رحلته فى رشيد حيث أقامت جالية كبيرة العدد من الأجانب . وذكر المسيو « سونينى » فى كتابه الذى طبع على نفقة الحكومة الفرنسية بعنوان « رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى » ان شوارع القاهرة

كانت أقذر شوارع رآها فى جميع البلدان التى شاهدها وأنه اذا سار أحد المماليك أو رجال الدين أو الموظفين فى الطريق تحتم على الأهلين السائرين سواء أكانوا من الوطنيين أم الأوربيين أن يفسحوا له الطريق ويقفوا فى أماكنهم ويضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم تحية الاجلال والخضوع ويستمروا وقوفا حتى يغيب عن أبصارهم . وإذا قصر أحدهم فى تأدية هذه التحية عوقب فى الحال فيحاط بستة من القواصين ويوسعونه فى فى الحال ضربا مؤلما بعصيهم الطويلة . .

ومن الرحالة الأجانب الذين وفدوا على مصر المسيو « سافارى » الفرنسى (Savary) فقد جاءها عام ١٧٧٧ وقضى فيها ثلاث سنوات وألف كتابه فى ثلاثة أجزاء واسمه « رسائل عن مصر »

القاهرة تستقبل الوالى

ويستطيع القارىء أن يلمح صورة للقاهرة وقد خرجت لاستقبال أحد الولاة الأتراك الذين وفدوا عليها للحكم باسم الخليفة من خلال ما كتبه « سافارى » كما شاهد حفلة الاستقبال فى المدة التى قضاها فى مصر بين عامى (١٧٧٧ و ١٧٧٩ م) قال :

« عند مايصل الباشا الجديد إلى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله فيرسل شيخ البلد (زعيم المماليك) وفداً من أذكى البكوات لاستقباله والحفاوة به فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة وفى خلال مقابلتهم يتحسسون ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التى جاء بها من الأستانة فاذا رأوا أنه لايوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد فى القاهرة فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لايريدونه ثم يرسل إلى الباب العالى بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول الى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين ويطلبون استدعاءه فلا يرفض الباب العالى طلبهم . أما اذا آنس الرسل من الباشا أن لاخيفة منه فانهم يدعونه الى القاهرة فيركبه الوفد سفينة فخمة وينحدرون فى معيته تحيط به السفن المزينة بالاعلام وفيها الطبول والزمور ويتقدم الباشا هذا الأسطول مستقلا سفينة تختال فى سيرها تصطحبهم السفن التى تلقاهم فى النيل الى أن يصلوا الى بولاق وهناك ترسو السفن وينتدب شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا فى الميناء أو يستقبله بنفسه فيهنئه

أمراء المماليك بالقـدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) مفاتيح القلعة ويدعوه الى الاقامة فيها »

قال سافارى : « وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة فى موكبه وزينته رأيت الموكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة يسيرون صفين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم خفاقة فوق رءوسـهم يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف الى سـتة آلاف فارس يسـيرون بنظام حسن و يحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسـهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة فتكسبهم منظراً حربيا يبعث الروعة فى النفوس . يلى هؤلاء البكوات مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من المماليك يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضـة . رأيت أعنة خيول الأمراء مرصـعة باللؤلؤ والأحجار الكريمـة وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب . وكل « بيك » يسير فى الموكب على هذه الصفة . كانت جيادهم مجتمعة غاية فى الرونق والفخامة يزينهـا جمال الفرسان وشكل ملابسـهم وحسن استوائهم على متون جيادهم يليهم الباشا يسـير الهوينا تتقدمـه كوكبة من مائتى فارس وفرقة موسـيقيين وأمامه أربعة جياد يقودها أربعة من السواس عليها غواشيها موشـاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطيا جوادا كريما ووضع على عمامته ريشـة من قطع المـاس الكبيرة يتوهج سناها فى أشعة الشمس . رأيت فى هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التى كانت تحيط ملوك آسيا وسلاطينها عند ما يظهرون للجماهير . بدأ الموكب فى الساعة الثامنة صباحا واستمر الى الظهر وفى اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات الى حضوره وجلس على منصة فكأنه السلطان على عرشه . وتلا كخياه (وكيله) كتاب الباب العالى . فطأطأ الصـناجق (البكوات) احـتراما لولى الأمر وأمره وتعهدوا بتنفيذ مالايعارض امتيازاتهم

وبعد انفضاض الديوان أهـدى الباشا الى شيخ البلد كرك سمور فاخرا وجوادا مطهما وخلع على كل « بيك » قباء (قفطانا) وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا . . . الباشا الذى لايستطيع بعد تلك الحفلة العظيمة أن يخرج من القلعة الا باذن من شيخ البلد ! »

ولا يبعد أن يكون هذا الوصف هو الذى أعد لاسـتقبال اسماعيل باشا الذى عين لولاية مصر عام (١١٩٢ هـ = ١٧٧٨ م) . وذلك فى أثناء الفترة التى قضاها المسيو « سافارى » فى القاهرة وكان على مشيختها إما « اسماعيل بك » أو « ابراهيم بك »

القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم

مات أبو الذهب فتولى الأمر بعده البكوات الثلاثة اسماعيل ومراد وابراهيم وكانوا من مماليك على بك نخانوه وخرجوا عليه . كان أولهم يحكم مصر فى أثناء فتوحات أبى الذهب فى الشام وثانيهم تولى قيادة الجيش المصرى بعد وفاة أبى الذهب . وكان ابراهيم بك حاكما للقاهرة ولم تمر الأيام على اتحادهم حتى انقسموا فريقين . فاستعد اسماعيل لمقاومة زميليه ومناظريه على مشيخة البلد واستطاع أن يتقلد مهام الأمور متذرعا بكل وسائل الشدة والخشونة مستندا الى نفوذ الوالى . ومع جبروته كان منافسوه المماليك ينتهزون الفرص لمقاومته ومحاربته للتخلص منه فأفلحوا فى ابعاده عن مصر اذ فرّ مع أتباعه الى الشام وبذلك خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك . وانقسم أمراء مصر الى قسمين : قسم قيل لهم المحمدية نسبة الى محمد بك أبى الذهب وقسم يسمى العلوية نسبة لعلى بك الكبير . وقد كان هذا الانقسام سببا فى فتن وحروب ومكائد . وأحسّ العلوية من مراد بك بالغدر فتجمعوا وتحصنوا فى حوش الشرقاوى وأقاموا المتاريس فى جهة باب زويلة وباب الخرق والسروجية . أما ابراهيم بك فقد تحصن بالقلعة وصوّب مدافعه على أحياء العلوية اثنين وعشرين يوما بينما كانت جنوده تهجم على أتباعهم فى الحارات والدروب فخرّبوها . فاضطر العلويون للفرار الى الشرقية فتبعهم أعداؤهم وأفنوهم عن آخرهم إلا القليلين

وساد سكون وقتى وأقر الصلح على أن يعطى اسماعيل بك اخميم وأعمالها ووزعت على بعض أتباعه مناطق لايتعدونها . ولكن بعد قليل انتقض الصلح وعادت الأمور الى سابق مجراها وازداد الموقف تعقدا بما أحدثته المنافسة بين الزعيمين ابراهيم ومراد ووقفت جيوش كل منهما أمام الأخرى بالمرصاد . جموع مراد فى الجيزة وجموع ابراهيم بك فى مصر القديمة . واستمرت الحال عشرين يوما بين قصف المدافع وأزيز الطلقات واشتد البلاء بالأهالى حتى عقد الصلح بين الأميرين . فخشى أمراء حزب اسماعيل عاقبة هذا الصلح وهاجروا من مصر فسبقتهم جموع ابراهيم ومراد وبعض قوات العرب من خلف الجبل وقطعوا الطريق عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا جدا ولما عادوا وضعوا أيديهم على أملاكهم وأموالهم واولادهم . وبالتخلص من اسماعيل بك عاد النفوذ ثانية بين الزعيمين حتى سعى بينهم بعض المشايخ والأمراء واصطلحا ثانية !

وكانت سنة ١١٩٩ هـ من اسوأ السنين التى عرفتها مصر فانتشر وباء الطاعون وانخفض النيل وانقطعت الطرق وخربت أقاليم بأسرها وانتشر الفلاحون فى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر . واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الخيل والحمير والجمال بينما كان الأمراء كعادتهم ينهبون المدينة ورجالهم يسطون على الارياف كأنهم لا يشاهدون أمامهم تلك الكوارث التى تفتت الأكباد . وكثرت حوادث الاعتداء على الاوربيين فأرسلت الدولة العثمانية عام (١٢٠٠ هـ) حسن باشا القبطان على رأس جيش عثمانى جاء عن طريق البحر أفنى به عددا كبيرا من قوات المماليك فى رشيد والرحمانية . ودخل القاهرة ونزل فى بيت ابراهيم بك عند قصر العينى على شاطىء النيل وعكف على اصلاح الادارة . ثم استقدم اسماعيل بك وزميله حسن بك الجداوى من الصعيد فأرسلهما فى جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدى الحملة العثمانية التى جاءت مصر عن طريق البر للقضاء على مراد بك وأتباعه فى الصعيد فهزموهم وظلوا يتبعونهم الى الشلالات ثم عادت الجنود العثمانية منصورة الى القاهرة

فى تلك الفترة تقلد ولاية مصر عابدين باشا وانتهت مهمة حسن باشا القبطان . لكنه قبل مبارحته القاهرة أقام عليها اسماعيل بك شيخا للبلد . فعهد هذا الى صديقه القديم حسن بك الجداوى بأمارة الحج واتفقا معا على اقتسام الايراد . ثم أكمل اسماعيل بك بناء قصره وشيد به مقعدا فخما لم يكن له مثيل فى مقاعد بيوت الامراء .(١)

وفى عام (١٢٠٥ هـ) وفد على مصر وباء الطاعون وكان شديد الوطأة بلغ عدد موتاه نحو الالف فى اليوم الواحد فى القاهرة وحدها وتقلد حكومتها فى يوم واحد ثلاثة حكام وفنى كل بيت اسماعيل بك . وقد أصيب بالوباء وتوفى . فتنازع على مشيخة البلد حسين بك الجداوى وعلى بك الدفتردار واتفقا فيما بينهما على تأمير « عثمان بك طبل » فسكن بيت سيده وتولى مشيخة البلد أياما قلائل ثم سلمها لخصومه . وفى تلك السنة خلف محمد باشا عزت الوالى اسماعيل التونسى . فاستدعى ابرهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة فى (١٢٠٥ هـ — ١٧٩٢ م) وفر حسن بك الجداوى الى الصعيد واستلم الاثنان أزمة الأمور بالتناوب أحدهما مشيخة البلد وثانيهما أمارة الحج

---

(١) ذكر الجبرتى ان اسماعيل بك شيد فى طرفه على شاطىء النيل قلعة وجعل بها مساكن ومخازن وأبراجا وابنية أخرى تمتد من القلعة الى الجبل

وفى تلك السنة أشيع بين الناس أنه فى ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى فى نصف الليل ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة خرج أكثر الناس الى الصحراء والى الأماكن الفسيحة مثل بركة الازبكية وبركة الفيل وغيرها ونزلوا فى السفن وباتوا ينتظرون الى الصباح . فلم تحدث زلزلة وأصبحوا وهم يتضاحكون على بعضهم !

وذات يوم غيمت السماء غيما كثيفا وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد شديد الصوت وبرق متتابع قوى اللمعان واستمر طول ليلة الجمعة الخامس من شهر صفر فسقطت الدور القديمة على ساكنيها ونزلت السيول من ناحية الجبل الأحمر فملأت الصحراء وخارج باب النصر وامتدت الى جهة الجمالية وجامع الحاكم الى مسافات بعيدة فى الحارات المجاورة وخرب بسبب المياه أكثر خطط الحسينية وصادف ذلك اليوم دخول الحجاج الى القاهرة فأتلف مواكبهم وأخذ السيل صيوان أمير الحجاج بما فيه وخيام الأمراء والكبراء . وامتلأت الوكالات بالمياه وهدمت مئات القبور وتحول خارج باب النصر الى بركة ممتدة كبيرة

القاهرة بين الأميرين ابراهيم ومراد

فى أيام سطوة ابراهيم ومراد الأولى استأذن «سليم أغا» مستحفظان منهما فى فتح الباب الكبير لجامع السلطان حسن المواجه لسوق السلاح وهدم الحوانيت التى انشئت بأسفله وكان قد سد إحدى وخمسين سنة بسبب المعركة التى قتل فيها احد عشر أميراً من الأمراء محمد بك الدفتردار (١١٤٩ هـ) فأذنا له بما أراد . فقصد بنفسه إلى الجامع راكبا ومعه الفعلة والصناع وفتح بابه المسدود وصنع له بابا جديدا وبنى له درجات واسعة ومصاطب وأحضر نظاره وأمرهم بالصرف عليه . وكان يأتى كل يوم لمباشرة العمل بنفسه وأصلح ما تهدم من أجزائه ونظف جدرانه ورخامه وأعاد اليه سابق رونقه وبهاءه

على أننا لم نقف على شيء من آثار مراد بك أو زميله الا ما وصفه بعض الكتاب الأوربيين عن قصورهما الجميلة . فقد قدم إلى القاهرة « فيفان دينون » بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشـيد وألف كتابا عن رحلته وصف فيه ما كان فى قصر « مراد بك » بالجيزة وصفا بليغا بما فيه من طرقات وبساتين وأثاث . وكان القصر يشغل مساحة كبيرة من الأراضى التى تحتلها اليوم حدائق الحيوان والقصـور اللطيفة

المواجهة لها وقل أن يجد المرء مفخرة لهذا العصر فهو فى الواقع فترة من تاريخ مصر لم تسجل لها حسنات تستحق الذكر بل كانت اضطراباتها وقلاقلها أكبر ممهد للحوادث التى أدت إلى نجاح الحملة الفرنسية

كانت مصر مزرعة تقدم للأميرين ماشاءت أهواؤهما من مال وخيرات وكان اتباعهما يمرحون فى المدن والأسواق ويدخلون الحوانيت والوكالات وينهبون ويسرقون ويخطفون ثم يقتلون ويحرقون ويولون الأدبار . . إن تاريخ تلك الحقبة فى الزمان وصمة سوداء فى تاريخ هؤلاء المماليك الذين اتاحت لهم أسوأ الأقدار التصرف فى أمور مصر والتسلط على حكم أبنائها

فلقد تتابعت حوادث الخراب حتى مات كثيرون من الجوع ليلا ونهارا فى الطرقات بينا كانا وحدهما يسعدان ويشعران بالنعيم . وفى تاريخ الجبرتى بين حوادث عام (١٢٠٦ هـ - ١٧٩٢ م) وصف حفلة زواج ابنة ابراهيم بك « عديلة هانم » بالأمير أحمد ابراهيم بك المعروف بالوالى أمير الحاج سابقا وأنه عمر لها بيتا خاصا بجوار بيت الشيخ السادات وأسرف أبوها فى جهازها وشراء الحلى والجواهر وغيرها من الأوانى الفضية والذهبية . وأقام ليالى الأفراح ببركة الفيل حيث نصبوا أمام بيوت الزعماء الصوارى الكبيرة والملاهى وأصحاب الألعاب وقد دعا ابراهيم بك الأعيان والأمراء والتجار وقدموا للعروسين أثمن الهدايا . كما دعى أيضا « الباشا » فنزل من القلعة وأهدى للعروس جواهر ومصاغات نفيسة . وأقيمت حفلة العرس فى رابع المحرم وخرجت العروس من بيت أبيها فى عربة عجيبة الشكل وسار أمامها الكشاف والأمراء

وبعد انتهاء الأفراح بمباهجها وأغانيها خرج الأميران مراد وابراهيم من القاهرة مع بعض أمرائهما الى جهة العادلية حيث أقاموا مدة ومنها قصد « مراد بك » ناحية أبى زعبل وقصد ابراهيم بك وجماعته ناحية الجزيرة . وفى اثناء خروجهما نهب اتباعهما ماصادفوه من الدواب وهجموا على الوكالات التى بباب الشعرية وأخذوا ما عثروا عليه من الجمال والحمير ولما وصل مراد بك أبى زعبل نهب عرب الصوالحة فى خيامهم واستولى على أغنامهم وقتل منهم نحو خمسة وعشرين شخصا ثم قبض على مشايخ أبى زعبل وحبسهم وفرض عليهم غرامة أحد عشر ألف ريال

وفى أيام مشيخة الأميرين حضر الصدر الأعظم يوسف باشا للاسكندرية متوجها الى الحجاز فعنى الأمراء باستقباله . ولما وصل القاهرة أعد له قصر العينى وذهب

ان مراد وابراهيم للقائه فى موكب عظيم فخلع عليهما خلعا ثمينة وقدم لهما جوادين
. كذلك ذهب إليه الوالى مسلما عليه وعاد إلى القلعة . وعيّن لحراسته عبد الرحمن بك
هيمى وخصص له البيت المواجه لقصر العينى . و بعد أيام صعد يوسف باشا إلى
ى فى موكب كبير وعاد إلى قصره محملا بالهدايا التى قدمها اليه الزعماء وكانت خمسمائة
، قمح ومائة أردب أرز وأقمشة هندية . ولما انتهت زيارته سافر الى السويس
منها الى جدة

ى الوقت الذى كانت فيه مظالم الأمراء تتوالى كان مراد بك يشيد قصره العظيم
يزة ووصفه وصفا بليغا الكاتب الفرنسى « فيفان دينون » فى كتابه

قد ذكر المسيو « مارسل » (Marcel) المستشرق ومدير المطبعة التى أحضرها
ن الى مصر أن مراد بك فرض ضريبة كبيرة على اليهود ولما كانت ثقيلة
مل عبئها تلك الطائفة اجتمعوا زعماءهم وتداولوا فى الأمر وقرر رأيهم ارسال
ن للاجتماع بمراد بك واقناعه بأن عمرو بن العاص لما شيّد جامعه دفن فى أرضه
عظيما فرفع مراد الضريبة وأمر فى اليوم الثانى بترميم الجامع وكان غرضه الحقيقى
ب عن هذا الكنز الموهوم . ولما تهدّم الجامع ولم يجد شيئا اضطر إلى أعادة بناء
م وصرف عليه أموالا عظيمة فأقام معظم أعمدته وشيد منارتين وجدد جميع
بالخشب و بيض جدرانه فتم على أحسن صورة وصليت به الجمعة فى آخر رمضان
١٢١٢ هـ وحضرها الأمراء والأعيان والفقهاء و بأعلا قبلته الرخامية لوح
ب فيه أبيات من الشعور منها :

أنظر لمسجد عمرو بعد مادرست رسومه صار يحكى الكوكب الزاهى
نعم الوزير الذى لله جدده مير اللواء مراد الآمر الناهى

وعلى أحد أبواب الجامع الغربية اسم مراد بك بتاريخ ١٢١١ هـ وستة أبيات
لشعر منها :

أحيا لنا ربنا بيتا لطاعته وكان من قبل مصباحا بها فطفى
وانقض بنيانه والمسلمون غدوا من أجله قاصرين الباع فى أسف

ثقافة القاهرة فى العصر التركى

كان الأزهر المعهد الوحيد الذى درست فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر . ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل . وإليهم عاد الفضل فى إنقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق . وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين فى مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصيرى صاحب البردة والسراج الوراق وابن نباته المصرى والقلقشندى صاحب صبح الأعشى والأبشيهى صاحب المستطرف وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوى وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان والعينى المؤرخ والمحدث وابن دقماق والمقريزى صاحب الخطط وأبو الفداء الجغرافى المؤرخ والذهبى والنويرى صاحب نهاية الأرب وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطى والدميرى وابن إياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى

واستضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق كالامام ابن تيمية وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون

أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وجمدت القرائح . كانت القاهرة مدينة خليفة المسلمين وعاصمة دولة مستقلة وعروس الشرق العربى فأصبحت عاصمة لولاية تابعة للأستانة وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد ان كانت العربية لسان الحكومة حتى نهاية دولة السلاطين والشراكسة واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عصور الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والشراكسة وتبددت خزانات الكتب التى أنشأها الفاطميون ولم يبق منها الا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر التى احتوت إلى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣,٠٠٠ مجلدا . وآلت بعض المدارس الفخمة والمبانى العظيمة إلى زوايا صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام وبعضها زال وصارت زرائب أو أحواشا يسكنها البائسون

وقصارى القول أن العلوم والآداب انحطت كثيرا فى العهد العثمانى فلم ينبغ فيه

إلا عدد قليل جدا من الشعراء والأدباء والعلماء بل أننا لا نكاد نرى من يستحق الذكر منهم سوى شهاب الدين الخفاجي والسيد محمد مرتضى الزبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس . وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى تاريخه من علماء ذلك الحين لما رأيت منهم من يصح عده عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم أو الآداب . واقتصر التدريس فى الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية واضمحلت روح البلاغة ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لحد أن كلمة «شاعر» كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على نغمات الرباب !

هل تطورت القاهرة خلال الحكم التركى

هل استفادت القاهرة فى أثناء الاحتلال العثمانى وهل امتدت مساحتها وازداد عمرانها ؟ إننا نجد جوابا سلبيا واحدا على هذين السؤالين . فقد تدهورت القاهرة وخربت فى أثناء حكم العثمانيين . وعلى كل حال فان نظرة واحدة إلى خريطة تخطيطية للقاهرة عندما دخلها نابليون وأخرى تمثلها فى أول الاحتلال التركى لكفيلة بإقناعنا بأن سنة النمو والارتقاء لم تسر عليها فى عهد العثمانيين

دخل الأتراك مصر فوجدوا لها عاصمة زاهية مجيدة احتفظت لنفسها مركزا ساميا بين عواصم الدول الشرقية والغربية فكانت مكانة القاهرة لا تقل عن مكانة الأستانة . ولم يكن مر عليها أكثر من ستة قرون منذ انشأها جوهر . ووجد الأتراك مدينة منشأة تزدحم بالقصور والعمائر والمساجد والوكالات والمدارس والقلاع فكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لكى تصبح جوهرة إمبراطوريتهم العظيمة لكنهم أهملوها وأذلوها بعد ان كانت لها هيبة مجيدة

أنشأ الفاطميون القاهرة وجملوها بابتكاراتهم فى فنون العمارة وجاء الأيوبيون فحصنوها بالأبواب والأسوار القوية وجعلوها عاصمة جديرة بملكهم الواسع حتى إذا جلس على عرش الدولة سلاطين المماليك البحرية فالمماليك الجراكسة رأيناهم يتنافسون . . . السلطان

عقب السلطان . . . فى تجميلها ورفع شأنها وأصبحت عاصمة زاهرة للعالم الاسلامى ومقراً لخليفة المسلمين .

ولكى نحلل بايضاح عوامل الخراب التى شوهدت آثارها بالقاهرة قبيل دخول الفرنسيين نتبع السائح الأجنبي الذى وصل على ظهر السفينة النيلية إلى ميناء بولاق التى تمت بدون انتظام أمام الزوارق والسفن التى كانت ترسو أمامها . كانت بولاق تمتد أربعة كيلو مترات طولا بدون عمق يذكر أشبه شيء بمدينة صغيرة معزولة احتوت فى أواخر القرن الثامن عشر على مالايزيد عن أربعة آلاف بيت وعشرين ألفا من السكان واشتملت على عدد كبير من الوكالات والشون والخانات والحمامات والأسواق تتوسطها بعض المناظر الجميلة والحدائق الغناء وتلال من المواد التى ينفر الذوق السليم منهاوالمقابر المبعثرة . ولقد تمتعت بولاق بنعيم الرخاء فى أثناء منتصف القرن الثامن عشر أيام ولاية على بك الكبير فكانت مقصد الخاصة وملتقى الأحباب لاستنشاق نسيم النيل العليل بعيدا عن غبرة القاهرة . لكن لم يتسع لعلى بك الوقت لكى يتمم مابدأ به من مشروعاته العمرانية فى تلك الجهة فقد شغل بحروبه فى سوريا و بلاد العرب واستمرت أعمال الحفر والأنقاض تعوق نواحيها وتعرقل تقدمها مدة ليست بالقصيرة

وحول بولاق من الجهة المقابلة للنهر افترشت الحقول الخضراء المنوعة وهى تكسو أخصب بقاع وادى النيل تغطيها مياه الفيضان بجمال ودعة

وابتدأ من بولاق طريقان يؤديان الى القاهرة : الطريق الأول زرعت على جانبيه أشجار اللبخ والنخيل انتهى أمام باب الحديد حيث كانت ترى إذ ذاك بقايا ميناءالمقس القديم

أما الطريق الثانى وهو أقصر من الأول فكان خلوا من الأشجار ينتهى بسالكه الى الازبكية . وكانت تطل عليها من الجانبين الحوانيت والبيوت المأهولة بالسكان . واجتمعت على قارعة الطريق جموع الحواة والمشعوذين يسلون زبائنهم فى المقاهى بينما يغنى الشعراء على آلرباب والدف أو الناى

بعد أن يقطع السائح مايقرب من الألف وخمسمائة متر يجد نفسه أمام حدود القاهرة الأصلية . . . قاهرة الفاطميين . فيجتاز القناة الغربية مستأنفا السير فيما يشبه ضاحية المدينة ثم يقابل سوراً شاهقا أمام بوابة ضخمة يحميها خندق متوسط العمق ثم يسير فى شارع ضيق مزدحم قاصداحى الافرنج . و يصل هذا الشارع بين بركة الازبكية والخليج

وعند نهايته تجده مسدوداً ببوابة حديدية لها حراس أقوياء . وأرغمت اضطرابات تلك الفترة أجانب القاهرة على أن يتجمّعوا في ذلك الحي حول قنصل فرنسا بمساكنهم ومتاجرهم ليأمنوا شر الغوغاء أو الجند عند مطالبتهم بمؤخرات مرتباتهم . وكان أهم شوارع القاهرة شارع الموسكي وبالقرب منه قنطرة بذلك الاسم شيَّدها عز الدين موسك أحد قواد صلاح الدين . وكان حي الافرنج موطنا لمعظم السياح الأوربيين والرحالة الذين جاءوا الى مصر لزيارتها . وكان ذلك الحي من القاهرة في أيام الفيضان من أجمل مناطق القاهرة تشرف منافذ بيوته على المياه من كل جهة وتتكدس حدائقه بأشجار الفاكهة والرياحين والزهور . فاذا أقبل فيضان النيل تحولت البساتين الى بركة جميلة تتهادى عليها الزوارق الحسناء بخفة ورشاقة يزيدها ملاحة أغاني النوتي تحت ضوء القمر المنعش . فلكأن القاهرة في ذلك الوقت « البندقية » عروس الأدرياتيك . وأشرفت على البركة من جوانبها الثلاث قصور المماليك والأغنياء ذات البواكي والأعمدة المعقودة والمخنصرات المتقنة . وكان للجانب الرابع من ميدان الأزبكية تقوم عليه بعض بقايا قصر زوجة قايتباي حتى أوائل القرن الثامن عشر . واختفت خلف هذا الاطار الجميل مجموعة سيئة من الخرائب والمدافن وطاحونة مهدمة وصهريج كبير وساقية وسبيل مياه وأنقاض . وعلى الجانب البحري من الميدان قام الحي القبطي ببيوته المتواضعة وشوارعه الضيقة ومنعطفاته المظلمة كهذه التي مازلنا نراها في أزقة مصر العتيقة

وفي عام ١٧٧٤ شبّت حريق خربت جانبا كبيرا من الأحياء المحيطة بالازبكية . فانتهز الأغنياء تلك الفرصة واشتروا ممتلكات الفقراء الذين لم يقدروا على إعادة البناء وبدأ أصحاب الأموال يشيدون البيوت الوجيهة التي قامت على أنقاض بيوت الفقراء . ومن ذلك اليوم بدأت أناقة بركة الأزبكية وتغنى بحسنها الفاتن ومنظرها البديع الشعراء والأدباء وعظماء الخيال والرحالة من الافرنج

واذا عبر السائح الخليج الناصري التقى بحي اليهود يحده شرقا بين القصرين وغربا حي الافرنج وشمالا بقايا سور القاهرة حيث بوابتا الفتوح والنصر يتوسطهما جامع الحاكم. وعلى مقربة من الباب الأول مقبرة باب النصر . وقد هددت تلك الناحية سيول الأمطار الغزيرة التي تساقطت على تلال المقطم فتهدمت بيوت الفقراء

وفيما وراء السور القاهري من الشمال شيد فقراء المماليك طائفة كبيرة من البيوت التي التصقت بالسور فاختفت معالمه في تلك الجهة . وتكون بالتدريج حي الحسينية وما كاد

ينمو حتى وصل الأتراك الى مصر فخربوه تقريبا . ولكن بعد مضى زمن عمر الحى مرة أخرى . ومما ساعده على النهوض شرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين اتى أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجا عن حدود المدينة فقد امتدت اليه العمارات وبدا على ذلك الحى طابع ارستقراطى

هذا التوسع كان فى غربى الحسينية . أما فى شرقيها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانبها تلال القاذورات المتراكمة منذ أجيال

لم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير فقد ظل على ماهو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ولم يعكر صفوسا كنيه سوى معارك الجند والمماليك كلما اشتاقت أمزجتهم اليها . وكأن أصحاب الحوانيت والوكالات اعتادوا هذه الحال . فكانوا إذا رأوا طلائع الحركات العدائية تتقدم نحو الحى أغلقوا أبواب متاجرهم على أن تظل موصدة حتى تزول العاصفة وتعود الأمور الى نصابها

واذا تابع السائح مسيره للجنوب عابرا باب زويلة تاركا خلفه مسجد المؤيد سار فى قصبة رضوان وامتدادها الى المغربلين فميدان الرميلة أو انحرف الى باب سعادة قاصدا حى باب اللوق

والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار . كانت تحيط به من شماله جملة برك ومن جنوبه مدافن ومن شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين . واشتمل هذا الحى فى وسطه على ميدان واسع يطل عليه قصر الأمير يشبك ومدرسته التى عرفت باسمه كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأماكن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القريبة منها وأمتاز بحيوية أهله وكثرة عددهم

أما جنوبى حى بولاق فكان المار يسير بين المقابر والمزارع وعلى يساره امتداد المدينة محاذيا للخليج الكبير مارا بين بركتى السقايين وأبى شمعة . فاذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج التف نحو الغرب متخذا مجراه الى الحقول التى لاتبعد كثيرا عن قصر العينى . وكان هذا القصر منذ أربعمائة عام مقرا فخما لسيده ثم أضيف الى بنائه الأصلى مسجد. ثم شيد مدفن للعينى واستخدمه الأتراك عند وصولهم لمصر قصرا أقام فيه من كانوا يمرون بالقاهرة . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ازدحم حى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الاتربة والانقاض من الجنوب

واستجدت منطقة بين بركة الفيل والقلعة . . . حى ابن طولون . مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعلو أكماته كلما ازدادت الانقاض وألقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أكمات جبل يشكر من الناحية العسكرية فى ذلك الوقت اصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكرا لاجتماعاتهم . وكان أغلب سكان تلك الجهة من الفقراء والمقلقين أوالمتعصبين ومعظهم من سلالة الطوائف الشركسية وقدماء الأتراك . وبالاختصار فان هذا الحى فى مجموعه لم يتغير الاقليلا عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى اذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد ان افزعتهم حركات المشاغبين المستمرة . وفى ذلك الحى بميدان الرميلة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أوجامع السلطان حسن كما كان يقصدها التجار المتنقلون الذين يدفعون أمامهم عربات الأيدى . و بتوالى الأيام تحولت منازل الأغنياء الى أحواش سكنها الرعاع . أما أغنياء الحى فقد هجروه إلى منطقتى بركة الفيل أوالأزبكية اللتين أصبحتا القرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة

وفى ذلك الزمن كانت القلعة دائما مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة لها مساجدها وميادينها و بيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومأوى الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت ما بلغته من المجد والشرف فى اثناء حكم سلاطين المماليك بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى . . . نتيجة لاهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لايستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية العثمانية . وفى غالب الأحايين كانوا يتسلمون أوامر العزل أوفصل الرأس ! فلم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل الى الخراب . ولما زار « سافارى » (Savary) القلعة فى أثناء القرن الثامن عشر قال عنها : إنها لاتتألف الا من مجموعة خرائب وانقاض مجزئة ولم يبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكن . وهى صورة صادقة للمدينة العظيمة التى تشرف عليها :

« Elle est l'image fidèle de la grande ville qu' elle surplombe. »

مهرجانات القلعة

كانت تقام فى القلعة المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة أوحفلات الأعياد القومية والدينية كغرة شهر رمضان والمولد النبوى ووفاء النيل

كان الوالى العثمانى جريا على العادة التى ألفتها البلاد يحتفل بزيادة النيل فيبدأ الموكب الرسمى من القلعة فى صبيحة يوم الاحتفال وينزل مع حاشيته إلى بولاق حيث تنتظره سفينة مزينة أعدت له ولسناجقه وأمرائه أمام دار صناعة السفن فينزل هناك بها ويقلع فى مقدمة السفن تتبعه سفائن السناجق وتضرب المدافع حتى يصل إلى المقياس بالروضة . وكان يقيم هناك يوما أواثنين حتى ينتهى الاحتفال وتعمل العرائس النفيسة ويحدث من القصف واللهو الشىء الكثير

وفى اليوم الذى يريد فيه الوالى فتح السد يمد سماطا قبل شروق الشمس للسناجق وللجاويشية المتفرقة وغيرهم من الجند ويشترك فى الحفلة قاضى مصر . وبعد الانتهاء يخلع الوالى على كاشف الجيزة (مديرها) وشيخ عرب الجيزة وحاكم القاهرة وبولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحاجى باشا وأمين البحرين وناظر الحسبة وغيرهم .

ثم ينزل مع قاضى العسكر والسناجق فى السفن النيلية تعزف أمامه طول السناجق الى أن يصل للسد فينثنى ثم يصعد من السد إلى القلعة فى احتفال شائق

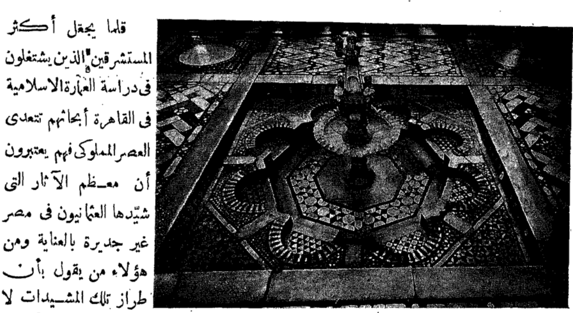
والى الطرف الجنوبى من قره ميدان والى الشرق من مجرى العيون المشهورة كانت تقوم احدى بوابات القاهرة المؤدية إلى « القرافة » . وكان إلى شمال القلعة طريق مترب يؤدى إلى حى باب الوزير ومنه إلى مدينة الأموات

الخاتمـــة

رأينا القاهرة فى خلال القرن الخامس عشر فقدت أهم عنصرين لهامكانتها الحقيقية وسكانها . فقد نزلت عن عرشها مضطرة للأستانة وتنازلت عن أهميتها الروحية كمقر لخليفة المسلمين . وفقدت أهميتها التجارية وأصبحت احدى مدن ولاية كبيرة وكانت عاصمة سلطنة ذات سيادة . فصارت ضئيلة فى أعين الشرق والغرب كما أنها لم تعد أكثر من مدينة قديمة ذات آثار نفيسة وذكريات مجيدة . وحلت على أرضها الأوبئة والمجاعات وأصبحت فريسة لقطاع الطرق واللصوص ولم ينتشلها من فئة الطغاة غير المصلح العظيم محمد على باشا

فنون وآثار القاهرة العثمانية

(١٥١٧ — ١٧٩٨ م)



نافورة داخل بيت قاهرى « دار الاثار العربية »

قلما يحفل أكثر المستشرقين الذين يشتغلون فى دراسة العمارة الاسلامية فى القاهرة أبحاثهم تتعدى العصر المملوكى فهم يعتبرون أن معظم الآثار التى شيّدها العثمانيون فى مصر غير جديرة بالعناية ومن هؤلاء من يقول بأن طراز تلك المشيدات لا يخرج عن طراز أبنيتهم فى إستانبول . فهى من هذه الناحية « عثمانية » بحتة ليس ثمة كبير علاقة بينها و بين الطرز الفنية التى نشأت على ضفاف النيل وأكبر ظنى أن فى الفكرتين شيئا من الشطط

ومما لاشك فيه أننا إذا نظرنا الى بعض مشيّدات القاهرة التى يرجع تاريخها الى عصر الانتقال بين حكم المماليك وفتح العثمانيين وجدنا أمورا جديدة طرأت على طراز العمارة التى كانت شائعة اذ ذاك . فهى ليست بعثمانية من ناحية الشخصية كما أنها لاتعد تافهة من الناحية الفنية . ولدينا من أمثلة المبانى التى تعتبر نماذج بارزة للعمارة فى العصر المذكور مسجد خير بك ومسجد أمير أخور ومسجد بيبرس الخياط

واذا اعترفنا أن سلاطين المماليك كانوا حقيقة قساة سفاكي دماء فنحن لا نستطيع أن ننكر أنهم كانوا غزاة أقوياء لهم بلاط من زهرة الأمراء المقربين يقلدونهم فى شجاعتهم و يشملون مثلهم الآداب والفنون برعاية سامية وعناية كبيرة فلما انتهت

دولتهم وضاع استقلال مصر صار حكمها الى ولاة كان يبعث بهم سلطان العثمانيين لايحملون أكثر من لقب « باشا » ليست لهم صولة ولا قوة يعزلون ويستبدلون بكلمة منه لاينظرون الى خير البلاد بمقدار ماينظرون الى خير أنفسهم

ودام الحال على هذا المنوال حتى قبض على ناصية الدولة محقق أمل مصر ـ ذلك البطل العظيم محمد على باشا فانتعشت فى أيام حكمه البلاد المصرية وخلق لها مكانا ساميا بين دول التاريخ وأعاد إليها سابق مجدها كما أوجد لها مكانة محترمة

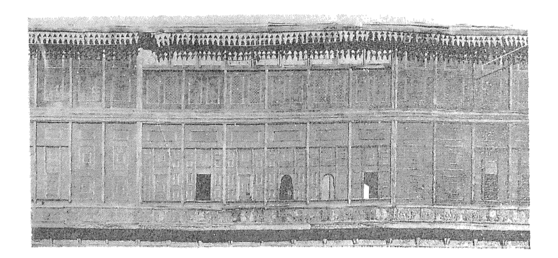
ويذهب كثير من المؤرخين الى أن العثمانيين لما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور فنون العمارة القاهرية مع أن الحقيقة التى يدركها كل مطلع على التاريخ المصرى دلت على أن الأيام الأخيرة للحكم المملوكى كانت مشبعة بجراثيم التدهور والانحطاط والآثار التاريخية خير دليل نستشهد به على ذلك

جاء العثمانيون وقد حملوا معهم أساليب جديدة لفن العمارة . وعلى الأخص عمارة المساجد . وكان أهم شىء فى الوضع الجديد اتخاذ القباب والأفنية ذات الأروقة المستمدة من بناء الكنائس فى الفن البيزنطى . وأول مانلاحظه فى التصميم العثمانى ذلك البهو الذى تغطيه قبة يحيط بها نصفا قبتين أو أربعة أنصاف منها . ثم تلك المأذنة المشوقة الرفيعة ذات الشكل الأسطوانى المنتهى بمخروط . وهذا الطراز الجديد المخالف لتقاليد العمارة القديمة اختص به العصر العثمانى فى مصر فأصبح من أهم مميزاته وأصبحت القباب تتخذ فى وسط المساجد بعد أن كانت إشارة الأضرحة والمقابر فى الزمن السابق . وقلما تجد عمارات فيها آثار دقة الصناعة المعهودة فى أيام المماليك الجراكسة . وما نجده من أبنية فيها بعض الإبداع والإتقان إنما يرجع الى القرن الأول من حكم الأتراك فى مصر مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين . ومن بعد هذا العصر صار النقر فى الأساليب المعمارية يزداد وضوحا على ممر السنين

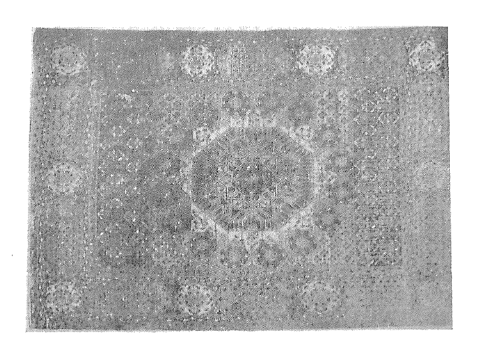
***

شيد فى القاهرة فى اثناء العصر العثمانى كثير من المساجد . أولها مسجد خير بك الذى دفن فيه بالحربكية بجهة باب الوزير . وكانت أرضية هذا المسجدمرتفعة نحو ثلاثة أمتار ومفروشة بالرخام الملون . ومسجد سارية بالقلعة ومسجد المحمودية وجامع السنانية ببولاق ومدرسة الملكة صفية ومسجد البرديني الذى لاننسى فسيفساءه البديعة أوصدفه المنمق وميناءه الزرقاء والخضراء . وأسقفه المزوقة التى تعيد إلى أذهاننا صناعة قايتباى

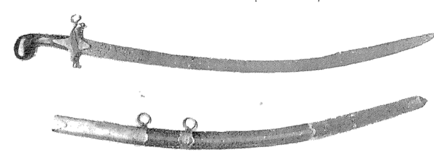
صناعات قاهرية



جزء من المشربية الكبيرة المطلة على حوش منزل أحمد حسين



سجادة محفوظة بالقسم الاسلامى بمتحف برلين تمثل الصناعة المصرية فى أواخر القرن الخامس عشر



سيف تركى على نصله من جانب واحد كتابة كوفية وزخرفة من فروع نباتية بمجموعة دار الآثار العربية

وزجاجه الفاخر ومشربياته الجميلة . كذلك مسجد الفكهانى الذى جدّده أحمد الخربوطلى (١١٤٧ هـ) . وأخيرا جامع أبى الذهب الذى شيد على طراز جامع السنانية . ولقد جدد العثمانيون عمائر أضرحة كثيرة ومساجد قديمة كجامع عمرو بمصر القديمة أومدفن الشافعى وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة وأصلحوا أيضاعـدة نواحى القلعة . وتوالت أعمال التصليح فى الأزهر فقد أصلح الوالى سيد محمد (١٠٠٤ هـ = ١٥٩٦ م) أروقته ودهنها باللون الأخضر . وجاء الدفتردار حسن فبنى رواقا للطلبة اليمنيين ومحرابا صغيرا كما جدد أرضيته . وفى عام (١١٣٦ هـ) أعيد دهان أسقفه . وبنى محمد أبو الذهب أروقة جديدة لكل من المفتى الشافعى والمالكى والحنفى . ثم أعاد الوالى اسماعيل التونسى دهان جدرانه بالبوية (١٢٠٣ هـ — ١٧٨٨ م)

وكانت أهم أعمال التجديد بالأزهر تلك التى قام بها عثمان كتخدا القزدجلى فقد انشأ رواق العميان . ووسَّع عبد الرحمن كتخدا المدرستين القديمتين الطيبرسية والأقبغاوية وأقام خمسين عامودا من الرخام لحمل العقود وأقام أيضا محرابا ومنبرا ومدرسة وصهريجا ومسكنا ومحلا لدراسة الفقراء القادمين من الوجه القبلى وشيد مأذنة كما شيد ضريحا له أقام عليه قبة عظيمة . وكانت أعماله الخيرية تسير دائما بجانب أعماله فى التشييد والبناء يوزع الصدقات والعدس والقمح على الفقراء ويقيم لهم المطاعم ويقدم لهم الأكل بالمجان . ولا شك أن عبد الرحمن كتخدا كان أكبر مصلح للعمارة فى تلك الفترة . فقد شـيد أو جدد ثمانية عشر مسجدا وأقام الزوايا والمدارس والأسبلة والصهاريج والبيوت والأسواق وأوقف على تلك المنشآت أوقافا هامة

على أننا لا نشاهد فى ذلك العصر الآثار البديعة الخاصة بالأضرحة . تلك المشيدات التى أمتاز بها العصر المملوكى السابق بقبابها الجميلة المغطاة بالنقوش المزركشة الرفيعة . وتلك الكتابات المنقوشة على أفاريزها . فإن المقابر العثمانية عليها طابع من البساطة . والنوع الوحيد الذى ظل كاملا سليما فى تصميمه هو السبيل الكتاب . ففى أسفل البناء وجدت حنفيات الشرب بصهريجها وفى أعلاه مدرسة لحفظ القرآن وتعليم مبادى القراءة والكتابة وشيد من هذا النوع عدد كبير . لكن نلاحظ أن السبيل كان فى العهد السابق يلحق بالمدرسـة فى زاوية من زوايا البناء . أما فى تلك الفترة فقد أصبح قائما بنفسه ومستديرا فى تصميمه مع مايتجلى فيها من ذوق فى صناعة الرخام والنحاس وتحمل تلك الأسبلة أجمـل معانى الأحسان والتقوى وفى القاهرة عشرات من تلك الأسـبلة منها

سبيل خسرو باشا المواجه لجامع قلاوون وسبيل عبد الرحمن كتخدا الذى لا يبعد عنه كثيرا

وانتشر فى العصر العثمانى بناء تكايا الدراويش والأسواق والوكالات وشيد أغنياء القرن الثامن عشر كثيرا من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق النزهة على شاطىء النيل أو على الخليج المصرى . وكانت بركة الأزبكية وبركة الفيل تحيط بهما القصور الفخمة تلك التى لا تعرفها قاهرة اليوم . ولقد وصف الجبرتى فى تاريخه المشهور تلك البيوت وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المماليك التى كانت لا تزال قائمة فى أيام الاحتلال العثمانى جذبت أنظار الرحالة الذين شاهدوها

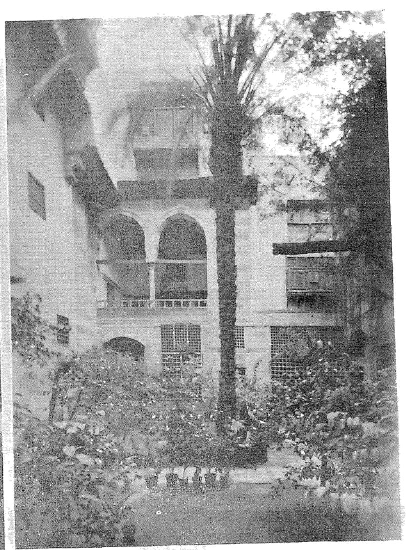
قصور القاهرة وبيوتها

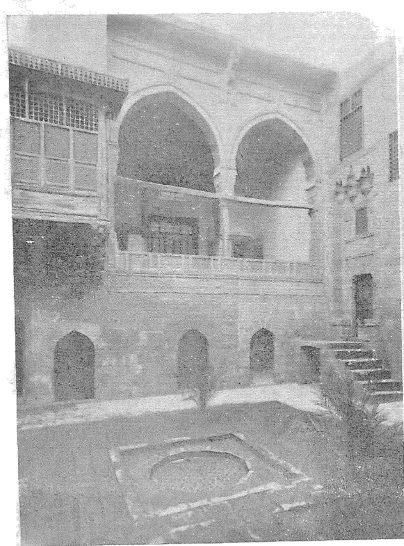
ولا يزال قائما فى القاهرة لليوم بقايا تلك القصور السامية ففى حى الجمالية وباب الشعرية بيت الشيخ أحمد موسى العروسى و بيت الشيخ محمد أمين السحيمى بالدرب الأصفر عام (١٦٤٨ م) وبيت البكرى بالخرنفش (١٢٦٥ هـ — ١٨٤٨ م) الذى أعيد تشييده فى عهد والى مصر عباس باشا الأول . وقصر المسافرخانة الذى ولد فيه الخديو اسماعيل (١٧٧٩ — ١٧٨٩ م) بدرب المسمط

وفى حى الدرب الأحمر نجد بيت جمال الدين الذهبى بحارة خوش قدم (١٠٤٧ هـ — ١٦٣٧ م) . و بيت زينب خاتون بعطفة الأزهرى . ولا تزال واجهة بيت رضوان بك بالخيامية باقية كما كانت عليه فى القرن السابع عشر كذلك مقعده بالخيامية . واذكر أيضا بيت حسن عبد اللطيف بشارع الغندور الذى يعد بين مبانى القرن الثامن عشر و بيت الشيخ مصطفى شلبى سنان بسوق السلاح

أما فى خط الخليفة والسيدة زينب فنجد من هذه المنازل القديمة بيت على أفندى لبيب بدرب اللبان وقد بنى فى القرن الثامن عشر . وقصر يشبك أو قصر بردق بشارع المظفر و بقايا قصر الأمير طاز بالسيوفية و بيت وسبيل الست الجردلية الملاصق لجامع ابن طولون (١٠٤١ هـ — ١٦٣١ م) و بيت السادات الوفائية بشارع السادات و بيت ابراهيم كتخدا السنارى (متحف جليار دو بك سابقا)

وفى شارع غيط العدة بالقرب من باب الخلق لا تزال سراى سامى باشا البارودى





الى اليمين منزل السحيمى من آثار القرن الحادى عشر الهجرى فيه مشربيات جميلة وقاعاته العلوية لاتزال محتفظة برونقها بما اشتملت عليه من قاشانى قيم ونجارة بديعة وهو بالدرب

بيت الست حفيظة) قائمة وهى من مخلفات أواخر القرن الثامن عشر (١٢٠٦ هـ — ١٧٩١ م) وهى تحفظ شيئا من رونقها القديم .

تذكرنا هذه القصور الشامخة برجالات القاهرة فى مختلف أيامها فنعيد إلى مخيلتنا صورة شرقية للعاصمة العزيزة

***

وإذا كان العصر العثمانى قد سادته الروح الدينية فمن الطبيعى أن تصحب ذلك عناية بالمؤسسات الدينية . ومن الخطأ أن نتهم الباشوات الاتراك بأنهم تعمدوا اهمال آثار القاهرة من مساجد ومقابر ووكالات وغيرها . فالذنب ليس ذنبهم اذا كان معاصروهم من الفنانين والصناع لم يبلغوا من البراعة مبلغا يساوى أسلافهم

وان كانت مبانى العصر العثمانى ذات عمارة تترك فى مجموعها أثرا جميلا فى النفس يشهد بما فى تلك الابنية من تآلف ومايسودها من مسحة فنية فان هناك شيئا يقلل من جمال هذا الاثر ذلك هو مافى الزخارف التركية من عيوب ملموسة بينما لعبت الزخارف فى العصر السابق دورا كبيرا كان أكبر عامل فى جمال الطراز وفخامة العمارة . على أن الزخارف المعمارية فى عصر الأتراك كانت كثيرة ولكنها فاسدة ومتأخرة . فلم نعد نجد مثل زخارف أيام قايتباى ولم تكن الكتابة المنقوشة مهذبة بل كانت شعبية أولية ليس لها طابع تنفرد به

وكانت آثار القاهرة والبلاد هدفا للمهانة وعرضة للتخريب . فانهارت قبة الأيوان الكبير لجامع الناصر محمد بن قلاوون المشيد داخل سور القلعة (١٥٢٢) ووقعت مأذنة جامع السلطان حسن (١٦٥٧ م) كما تخربت قبة الجامع المذكور (١٦٦٠) وقامت زوبعة شديدة اقتلعت مأذنة جامع ابن طولون (١٦٩٤) كما أتلفت المياه أساس جامع الحاكم (١٧٩١) . ولكن كل هذه الاضرار لم تكن شيئا يذكر بجانب الخرائب التى أحدثتها الحروب والفتن وعوامل التلف التى جلبتها روح الانتقام . وكثيراً مااقتلع القوم قصورا من أسسها للانتفاع بموادها فى تشييد مبان أخرى !

لقد ذكرنا أن السلطان سليم نهب كثيراً من نفائس مساجد القاهرة واستولى على كل الشمعدانات الفضية التى كانت بمسجد السيدة زينب ونقل كميات عظيمة من الرخام الذى احتوته قصور القلعة الى ميناء بولاق لينقلها الى الأستانة . وفى عام ١٠٧٦ هـ ضرب جامع المؤيد بالمدافع وقيل انه أصلح بين عامى (١٦٨٩ م = ١٠١١ هـ) .

وكان طلبة الأزهر كثيرى الهيـاج وطالما قاموا بحركات عنيفة ففى عام (١١٢٠ هـ — ١٧٠٨ م) ثارت ثورتهم وكسروا أحد أبواب الأزهر احتجاجا على تعيين أحد الأساتذة بالرغم منهم ! وفى سنة ١٧٩٦ هدم أحد المشايخ المدرسة الملاصقة لجامع سنان ببولاق واستخدم أعمدتها وحجارتها المنحوتة لبناء فندق خاص ! وجدد اسماعيل بك فى عام ١٧٩١ عمارة منزله بمواد أخذها من أنقاض مسجد كان يقع على فم الخليج . وفى العام المذكور قام شيخ آخر ودمر قصر عبدالرحمن كتخدا الكائن بين بولاق ومصر القديمة وباع مواده الأولية . وفى ذلك العهد استخدمت مساجد كثيرة كمخازن للبضائع أو ورشا لغزل أومصانع لنسج الأقمشة . ومن تلك المساجد مسجد ابن طولون الذى استخدمه محمد بك أبو الذهب ورشة للغزل

عمارة القاهرة العثمانية

قلنا ان طراز العمارة العثمانية تسرب إلى مصر قبل الفتح التركى بقليل بدليل ان تصميم رسم مسجد السلطان الغورى (١٥٠١ — ١٥١٦ م) ومسجد خير بك وطراز القباب المتعامدة التى تغطى سقف المسجد الغورى والإيوان المتوسط لمدرسة قايتباى (١٥٠٣) والعقود الرئيسية لمسجد خير بك . . كل هذه النشآت تثبت لنا ان الأساليب العثمانية لفن البناء كانت قد انتقلت الى مصر قبل الاحتلال العثمانى . وقد عرفت المأذنة الأسطوانية فى مصر قبيل الاحتلال العثمانى فان مأذنة اسرائيل ببيت المقدس كانت موجودة فى عام ١٣٦٧ وقد أقيمت على نسق المآذن المستديرة فى شمال الشام واقتبست عن المآذن السلجوقية كما شاهد القاهريون مشيدا على ذلك الطراز منذ عام ١٣٩٥ مأذنة جامع محمود الكردى وهو الجامع الكائن فى آخر قصبة رضوان فى أول الخيامية

حاول العثمانيون ان يدخلوا على القاهرة تصميماتهم وأساليبهم وبعض حلياتهم الزخرفية الجديدة غير أنه لم يكن من السهل ان يغير المهندسون والعماريون تغييرا كليا ما كان لديهم من طرز معمارية وأساليب فنية وكان شاقا عليهم فوق ذلك ان يروا مسحة أجنبية تسود فنونهم وصناعاتهم التى ورثوها عن آبائهم وأجـدادهم الذين عاشوا فى زمن المماليك

وبالرغم من تصميم المدرسة الذى أدخله السلطان صلاح الدين فى مصر فقد كان المسجد ذو الأيوانات هو التصميم المألوف حتى القرن الخامس عشر . وقد احتفظ

العصر العثمانى بجملة أمثلة باقية من هـذا التصميم ولو ان ذلك الطراز أصابه الفساد في هندسته الأصلية . وأوضح مانلاحظه من هذا التدهور الفنى نجـده فى جامع آق سنقر الفارقانى (١٦٧٠ م) فهو صورة ضئيلة بجانب ما كان عليه الفن القاهرى فى أيامه الزاهرة

أما جامع عثمان كتخدا (١١٤٧ هـ — ١٧٣٤ م) فنجد فيه تنسيقا منظما جدا . يتألف أيوانه الرئيسى من ثلاثة صفوف فى كل منها أربعة أعمدة موازية لحائط القبلة . أما الأيوانات الجانبية والأيوان الشمالى فتتألف من بلاطة واحدة (رواق) ولا توجد الدكة بالقرب من نهاية الايوان الرئيسى كما هو الحال فى مساجد العصر المملوكى فانها أصبحت توضع فى الايوان الشمالى معادلة للمحراب . ولمـا كانت أعمدة الأيوان الشمالى والعمودان الخارجان فى الصف الأول من الايوان الرئيسى من الأعمدة الجرانيتية القديمـة عالية جدا عن الأعمدة الأخرى . فقد أصبحت عقودها المشيدة فوقها أقل حجما من العقود المنشأة على الأعمدة الأخرى

وشيدت عدة مدارس فى العصر التركى كان تصميمها فاسدا . فقد شيدت مدرسة الدشطوطى في السنة التاليـة للفتح العثمانى . وكانت صليبية الشكل بنى على طرازها الهندسى فيما بعد مسجد محب الدين أبو الطيب (١٥٢٨) وهو يقع على يمنة السالك من الخرنفش . ذو أيوانين باقيين إلى اليوم وصحنه مفروش بالرخام الملون ومحرابه مكسو بالرخام النفيس ومنبره دقيق الصنع مرصع بالعاج والآبنوس . ولم يبق من هذا الجامع سوى إيوانيه فقط

فاذا انتقلنا إلى مساجد عبداللطيف قرافى « وقالمطاى » والهياتم وهى من مشيدات القرن الثامن عشر شاهدنا اختلافات أخرى . ففى المسجد الأول نرى أن الايوانين الجنوبى والشمالى يشغلان معظم البناء و يفصلهما عن بعضهما رواق علوى فى وسطه منور سماوى (Lanternon) وفى المسجد الثانى نلاحظ ان الأيوان الرئيسى أقل اتساعا من البلاطة الوسـطى . بينما نرى الرواق العلوى المقابل يؤدى مقام الدهـليز وترتكز القناطر فوق عامود متوسط ثم لانرى بعد ذلك إيوانات جانبية فانها لاوجود لها فى هذا الطراز

ولايختلف كثيرا طراز مسجد الهياتم (١١٧٧ هـ — ١٧٦٤ م) عن طراز المسجدين السابقين الا أننا نرى أربعة أعمدة متجمعة تقوم مقام العامود الواحد السابق وطرازه

من ناحية عامة يشبه المصلى بمسجد بارسباى فى مقابر الخلفاء . وفى جامع حسن باشا طاهر (١٨٢٣) نجد المنور أمام المحراب تشغل المكان الذى كان للقباب فى المساجد ذات الأروقة ويشتمل على ثلاثة أروقة كما كان الحال فى مساجد العصور السابقة

وهناك مساجد أخرى من الصعب أن نحكم بتبعيتها لأى طراز معين فمسجد البرديني مثلا يختلف كل الاختلاف عن أى جامع آخر بنى فى عصره أو قبله

ويمكن القول أن الطرز التى أدخلها العثمانيون فى مصر يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام هى :

١ — طراز الأناضول وأصله بيزنطى ومن أمثلة هذا الطراز جامع سليمان باشا وجامع الملكة صفية

٢ — طراز القباب والأيوانات كالكنائس القديمة ولا سيما ما شيد منها فى ديار بكر فى القرن السابع . ومن أمثلة هذا الطراز جامع سنان الذى شيد حوالى عام ١٥٧١ وجامع أبى الذهب (١٧٧٣ م) وهو صورة مطابقة للجامع الأول

٣ — طراز الأستانة : وقد نقله العثمانيون من آسيا الصغرى وشيد على طرازه جامع محمد على باشا الكبير فى القلعة على يد مهندسه الرومى « يوسف بوشنا »

٤ — طراز الصحن بدون القباب . ومن أمثلته جامع المحمودية أمام باب العزب بالقلعة وجامع محمود محرم والقسم الذى أعاد تشييده الخديو عباس بجامع الأزهر

ومن المظاهر المعمارية التي تطورت على أثر دخول العثمانيين ما نشاهده فى بعض المآذن والقباب وان كنا نرى بعض المآذن التى شيدت فى عصر العثمانيين قد احتفظت بطابعها المملوكى كمأذنة جامع البرديني مثلا التى اذا نظرنا اليها حسبناها لأول وهلة من عصر قايتباى . وعلى كل حال فان المأذنة الغالبة فى العمارة المصرية فى العصر التركى هي مأذنة رفيعة ممشوقة على نسق مآذن الأستانة التى أخذها الأتراك عن السلجوقيين يحيط بمستواها الأسطوانى طنفان أو ثلاثة ويعلوها مخروط كما هو الحال فى أبراج الكنائس الأرمنية

وفى عصر الأتراك لا نشاهد تلك الأضرحة الكبيرة التى فى العصر المملوكى . فالضريح العثمانى يمتاز ببساطته ولا زالت القاهرة تحتفظ ببعض أمثلة من هذه الأضرحة . كضريح مصطفى أغا جالق فى مقبرة المماليك . ويرجع عهده إلى القرن السابع عشر وضريح عثمان بك قزدغلى بشارع الأمام الليثى (١٧٦٧)

ولا شك أن المآذن والقباب والعقود والأعمدة والطنف العثمانية غيرت فى مظاهر القاهرة من ناحيتها المعمارية وذهبت بشىء من شكلها المملوكى . كما أن الزخرفة العثمانية كانت أحيانا تميل إلى الوفرة والغزارة كما شوهدت فى أيام قايتباى السعيدة . ولا تقل الزخرفة بالقاشانى عما كانت عليه فى البلاد العثمانية نفسها وإن كانت القاهرة قد عرفت القاشانى من قبل

والمحراب العثمانى بحلياته الرخامية صورة صادقة لمحراب العصر المملوكى ونظرة إلى محراب مساجد سليمان ومحب الدين بن الطيب وسنان باشا ومحمد أبى الذهب تؤيد صحة هذا الرأى

السبيل الكتاب

ومن المبانى التى لحقها بعض التطور على أثر دخول العثمانيين البلاد المصرية « السبيل الكتاب » فقد كان هذا الى أواخر القرن الرابع عشر ملحقا بأحدى المدارس أو يشغل ركنا من أركان الجامع . ولكنا نجده فى العصر العثمانى قد أصبح بناء مستقلا . كان فى بادىء أيامه مربع الواجهة تزينه من ناحيته أو من نواحيه الثلاث النوافذ النحاسية الجميلة يستطيع أن يمد المار يده منها ليشرب ماءها الصافى من حوضها الرخامى ناصع البياض . وإذا أردت المدرسة صعدت على سلم يقودك إلى أعلا المكان فتجد نفسك فى غرفة الدراسة تتصل بشرفة واسعة متجددة الهواء أقيمت حولها الأعمدة تتوسطها قطع المشربيات الأنيقة وتحت الأعمدة توجد الكوابيل الخشبية المزخرفة

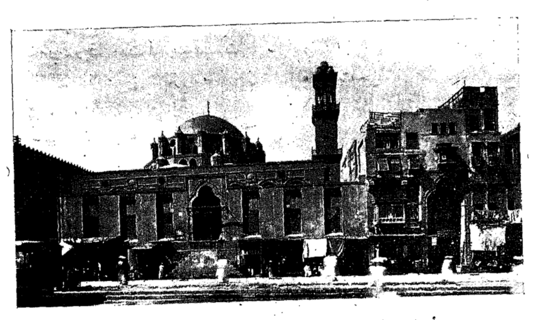
كان هذا طراز السبيل العثمانى الذى أدخل إلى القاهرة فى أول أيام حكم الأتراك وعلى نسقه شيدت أسبلة عدة أهمها سبيل خسرو باشا (١٥٣٥ م) أمام ضريح الملك صالح أيوب وسبيل القزلار (١٦١٩) وسبيل حسين كتخدا وشاهين أغا وعبد الباقى وحسن كتخدا وعريفين بك وعبد الرحمن كتخدا

وفى أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر استدارت واجهة السبيل وأصبحت تشتمل على تقويصات تعلو شبابيك السبيل . وصارت له قاعدة تلف حوله بدرجات من المرمر النفيس وعلى هذا الطراز شيد سبيل أم عباس بالقرب من جامع وخانقاه شيخو وسبيل رقية دودو أما سبيل سليمان أغا حنفى (١٩٧١) فينفرد بطابع هندسته وهو

يختلف عن بقية الأسبلة الأخرى إذ تجده ملحقا بالضريح كجزء من البناء نفسه

* * *

على أننا لا نستطيع أن نستطرد فى وصف مميزات العمارة المصرية فى عهد العثمانيين فان لهذا الموضوع كتبه الفياضة بالوصف والايضاح . ولعلنا نرى فى المستقبل القريب كتابا بالعربية يبحث فى تطور العمارة والفنون الاسلامية المصرية فى عصورها المختلفة فالقاهرة كانت فى يوم من الأيام ملتقى المعماريين والأثريين ومحط رجال الصناع ورجال الفن . وقد كان لها من أيامها المجيدة عمارة نعتز بها تمتعت بالعظمة والدلال فى أيام نعيمها ثم أصابها الفتور والهزال فى أيام شقائها . وأصبحت الآن ليس لها عمارة مستقلة تباهى بها العمارات الأخرى . فعمارتها خليط بين العمارات الايطالية والالمانية والانجليزية . ولو سار العثمانيون على وتيرة أسلافهم المماليك فى الانشاء والتعمير لكانت القاهرة اليوم تباهى بطابعها الشرقى . لكن العثمانيين كانوا مقترين فلم يعبأوا بثروتنا البنائية . ويا ليتهم تركوها وشأنها تنعى حالها بل سلطوا عليها أتباعهم وحملوا نفائسها إلى بلدانهم



مسجد محمد أبى الذهب المقابل للأزهر خاتمة مساجد المماليك فى القاهرة (١١٨٧ هـ — ١٧٧٣ م)

أعلام الآثار الاسلامية أثناء الفتح التركى فى مصر

الآثار	العام الهجرى	العام المسيحى
جامع الدشطوطى بباب الشعرية	٩٢٥	١٥١٨
زاوية الشيخ حسن الرومى بشارع المحجر	٩٢٨ – ٩٢٩	١٥٢٢
جامع سليمان باشا (سيدى ساريا) – بالقلعة هذا الجامع الأنيق يعاصر أشهر مساجد الأستانة وينفرد بظرف وبأناقة الى أبعد حد . وهو من الناحية المعمارية ذو طراز عثمانى صميم . مشيد داخل سور القلعة من ناحيتها الشمالية الشرقية	٩٣٥	١٥٢٨
جامع شاهين أغا الخلوتى بسفح جبل المقطم	٩٤٥	١٥٣٨
تكية السليمانية بالسروجية	٩٥٠	١٥٤٣
جامع المحمودية بالمنشية ـ مشيده الوالى التركى محمود باشا الذى اشتهر بشدة قسوته قتل بدسيسة لم يقبض على مرتكبيها فمات بسببها فلاحان بريئان كانا يعملان فى بستان لهما لما ارتكب الجناة فعلتهم . وقد خلف هذا الوالى أثرا يذكر له الى اليوم . هذا الأثر هو مسجده الأحمر الواقع بين مسجد الرفاعى والقلعة	٩٧٥	١٥٦٧
جامع سنان باشا ببولاق كان سنان باشا حاكما لحلب وجنديا ممتازا ولى ولاية مصر مرتين وشيد مسجده المعروف بالسنانية ببولاق . وفيه يظهر الأسلوب التركى واضحا جدا وشيد فى بولاق قيسارية وحماما	٩٧٥	١٥٦٨
جامع مسيح باشا بعرب اليسار خلف الوزير مسيح باشا الوالى سنان باشا . فعمر فى	٩٨٢ – ٩٨٦	١٥٧٤—١٥٧٨

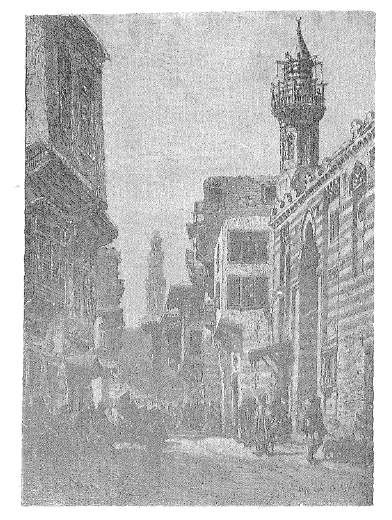
الآثار	العام الهجرى	العام المسيحى
عرب اليسار مسجده الذى كان لا يزال قائما الى وقت ليس بيعيد . وكان سبب بنائه كما ورد فى « نزهة الناظرين » أن مسيح باشا كان يعتقد فى الشيخ نور الدين أحد علماء مصر اعتقادا صحيحا واختص بصحبته فعمرله هذا الجامع ووقف عليه أوقافا جعلها بيد الشيخ نور الدين		
جامع الملكة صفية بالداودية	١٠١٩	١٦١٠
هذا المسجد طريف من ناحيته التاريخية والمعارية . فهو ينفرد من الناحية المعارية فى نواح عدة . يقوم على مرتفع تصعد اليه بدرجات مستديرة متسعة . واذا دخلت الى صحنه وجدت إيوانا مسقوفا بقباب جميلة على أعمدة ممشوقة من الحجر والرخام وفى مقصورة الصلاة منبر خشب ودكة . وفى هذا المسجد يجد الباحث الأثرى أمورا كثيرة لدراستها من الناحيتين الصناعية والزخرفية . ومنبره الرخامى يعد نموذجا للصناعة العثمانية المهذبة .		
وهذا الجامع ولو أنه أطلق عليه اسم سيدة فمنشئه هو عثمان أغا ابن عبدالله أغاة دار السعادة ثم آل بطريق شرعى لسيدته الملكة صفية . وملخص ذلك أن الملكة وكلت عن نفسها عبدالرزاق أغاة دار السعادة فى دعواها وأن عثمان أغا المذكور هو عبدها ومملوكها إلى ذلك الحين وقد أبرز فتوى من شيخ الاسلام بأن الايقاف المذكور غير شرعى وأن لسيدته ضبط جميع أملاكه كسائر أمواله فحكم القاضي الشرعى بأن الجامع والقرية التى يمتلكها عثمان أغا وأملاكه كلها ملك للملكة ونبّه وكيله برفع يده		

الآثار	العام الهجرى	العام المسيحى
عليها وكان ذلك فى أواخر شوال عام ١١٠١ هـ . فدخلت كل موقوفاته الى الملكة		
والملكة صفية هي زوجة السلطان مراد الثالث وكانت من أميرات بيت بافو (Baffo) من أعيان جمهورية البندقية وكان أبوها حاكما لكورفو .		
بيت وسبيل الجردلية : بئر الوطاويط بالصليبة	١٠٤١	١٦٣١
بيت جمال الدين الذهبي ـ حارة خوش قدم بالغورية	١٠٤٧	١٦٣٧
سبيل حسين كتخدا شارع أم الغلام	١٠٥٩	١٦٤٩
بيت رضوان بك بالخيامية	القرن الحادى عشر	السابع عشر
سبيل مصطفى سنان بسوق السلاح	١٠٨٣	١٦٧٢
جامع محمد كتخدا بالقلعة	١١٠٩	١٦٩٨
بيت أمير موسى الشوربجى ميرزا مستحفظان ببولاق	١١٢٠	١٧٠٨
سبيل كتاب بشير أغا بدرب سعادة . الحبانية	١١٣١	١٧١٩
جامع عثمان كتخدا بدرب الشمسى بالأزبكية	١١٤٧	١٧٣٤
سبيل كتاب عبدالرحمن كتخدا ـ بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
واجهة جامع عبد الرحمن كتخدا بشارع المغربلين	١١٥٧	١٧٤٤
سبيل ومستى « « بالحطابة	١١٥٧	١٧٤٤
مقبرة عبدالرحمن كتخدا بالقرب من الأزهر	١١٥٧	١٧٤٤
سبيل ابراهيم خلوصى بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
تكية وسبيل السلطان محمود بالحبانية	١١٦٤	١٧٥٠
أنشأه السلطان محمود وأبوابه كانت مطعمة بالصدف ومحراب الجامع مكون من لوح واحد من الرخام الأزرق نقشت عليه الآية الكريمة كلما دخل عليها ذكريا المحراب . . .		

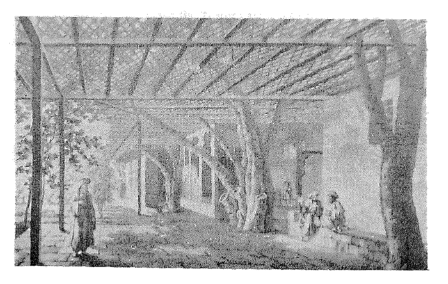
الاثار	العام الهجرى	العام المسيحى
سبيل ابراهيم بك بالداودية و بعضهم يسمونه خطأ سبيل اسماعيل بك	١١٦٧	١٧٥٣
سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب به خمسة أعمدة رخامية لطيفة نقشت عليها عدة أبيات شعرية	١١٧٣	١٧٦٠
جامع الهياتم بحارة الهياتم بالحنفى من إنشاء الأمير يوسف شوربجى وعلى بابه رخامة نقشت عليها أربعة أبيات من الشعر . وبجواره شيد سبيلا يعلوه مكتب وعلى بابه لوح رخام عليه أبيات تضمنت تاريخ سنة ١١٧٧ ﻫ وعلى باب من داخله لوح رخام نقشت عليه بيت من الشعر	١١٧٧	١٧٦٤
الجامع النفيسى بخارج خط الخليفة منشىء هذا الجامع فى الأصل الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٤ ﻫ وقد عمره الأمير عبد الرحمن كتخدا وبنى الضريح على هيئته الحاضرة فى عام ١١٧٣ ويقرأ بيتان من الشعر على باب الضريح بالذهب على الرخام وقد أمر المرحوم عباس باشا بتجديد عمارة الجامع فجددت مقصورته وبعض الأبواب	١١٧٣	١٧٦٠
جامع السيدة سكينة بخط الخليفة أنشأه الأمير عبد الرحمن كتخدا وأجرى فيه المرحوم عباس باشا الأول عمارة وله ثلاثة أبواب غير باب الميضأة ومقصورة الضريح من النحاس الأصفر المتقن الصناعة أنشأها عباس باشا . و بأعلى باب المقصورة بيتان منقوشان فى النحاس هما	١١٧٣	١٧٦٠

الآثار	العام الهجرى	العام المسيحى
مقصورة أتقنت فى صـنعتها تستوجب الشكر عند الله والناس تذيع همة منشيها مؤرخـة مع بعض طيب إحسان لعباس		
جامع محمد أبو الذهب بالأزهر	١١٨٧	١٧٧٣
وكالة « « « بالصنادقية	١١٨٧	١٧٧٣
سبيل « « « شارع التبليطة	١١٨٨	١٧٧٤
قصر المسافرخانة — بقصر الشوق بالجمالية بين درب المسمط ودرب الطبلاوى . شيده الحاج محمود بن محرم كبير تجار القاهرة عام ١١٩٣ هـ وأتحفه بالزخارف الجميلة وأنشأ به قاعة عظيمة (القاعة الكبرى القبلية الشرقية) وأقام حولها بستانا بديع المثال وللقصر ثلاثة أبواب . وأهم قاعات القصر تلك التى ولد فيها ساكن الجنان المغفور له اسماعيل باشا . ويستعيد زائرها ذكرى ذلك العهد المجيد	١١٩٣	١٧٧٩
جامع أحمد البرديني بالداودية	١٢٠٥	١٧٩٠
محراب جامع محمود محرم . برحبة باب العيد بالجمالية أنشىء هذا الجامع عام ٩٤٦ هـ وجدّده الحاج محمود محرم سنة ١٠٢٧	١٢٠٧	١٧٩٢
بيت محمد العقبى	١٢١١	١٧٩٦
جامع حسن باشا طاهر ببركة الفيل أنشأ هذا المسجد الأمير حسن باشا طاهر والأمير عابدين بك وانتهى من بنائه عام ١٢٢٤ وفيه منبر عظيم ودكة وصحن مسقوف بعض أجزائه		

الآثار	العام الهجرى	العام المسيحى
سبيل أم حسين بك بشارع جامع البنات أنشأته المرحومة والدة حسين بك نجل محمد على باشا وكان فى غاية الحسن أرضه مفروشة بالرخام وواجهته من الرخام أيضا وعلى بابه هذه الأبيات : لأم حسين شهرة بمحاسن من الخير ذكراها تدوم مدى الدهر لقد أنفقت فيها احتسابا وأخلفت فيارب نولها الكثير من البر على باب خير جاء تاريخه سنا بها حسنات أجرها سرمدا يرى	١٢٧٠	١٨٥٥
سبيل أم عباس بشارع الصليبة عند مفارق الطرق بين الخليفة وطولون والركبية أنشأته المرحومة والدة المرحوم عباس باشا فى سنة ١٢٨٤ هـ. وهو لا يزال على حسنه وجمال ذوقه وأرضه مفروشة بالرخام وسقفه منقوشة بالأصباغ الذهبية وشبابيكه من النحاس الأصفر ومكتوب بدائره بالذهب بعض الآيات القرآنية	١٢٨٤	١٨٦٧
سبيل الشيخ صالح تجاه مسجد الشيخ صالح فى الشارع المسمى بهذا الاسم أنشأه الخديو اسماعيل سنة ١٢٧٤ وهو فى غاية الحسن والسعة واجهته من الرخام له شبابيك نحاسية جميلة نقشت فوقها آيات قرآنية بماء الذهب	١٢٧٤	



شارع من شوارع القاهرة العثمانية «بريشة المصور الألمانى برنارد فيدلر»

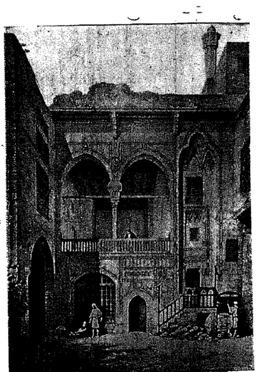


منظر لحديقة قصر مراد بك بالجيزة «عن كتاب وصف مصر»

قاهرة نابليون بونابرت

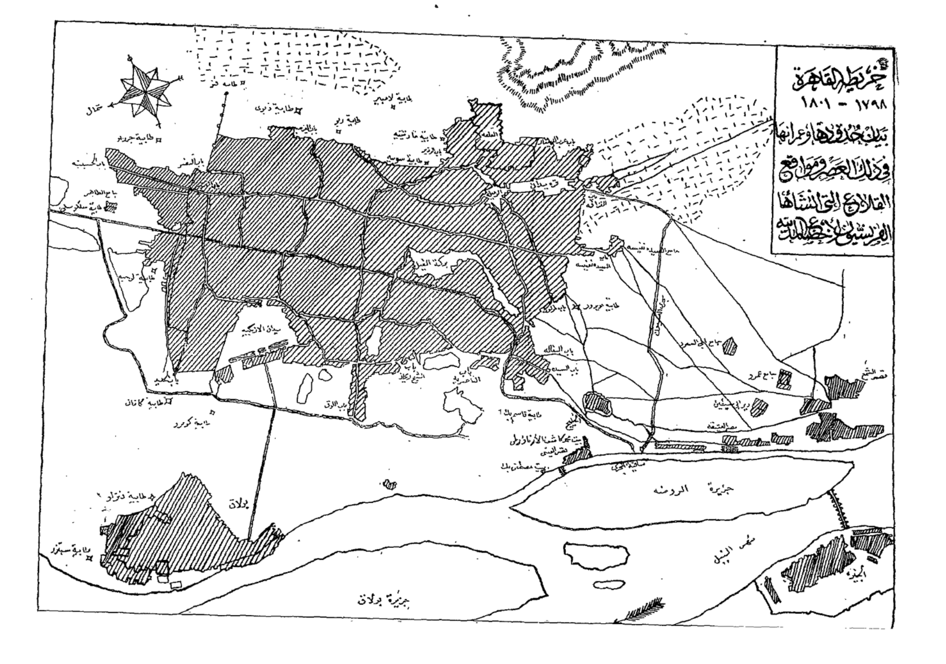
« إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق هذه الأهرام »

قاهرة الرحالة — الشئون الصحية — نابليون فى القاهرة — قصر محمد بك الألفى — نابليون يتقرب الى القاهريين — القاهرة بين الاصلاح والتخريب — ثورة القاهرة الأولى — القاهرة والاعتبارات العسكرية — تحصين جزيرة الروضة — القاهرة بين الاصلاح والتحصين — نابليون يودع القاهرة — ثورة القاهرة الثانية — عودة كليبر — كليبر والحلبي — الانتقام من عروس الشرق — خاتمة الفرنسيين — قاهرة المجمع المصرى



بيت الشيخ الامير « عن بريس دافن »

نحن نريد الآن أن نعرض صورة للقاهرة حين قدم الى مصرنا بليون بونابرت على رأس جيش الشرق . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين الحسينية وباب الحديد وجنوبا بين القلعة الى باب عرب اليسار الى باب السيدة عائشة الى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقا من القلعة فباب الوزير فالغريب فباب الحسينية . وغربا من باب الحديد الى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطىء النيل و بينها و بينه مزارع . وكانت بولاق تعد من ضواحى العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليست بها إلا مزارع وحدائق . وقامت على شاطىء النيل بعض مبان قديمة كقصر ابراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناءوطي وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج مبانى القاهرة


خريطة القاهرة
١٧٩٨ - ١٨٠١
بيان حدودها وعمرانها
في ذلك العصر ومواقع
القلاع التي انشأها
الفرنسيون لإخضاع المدينة
شمال
القلعة
بركة الفيل
ميدان الازبكية
بولاق
جزيرة الروضة
بحر النيل
جزيرة بولاق
الجيزة
مصر العتيقة
جامع عمرو
قصر الشمع
باب الحسينية
باب النصر
باب اللوق

واتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا الى مصر فى تلك الآونة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية الى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر متراً . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين هي : ميدان قره ميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية ويسمى بركة الازبكية

وقدّر العلماء الفرنسيون مساحات المناطق المسكونة فى القاهرة و بولاق ومصر القديمة بثمانمائة هكتار أى أقل من ربع باريز فى القرن الثامن عشر - و بوصول الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة وصعبت طرق مواصلاتها وطغت مؤامرات الاستبداد وأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وفقدت القاهرة حيويتها . وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والخنفى والموسكى والسيدة زينب مقراً للبؤس البشع مما أثر على قلوب الرحالين « تيفنو » و« سونينى » و« فولنى » وأما من الناحية الفنية فان عصر الازدهار الذى نعمت به فى عهد السلاطين المماليك كان قد ولى وعفى أثره . ولم يكن الفن قد اندثر تماما إنما كانت لاتزال بقاياه موجودة في تلك المبانى التى خلفها بعض الأتراك كسبيل خسرو باشا و بيت جمال الدين و بعض المساجد التى تدل على ذوق فنى

أما قاهرة المقريزى وكانت عروس الشرق - تلك التى وصفها فى خططه الخالدة بما احتوت عليه من رحاب ومتنزهات وقصور للخلفاء والأمراء وغيرها من المناظر والمدارس والمساجد ودور الكتب فقد انقضى عهدها .. ولم يبق منها إلا القليل المخرب . ومع ذلك فقد احتفظت القاهرة بصورتها الشرقية الجميلة لما فيها من وكالات وحمامات وأسبلة ومساجد و بعض العمائر الجميلة .

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الازبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفى أيام الفيضان تمتلىء بمياه النيل فتصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق فى النهار والمساء والليل . وتوقد المصابيح من البيوت المطلة عليها فيكون منظر البركة من أبهج المناظر ولا سيما فى الليالى القمرية

ووصف كثير من الرحالين الفرنسيين مدينة القاهرة . وكانت تقيم فيها جماعات التجار الفرنسيين قبل استيلاء جيش بونابرت فى السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٧٩٨ .

وكانت المدينة فى حالة لا توصف من الاهمال وعدم العناية بالامور الصحية . وقد كتب الجنرال « ديبوى » أحد قواد نابليون وكان قد عين حاكما للقاهرة الى صديق له يقول « المدينة بغيضة جدا فقذارة شوارعها لا تحتمل ورائحتها كريهة وأهلها يبطشون . وأكاد للآن لا أعرف المدينة التى تسكن باريز حجما انما تختلف عنها من جميع الوجوه »

الشئون الصحية

ولقد دفع هذا البؤس رجال الحملة الفرنسية إلى العمل على تخليص القاهرة من طاعون يكتسحها . فأمر نابليون بانشاء محاجر صحيـة بجزيرة بولاق . كما أمر باقامة مستشفى عسكرى فى قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل عنه ونقله إلى قصر ابراهيم بك تجاه الروضة . وأنشأ لجنة لادارة الشئون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق فوضعت اللوائح لنظافة المدينة . ونادت بأضاءة قناديل بالطرق والأسواق وأن يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يديم الأهالى الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفونات والقاذورات ونبة على الأهالى بمنع دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكيـة والرويعى وأن يدفنوا موتاهم بالمقابر البعيدة . وفى حالة الدفن يجب العناية بالحفر . ونادت أيضا بنشر الثياب والأمتعة بالأسطح عدة أيام وتبخير المنازل بالمطهرات اجتنابا لحدوث طاعون

نابليون فى القاهرة

بعد أن انتصر نابليون على المماليك فى معركة إمبابه سار فى طليعة جنوده إلى الجيزة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له وقد استولى على مصنع ذخيرته الذى أنشأه بالجيزة . وفى مساء اليوم احتلت قوة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة . وفى مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديبوى » القاهرة على رأس قوة من الجند فلم يلق بها مقاومة وعسكر ليلا فى بيت ابراهيم بك . فكانت هذه القوة طليعة الجيش المحتل . وفى اليوم التالى (٢٣ يوليو ١٧٩٨) تبعتها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها وأصبحت العاصمة المصرية فى قبضة امبراطور فرنسا .

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فمكث فيها حتى رحل إلى سوريا فى اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٧ . وفى تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى فى أثناء مطاردته لابراهيم بك والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وجعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة فى قصر محمد بك الألفى

قصر محمد بك الألفى

كان هذا القصر بخط الساكت الذى لم يكد يتم تشييده وتأثيثه حتي فوجئت مصر بحملة نابليون فكأن الألفى قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من المبانى الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدائق الغناء . وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ فى بادىء الأمر أن يعدل كثيرا فى بناء هذا القصر لكى يصير مطابقا لحاجته . لكنه طلب أخيرا فى فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللى » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لايتجاوز نفقات اقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على صالون فاخر جدا أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا اليها مائة وخمسين مدعوا . وفى نهاية هذا الصالون البديع كان يوجد الديوان المستطيل . وكانت جدرانه عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية . لكن زينت تلك الجدران فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التى أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون فكنت ترى صور مشاهير المشايخ يعمل على اخراجها « دوترتر » (Dutertre) و(ريجو Rigo) وغيرهم من مشاهير الفنيين الذين صحبوا الحملة

وفى بدء الأحتلال تغالى الفرنسيون فى تعديهم على الممتلكات ومن فيها من القاطنين الهادئين وذكر الجبرتى الكثير من ذلك . فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرية ونهب الغوغاء قصرى الأميرين ابراهيم بك ومراد بك بخط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ومن ذلك أيضا أن جماعة من الجنود الفرنسيين بصحبة مترجم ومهندس قصدوا بيت رضوان كاشف بباب الشعرية فانزعجت زوجته لمباغتتهم لها وكانت قد دفعت من قبل للخزينة العسكرية ألف وثلاثمائة ريال واصقت الأيصال على باب دارها لتبعد المطالبين عنها ولتطمئن على حياتها . فلما حضر اليها الجند لتفتيش بيتها صدتهم قائلة أن ليس عندها أسلحة أوملابس للماليك . فلما لم يقتنعوا بقولها صعدوا الى الدور العلوى وفتحوا مخبأة وجدوا فيها أنواع الأسلحة والذخيرة والملابس كما عثروا على دراهم كثيرة مخبأة فأخذوا كل ماوجدوه وقبضوا على السيدة وجواريها فأقمن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ماوجدوه بالدار من أثاث ورياش وقرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى فدفعتها السيدة وأطلقوها فرجعت إلى دارها

ووزع نابليون قصور أمراء المماليك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه فسكن الجنرال « ديبوى » قصر ابراهيم بك فى بركة الفيل . وقد كتب فى خطاب أرسله لوالديه يقول :

« أسكن فى أجمل قصور القاهرة » . . .

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديترى » فى بادىء الأمر بيتا يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان . . . له ردهات رحبة وليوانات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع وسلالم عريضة وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى « برتوليه » وكان يلى العالم « لا فوازيه » فى شهرته بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين . أما « جور » واثنان من مترجمى الحملة فكان نصيبهم أحد قصور مراد بك الفخمة واستولت بعض فرق المشاة على بعض البيوت المطلة على الأزبكية وحولتها الى ثكنات كما تقتضى الحاجات العسكرية . أما الخيالة فاحتلت أحدى وكالات الأرز فى بولاق

وبعد أن انهزم الفرنسيون فى معركة أبى قير أمروا بأقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم اليها كما هدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد لتحصين القاهرة كما سنرى

قال الجبرتى فى هذا الصدد : وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول الى المدينة للسكن فيها واصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها ابنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا ابنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وغيّروا معالم القلعة وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء . وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحرب الهندية وهدموا قصر صلاح الدين ومحاسن الملوك . . الخ »

نابليون يتقرب إلى القاهريين

وسارت جنبا الى جنب مع سياسة الحزم والشدة التى اتبعها نابليون مع المصريين سياسة أخرى هى التقرب اليهم عن طريق احترام تقاليدهم والاشتراك فى أعيادهم فأمر مثلا بالاحتفال بوفاء النيل . وقام نابليون ورؤساء الجيوش الذين معه وكيخيا القاهرة والباشا وجميع أعضاء ديوان مصر والقاضى وأغوات الانكشارية فى الساعة السادسة

من صباح يوم ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ وتوجهوا إلى المقياس وقد اجتمع هناك فوق التلال المجاورة ألوف الناس كما وقفت جماهير غفيرة على شاطىء النيل والخليج وركبوا السفن وهى مزينة بأجمل الزينات . وكانت الجنود مصطفة بنظام وحين وصل الموكب الى المقياس ضربت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية والافرنجية والآلات العربية بالألحان اللطيفة وابتدأ العمل فى قطع الجسر حتى فتحوه . فاندفع ماء النيل بقوة وبشدة ونثر نابليون على الناس النقود الصغيرة وقطعا من الذهب على أول سفينة دخلت من الخليج وأنعم بجملة إنعامات على بعض الكبراء ثم عاد الى بيته بالأزبكية

ودام الاحتفال بوفاء النيل سنويا اثناء الأعوام الثلاث التى أقامها الفرنسيون فى البلاد

وكان يوم ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨ يوم ذكرى ميلاد النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وانتهز بونابرت هذه الفرصة لتوطيد سلطته على أساس احترام تقاليد الأمة المصرية . فأصدر أوامره بأن يحتفل بهذا العيد فى القاهرة فى مظهر أبهى وأفخم مما كان لمهرجان وفاء النيل ليكتسب ثقة زعماء الشعب ويتودد اليهم . ولكى يبلغ مراده عنى العناية كلها بأن يكون الاحتفال جامعا بين الأبهة الأوربية والعظمة الشرقية فأمر بتوزيع الأموال والعطايا على الأسر الفقيرة وان يسير فى الاحتفال (رجال الأشاير) وطوائف الأذكار وأرباب الطرق الصوفية وجوقات الموسيقى وكوكبات الجند وأن تقام الزينات وتطلق الألعاب النارية والسواريخ وان تعد الموائد الفخمة وعليها ما لذ وطاب من صنوف الاطعمة

بعد ذلك طلع نابليون على الناس فى بذلة فخمة على الطراز الشرقى (جبة وقفطان) وعلى رأسه العمامة وفى قدميه البابوج وتوجه على هذه الصورة مع الضباط الكبار وأركان حربه إلى الجامع الكبير وكان فيه لفيف من المشايخ فأخذ مجلسه بينهم على وسائد صغيرة طرحت على الأرض ويداه مرسلتان إلى صدره مثلهم واستمع معهم تلاوة القصة النبوية وكان نابليون فى اثناء تلاوتها يهتز كما يهتزون ويميل برأسه كما يميلون . فدهش الحاضرون فى الجامع بما بدا عليه من الخشوع ! وانصرف نابليون مع الذين كانوا معه من الضباط على مرأى من الجماهير المحتشدة قاصدين بيت السيد خليل البكرى لتقديم مراسيم التبريك والتهانى . فذهب اليه وعلى رأسه الأعلام النبوية ومن حوله جموع الشعب مهللين منشدين الأناشيد القومية ثم جلس بجوار المنشدين وهو يشاركهم فى التلاوة والنغمات وأظهر أناة وصبرا فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها ثم مدت موائد الطعام وكان عددها

يربو على عشرين مائدة رتبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير . وكانوا يجلسون على وسائد وحول كل مائدة خمسة أو ستة أشخاص وجلس نابليون بجوار السيد البكرى إلى إحدى هذه الموائد وتفرق كبار القواد حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم واشتركت الفرقة الموسيقية العسكرية الفرنسية فى الاحتفال . وأطلق الفرنسيون الألعاب النارية فى الجو فكانت حفلة شائقة بلغت منتهى العظمة والجلال

القاهرة بين الأصلاح والتخريب

ثورتان داميتان فى اثناء الاحتلال الفرنسى : الثورة الأولى قبل سفر نابليون إلى سوريا والثورة الثانية فى اثناء تولية كليبر . وكانت كل ثورة بدورها تقضى على عدة أحياء . فلما اشتعلت الثورة الأولى بحى الأزهر قضى الفرنسيون على أهم أجزائه وهرب معظم ساكنيه ولما نشبت الثانية فى بولاق تخربت عدة نواح كاملة اشتملت على عدد كبير من البيوت المطلة على ضفة النيل كما هدم الجانب الشرقى المطل على حديقة الأزبكية وبعض جهات بركة الرطلى

وقد يعزى هذا التخريب إلى ثورة الأهالى أنفسهم بدافع شعورهم القومي ضد المحتلين الذين سطوا على البلاد . وعلى كل حال فانا نجد القاهرة أصبحت بعد سقوطها فريسة فى أيدى الفرنسيين وألعوبة فى أيدى المهندسين العسكريين الذين وكل اليهم نابليون أمر تنظيمها ليكون مع رجاله فى مأمن من انقلابات القاهريين

قضت الضرورة العسكرية بأزالة عدد كبير من المبانى وشق الشوارع الواسعة والميادين كما تم فى ميدان الرميلة ومصر العتيقة والجيزة وشبرا . وذلك لتنظيم مخازن المؤن وتوفير الثكنات للجند وتسهيل المواصلات بين انحاء العاصمة وضواحيها . وكانت تلك الأعمال العمرانية الفجائية تشعر العامة بأنهم يفقدون مخلفات أجدادهم العزيزة . ويظهر ان القاهرة كان قد كتب لها أن ترى المصائب تتوالى عليها فلم تنج من مصائب الاحتلال العثمانى حتى وقعت تحت نيران الفرنسيين ولم تكد تتخلص من تلك النكبة حتى وصل اليها العثمانيون والانجليز عام ١٨٠١ م فاختل الأمن مرة أخرى وعاد الاضطراب وعمت الاعتداءات وانتشر قطاع الطرق من اللصوص والبدو على جانبي طريق بولاق فلم يأمن المارة على أرواحهم وتعطلت قوافل التجارة الداخلية وهجر أهل الريف قراهم هربا من مظالم حكامهم وفضلوا الالتجاء الى العاصمة حتى اذا عين محمد على باشا واليا استطاع تهدئة الحال وقضى على صلف المماليك كما تخلص من زعمائهم الماكرين

كانت القاهرة حتى عام ١٨٢٠ مسرحا داميا للمعارك والفوضى والهياج . فهنا فضيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها . وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من مماليك بعض البكوات الذين ينتقمون لأمير آخر . وفى ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تزحف بنشاط فتلتقى بضحاياها المساكين فى الطرقات وعلى أسطح البيوت والاطلال وتبعثر جثث الموتى فى كل مكان

وشاهد سائحو تلك الآونة ومنهم « كلارك » « وهنيكر » « وويتمان » تلك المصائب التى فتتت الأكباد أمام أعينهم ودونوا مشاهداتهم فى كتب رحلاتهم . وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواما تعيسة من الانقاض واتخذها الفقراء ملاجىء اقاموا بين انقاضها بعد ان كانت قصورا للعظمة والجاه . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة . فصدق على القاهرة ماقاله عنها الرحالة على العباسى :

« سادها الخراب واتخذتها اللصوص وقطاع الطرق أوكاراً للغنائم والمنهوبات »

ثورة القاهرة الأولى

تهيأت أسباب ثورة القاهرة الأولى باعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية والحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عليه رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة فى السادس من سبتمبر ١٧٩٨ يضاف إلى هذا تفنن الفرنسيين فى ابتزاز الاموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل فمن ذلك أنهم لم يكونوا يأذنوا لنساء المماليك بالبقاء فى بيوتهن الا بعد دفع ضريبة كبيرة وبلغ مجموع مافرضه الفرنسيون على السيدة نفيسة زوجة مراد بك عن نفسها وعن نساء المماليك اتباع زوجها ستمائة ألف فرنك فاضطرت فى سبيل دفع هذه الغرامة الفادحة ان تتنازل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان قد أهداها لها القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديرا لخدماتها . فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجا شريفا منها أما الضرائب التى فرضها نابليون على التجار المصريين لا سيما تجار القاهرة فكانت ثقيلة جدا اذ كان على تجار المنسوجات بالقاهرة ان يدفعوا ستين ألف ريال نقدا وأربعين ألف ريال (ملابس وأحذية) للجنود . وعلى تجار البن والبهارات مائتى ألف ريال وعلى الأقباط الذين يحصلون ضرائب الأقاليم مائة ألف ريال وهكذا مما كانت لاتحتمله الأحوال الاقتصادية فى تلك الأيام

وأحرج الفرنسيون صدور القاهريين باخراج الكثيرين من أصحاب البيوت من مساكنهم بحجة حاجتهم اليها وهدمهم الكثير من المبانى والآثار والمساجد لتحصين القاهرة

فلم يكن عجيبا ان اختلطت الدعوة الى الثورة علنا بآذان المؤذنين الذين دعوا الى الله والى الثورة على مآذن المساجد صباح مساء . فبلغ هياج النفوس أشده وكان الشعب فى انتظار حادثة واحدة لينفرج بركان هياجه . وتألفت فى الأزهر لجنة لتدير الثورة وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها

***

فى اليوم الواحد والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت القاهرة فى حالة لم يألفها شعبها من قبل . الخطباء فى كل مكان يشعلون نار الحماسة فى قلوب الأهالى . الأسلحة تظهر فى أيدى العامة فى الطرقات والميادين . الفلاحون وأهل الضواحى يقبلون الى القاهرة للاشتراك فى الثورة وعلت صيحات السخط تنصب على الفرنسيين وأقام الثائرون المتاريس والموانع على منافذ الطرقات المؤدية اليها فأصبح من المستحيل أن تقتحمها المشاة قبل أن تقوم المدفعية بأعمالها الابتدائية المخربة

على أن الجنرال ديبوى (Dupuy) حاكم القاهرة العسكرى لم يقدر فى بادىء الأمر خطورة الحالة حق قدرها . فاكتفى بارسال بعض داوريات من الجند لكنه لم يلبث أن وقف على جالية الأمر . فعزم على مواجهة الثورة بنفسه وخرج مع ياوره ومترجمه ليتعرّف أسباب الهياج . وأصدر أوامره الى الجنود المرابطة ببركة الفيل بأن تتأهب للقتال . ومضى فى كتيبة من الفرسان من بيته ببركة الفيل قاصداً مركز الهياج . فقصد الموسكى واتجه الى شارع الغورية وأراد الذهاب الى بيت القاضى . لكن الشوارع ازدحمت بالجموع فكان يتنقل بصعوبة وابتدأت تتساقط الأحجار عليه من النوافذ . وبينما كان فى طريقه الى الأزهر جاء الى نجدته أحد الأروام المتطوعين (برطولومى الرومى) فى شرذمة من رجاله وأطلق الرصاص على الجموع فكانت تلك الرصاصة كافية لتشعل حمية الثائرين . فانهالوا على الفرنسيين ضربا بالعصى ورجما بالأحجار وطعنا بالرماح فجرح ديبوى وياوره وقتل بعض أفراد كتيبته

أدرك القائد العام خطورة الموقف وأغضبه انتصار الثائرين على عدد كبير من الجند وهجومهم بعد ذلك على مقر فرقة المهندسين العسكريين ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر .

فأمر الجنرال « دومرتان » قائد المدفعية أن يركب المدافع على أكمات المقطم الى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى اطلاق قنابلها على الجامع الأزهر. وأمر نابليون بتعيين الجنرال « بون » قائد القاهرة خلفا للجنرال « ديبوى » كما أمر بوضع المدافع على منافذ الشوارع المهمة

وفى اليوم الثانى والعشرين بينما كان الثائرون مجتمعين فى الأزهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم فانفجرت فى المسجد وكانت هذه القنبلة نذيرا بابتداء ضرب المدينة بالمدافع وأخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له وأوشك الجامع ان يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت انقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب. ومات تحت انقاضه آلاف من السكان الآمنين وكانت الجهات القريبة من الأزهر كشوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة

وأخيرا تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة شعب أعزل لاسلاح معه واستهدف سكان القاهرة بعد أخماد الثورة لاشد ضروب الانتقام. وبلغ عدد الضحايا من المصريين بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيلا منهم مجموعة من العلماء العسكريين

ووصف الجبرتى مأساة الأزهر فقال « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيل وبينهم المشاة وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ماوجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه (لتفتيشه) »

لم تقف مظالم الفرنسيين عند ذلك الحد فقد كانت التعليمات التى أصدرها الجنرال « برتييه » (Berthier) رئيس أركان الحرب تأمر بالصرامة والقسوة ومن أوامره إلى الجنرال « بون » بتاريخ ٢٣ اكتوبر :

« يهدم الجامع الأكبر ليلا اذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع »

من ذلك نجد أن أعمال الفرنسيين جاوزت الغرض من اخماد الثورة الى الانتقام

والأرهاب . واعترف المؤلفون الفرنسيون بأن اعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سرا فى القلعة من غير محاكمة . وأمر نابليون الجنرال « برتييه » أن يصدر تعليماته « بقطع رءوس جميع الأسرى الذين أخذوا ومعهم أسلحة وترسل جثثهم إلى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القـديمة وأغراقها » وكان من بين القتلى كثير من النساء ! وأعـدم ستة علماء من مشايخ الأزهر ولم تنفع فيهم شفاعة أحد . جىء بهم فى صباح يوم ٤ نوفمبر إلى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود وتلى عليهم حكم الاعدام رميا بالرصاص . وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برطولومى الرومى » ثم ألقوا بجثثهم خلف سور القلعة !

وكان من نتائج الثورة أن أبطل نابليون اجتماع الديوان عقابا لسكان القاهرة وعنى بتحصين المدينة كما سنرى . . .

القاهرة والاعتبارات العسكرية

اعترف نابليون فى مذكراته التى أملاها على الجنرال « برتران » فى سنت هيلانه أن ترميم القلعة استوجب هـدم كثير من البيوت القريبة منها . وقد ساور سكان القاهرة قلق شديد عند ما رأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم . ولما كانت شـوارع القاهرة واحياؤها مفصولة بعـدد كبير من الأبواب الكبيرة رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود فى أحوال الفتنة والثورات فأمر بهدمها وبدىء بهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابى الفتوح والنصر . وخرب مسجد الجنبلاطية المجاورة للباب المذكور . ورمم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا فى تحصين أبراجه كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعاقل فى أهم طرقات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدموا مسجد المقسى والكزرونى بالروضة وآخر بامبابة وجامعا كان مجاورا لقنطرة الدكة فضـلا عن سلسلة القلاع التى أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التى أقيمت على رابية قرب القلعة للاشراف على حى الأزهر وقد عرفت باسم قلعة الغريب . وطابية « سلكوفسكى » التى أنشأوها فى جامع الظاهر واتخذوا مأذنته مرصدا للاسـتكشاف . وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابيـة « مويرور » فى حى طولون وطابية الناصرية فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمى وعرفت باسم طابيـة قاسم بك . وقد بلغ عدد القلاع التى انشأها الفرنسيون فى خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة ذكرها المسيو «جومار »

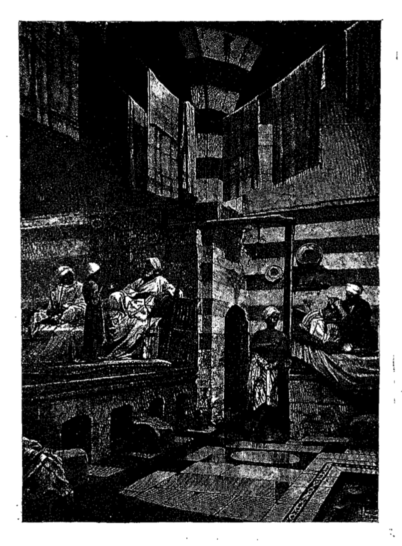
تحصين جزيرة الروضة

وحصّن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية فى كل طرف من طرفيها وجعل من المقياس شبه قلعة . وحصّن شاطىء النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية وجعل فم المجراة طابية حصينة سميت طابية المجراة (أو السبع السواقى) وجعل قصر ابراهيم بك (قصر العينى) مستشفى عسكريا حصينا يسع ألف مريض وجريح وألحق به البيت الذى كان بجواره وقد عرف وقتئذ ببيت محمد كاشف الأرناءوطى وجعله مخزنا ومصنعاً لفرقة الهندسة

القاهرة بين الأصلاح والتحصين

ولما بدأ الحال يهدأ أخذ بونابارت فى تنفيذ برنامجه الأصلاحى فى مدينة القاهرة . فانتهز فرصة الهدوء التى خيَّمت على المدينة وأمر فردمت بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المقابلة لمسكنه فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وماخلفها من الحدائق فقطعوا أشجارها واستقرت انقاضها فصارت طريقا معبداً الى قنطرة المغربى التى جددها الفرنسيون . وكانت قد آلت إلى السقوط و بنوا جسراً ممتدا من الأزبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى قسمين : قسم إلى طريق أبى العلا وقسم إلى جهة التبانة وساحل النيل وحفروا إلى جانبي ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجارا وسيسبانا كما أحدثوا طريقا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب . وقطعوا جانبا كبيراً من التل المجاور لقنطرة الحاجب وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وهدموا الأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس ومهّدوا الأرض بينهما . فعلوا ذلك كله ولم يسخروا أحداً بل كانوا يدفعون للعمال أجورهم « و بنوا أماكن للأرصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير فى حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا مافيه من بيوت الأمراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها كل من رغب فى أوقات معينة من النهار وكان اذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به » ومن الشوارع التى جاءها الأصلاح على أيدى الفرنسيين شارع الفجالة الذى كان يعسر السير فيه وقد أصبح ممتدا من باب

الحديد إلى باب العدوى ومهّدوا طريقا مستقيما غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلي بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متراً يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه الى بولاق رأسا وتتفرع بقرب بولاق الى فرعين الأول الى طريق أبى العلا والثانى إلى التبانة وساحل النيل



حمام قاهرى من الداخل

وذكر الجبرتى بين حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٣ هـ أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليه قدرا من النقود يدفعه أو يكون مأذونا و بيده ورقة وقد سمّاه الفرنسيون « كازينو تيفولى »

وأقام الفرنسيون مسرحا لتمثيل الروايات تم انشاؤه فى عهد الجنرال « مينو » وهو

الذى سماه الجبرتى « كرى » والمقصود « كوميدى » وقد وصفه بقوله «وفى شعبان سنة ١٢١٥ كمل المكان الذى انشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهوالمسمى بلغتهم بالكمرى (!) وهو محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلى والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد اليه الابورقة معلومة وهيئة مخصوصة (!)

وكان من أهم أعمال الفرنسيين فى القاهرة أنهم أقاموا جسرا من السفن يصل بين القصر العينى والروضة وجسرا آخر كبيرا من الروضة الى الجيزة وقد أعجبوا بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون فى جعلها مقرا للجالية الفرنسية وان ينشىء فيها مدينة فرنسية ولكن مشروعه لم ينفذ وكذلك وضع الجنرال « مينو » تخطيطا لمدينة ينشئها بها لكن لم تنفذ فكرته أيضا

نابليون يودع القاهرة

انتهت حملة بونابرت الى سوريا بالفشل أمام عكاء فعاد الى البلاد المصرية وفى يوم الجمعة ١٤ يونيو عام ١٧٩٩ أعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقلية وغيرهم . وقرعت الطبول فى نواحى المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفى الحكومة والأعيان الى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة . ثم انتقلوا جميعا لاستقبال نابليون خارج المدينة وللاشتراك فى موكبه العظيم . فقابلهم نابليون وأهداه الشيخ خليل البكرى جوادا مطهما يقوده المملوك رستم الذى اصطفاه نابليون واستصحبه فى رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين . وأهداه المعلم جرجس الجوهرى هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان . ودخل نابليون القاهرة من باب النصر مخترقا شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول وروى « الجبرتى » ان الموكب أستمر خمس ساعات متوالية يسير فى شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى الأزبكية

ولم تكد تستريح الجند من أهوال الحرب الشامية حتى جاءت انباء حملة عثمانية لأخراج الفرنسيين من مصر . فأمر نابليون بأعداد حملة تسير الى الاسكندرية وكان الأتراك قد احتلوا قلعة أبى قير (١٧ يوليو ١٧٩٩) واستطاع الفرنسيون ان يدحروا القوات العثمانية فحاصروهم فى القلعة المذكورة حتى انتهت ذخائرهم واحتلوها فى اليوم الثانى

من أغسطس وقد اعتبر الفرنسيون معركة أبى قير البرية فوزا كبيرا ابتهج له فأقاموا الحفلات فى القاهرة ثلاثة أيام . ثم عاد نابليون الى القاهرة فى يوم ١١ أغسطس ١٧٩٩ ونزل بدار الألفى بك بالأزبكية وكان فى ركابه جماعة من أسرى الجيش التركى فأمر باستعراضهم فى ميدان الأزبكية ثم ساروا بهم فى شوارع القاهرة للتأثير فى نفسية الجماهير واقناعهم بفوزهم فى معركة أبى قير

ولم يلبث نابليون الا قليلا حتى وردت له من فرنسا رسائل تلح فى عودته اليها نظرا لاضطراب الأحوال السياسية فى أوربا . فنظم الحامية الفرنسية فى البلاد المصرية وأسرع الى مغادرة القاهرة نهائيا فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ بتكتم شديد بعد ان ترك مكانه فى مصر الجنرال كليبر

العثمانيون يعودون للقاهرة

حاولت حملة عثمانية اخرى اخراج الفرنسيين من مصر فهاجمتها من شواطئها الشمالية بأسطول كبير . لكن يقظة الفرنسيين لم تتح لهم سوى الهزيمة فى معركة عزبة البرج بالقرب من دمياط . وكان ذلك فى أول نوفمبر ١٧٩٩ وبالرغم عن استعداد كليبر الحربى وتفوقه على الأتراك كان مقتنعا بضرورة الصلح وبوجوب انهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تستعد لها بأرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا . وعقدت معاهدة العريش وأهم نصوصها جلاء الفرنسيين عن مصر . إنما نقض الأنجليز حلفاء الأتراك تلك المعاهدة بالرغم عن استعداد كليبر للجلاء النهائى وبعد ان وصل مندوب من الحكومة العثمانية لتولى إدارة البلاد

رأى كليبر ان نقض الأنجليز لمعاهدة العريش بالرغم من اشتراكهم فى مفاوضتها انذار للحرب فأخذ يستعد لقتال الجيش العثمانى . وكانت معظم قواته قد اصطفت للمعركة فى سهول القبة فطلب الى الصدر الأعظم الانسحاب الى الحدود الشامية فلما لم يفعل ابتدأ تحركه فى صبيحة يوم ٢٠ مارس قاصدا مواقع جيش ناصيف باشا فى المطرية

استطاعت قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته الانفصال عنه واتجهت الى القاهرة بقيادة نصوح باشا فدخلتها فى الوقت الذى كانت نيران المعركة مستمرة فى المطرية وعين شمس

علم كليبر بدخول هذه القوة القاهرة فكلف أحد قواده بتتبعها خوفا من ان تقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى

انتصر كليبر على الاتراك بسهولة وتقهقر الجيش العثمانى شمالا بدون انتظام بعد ان تكبد خسائر جسيمة . وتمكن ناصيف باشا من الأنسحاب من ميدان القتال مع بعض قواته بعد القوات العثمانية التى قصدت اليها بقيادة نصوح باشا يصحبه عثمان بك كتخدا الدولة وجماعة من كبار رجال المماليك

ولاشك فى أن عودة العثمانين الى القاهرة فى مثل تلك الظروف شجّعت روح الثورة فى نفوس الشعب . وبدأ التحريض الى قتال الفرنسيين يتجدد فى مختلف البلاد لاسيما القاهرة . وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافرا من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة أعظم من ثورتها الأولى

ثورة القاهرة الثانية*

[٢٠ مارس – ٢١ أبريل ١٨٠٠]

شبت نيران الثورة فى القاهرة يوم ٢٠ مارس بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى

فلم يكد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع فى ميدان معركة عين شمس حتى بدأت الثورة فى حى بولاق فأقام أهلها حول الحى الموانع والمتاريس واقتحموا مخازن الغلال والودائع التى للفرنسيين وكان يتزعم ثورة بولاق الحاج مصطفى البشتيلى . حمل الثوار ماوصلت اليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لاقتحامها ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم فأرسل الجنرال « فردييه » مددا من الجنود الى الحامية فشتتوا شمل الثائرين بنيران المدافع والبنادق وقتل فى هـذا الهجوم ثلثمائة من الثوار

ثار الأهالى فى الأحياء الأخرى للمدينة فاتجهوا الى معسكر القيادة العامة بالأزبكية (بيت الألفى بك) فتلقى الثائرين الجنرال « ديرانفو » بنار شديدة فردهم على أعقابهم واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لأطلاق النار على المعسكر . فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم ثم كرر الثوار هجومهم فثبت لهم الجنود

* هذا الفصل مقتبس عن كتاب الحركة القومية للأستاذ المؤرخ عبدالرحمن بك الرافعى

وكان نطاق الثورة قد اتسع وغامرت فيها طبقات الشعب فأراد الجنرال « فريان » اعادة النظام فى القاهرة لكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة متاريسها ومنازلها المحصنة فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها كباب اللوق وناحية المدابغ والمحجر والشيخ ريحان والناصرية وقصر العينى وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب القرافة وباب البرقية والسويقة والرويعى . وكانت المتاريس منيعة جدا بلغ علو بعضها اثنى عشر قدما . وانشأ الثوار فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود (ا) فى بيت قائد أغا بالخرنفش . وأنشأوا معملا لأصلاح الأسلحة والمدافع وآخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصناع للعمل فيه . وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع لاستعمالها قذائف جديدة . وتطوع الأهالى لأمداد الثوار بالطعام وتوزيعها وباشر السيد المحروقى وباقى التجار مايلزم لها من النفقات

عودة كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد ان ترك حاميات من الجنود فى الصالحية والمدن الأخرى فوجد نار الثورة تضطرم فى أحياء القاهرة وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصون الثوار ووجد جميع الوكالات والمخازن التى على النيل قد تحولت الى شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . فأدرك خطر الموقف ورأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قدلايؤدى إلى اخماد الثورة لاستبسال الثوار فى المقاومة وتحصنهم وراء المتاريس المنيعة فضلا على توزيع وحدات جيشه فى انحاء الوجه البحرى

تبين له ان المبادرة الى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لاتؤمن عواقبها ورأى من الحكمة ان يأخذهم بالمطاولة ويستخدم الزمن فى فل حدهم وبذر الشقاق بين صفوفهم . على أنه من جهة أخرى أخذ فى فترة الانتظار يعد المعدات لقمع الثائرين ويحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ويركب المدافع ويعد المواد الملتهبة التى عزم على استخدامها لاحراق القاهرة

أفلحت فكرة كليبر وبدأ المماليك والأتراك يلقون سلاحهم فى وجه الفرنسيين وأخذ مراد بك يفاوض الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين تمهيدا لمواجهة الثورة والتغلب عليها

وبهذه السياسة اخضع كليبر الوجه البحرى ثم اتفق مع مراد بك بينما كانت المدافع الفرنسية تمطر سكان العاصمة وابلا من قنابلها . وقبل مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا واشترك مع أعـداء البلاد فى مأساة احراق القاهرة بمـا قدمه للقائد العام من الأحطاب .

ولمـا وصلت فرقة الجنرال « رينييه » من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة « كامان » الى قلعـة « سلـكوفسكى » (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم فأحاطت المدينة شمالا وشرقا . وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل فاقتلعت متاريسهم واقتحمت منازلهم وأضرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجند . واستطاعت ان تسند ميسرتها الى سور القاهرة القديم وميمنتها الى مواقع الفرنسيين فى ميدان الأزبكية . واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون واستردها الثوار المرة بعد المرة . ولـكن تمـكن الفرنسيون فى المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها وظلت المناوشات بين الفريقين الى اليوم العاشر من أبريل

وفى اليوم الثانى عشر أجلى الفرنسيون الثوار عن كوم أبى الريش بين جامع الظاهر والمعسكر العام بالأزبكية . وكان نقطـة ارتـكاز هامـة للثوار واقتحمت قوة المنازل المحيطة ببركة الرطلى واضرمت فيها النار واستبقت بعض المنازل الصالحة للتحصين فيها . وكان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة بميدان الأزبكية فضربه الجنود بالمدافـع واحتلوه بعد جلاء الثوار والعثمانيين . فامتنع الثوار فى بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة عرف ببيت احمد أغا شويكار . وركبوا مدفعا فى حديقة منزل السيد البكرى وأخذوا يطلقون النار فى الجهتين على الفرنسيين حتى أصابوا المدفع المركب فى حديقة البكرى وأتلفوه فانحصر الثوار فى بيت أحمد أغا وظلوا فيه حتى اليوم الثامن عشر لمـا دس الفرنسيين لغما تحت جدران البيت ونسفوه فاحترق كل من فيه . ثم استأنفت القوات الهجوم على أحياء المدينـة هجوما عاما من الناصرية وباب اللوق والمدابغ والفجالة وكوم أبى الريش وباب الشعرية فوطد الفرنسيون مراكزهم وضيقوا على الثوار فاشتد الضيق بالأهالى وبدأت فكرة الصلح لوضع حد لمأساة القتل .

ولـكن كانت هناك مأساة أخرى . ففى اليوم الرابع عشر أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ولما لم يعبأ الثوار بالانذار هجمت الجنود الفرنسية صبيحة اليـوم الخامس عشر

على حى بولاق وامطروا وابلا من القنابل على حصون الثائرين فثغرت فيها ثغرات كبيرة إندفق منها الجنود الى شوارع الحى وأضرموا النار فى كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت الى مبانى الحى من مخازن ووكالات فالتهمتها . ودمرت ذلك الحى الكبير الذى كان ميناء القاهرة . وهدمت الدور على سكانها فبادت أسرات كاملة تحت الانقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالى بولاق انتقاما مروعا بعد مااستبسلوا فى الدفاع عن حيهم بشجاعة نادرة وكانت الدماء تسيل أنهارا فى الشوارع وتحولت تلك المدينة الزاهرة الى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام

طلب الأهالى التسليم فى نهاية الأمر لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حل ببولاق ففرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضا تسليم المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق وما فى المخازن من اخشاب وغلال وشعير وأرز وعدس وان يسلموا أربعمائة بندقية ومائتى طبنجة وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلى رئيس الثوار وطلبوا من أبتاعه ان يقتلوه لأنه السبب فيما حل بهم فضرب بالعصى حتى مات

واستمر الفرنسيون يسرفون فى ارتكاب الفظائع لأخماد بقايا الثورة واتبعوا وسيلة إضرام النار فى الأحياء الآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريبا فظيعا فى القاهرة واخترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعى وبولاق وبركة الرطلى وما جاورها وباب البحر والخروبى والعدوى الى باب الشعرية فأضبح منظر القاهرة بعد ماحل بها مفزعا يملأ القلوب حزنا وأسى

وأخيرا أبرمت معاهدة التسليم بعد ثورة دامت ثلاثة وثلاثين يوما . وأخذ الأتراك والمماليك يعدون معدات الرحيل وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى كبير التجار . وعادت السلطة الى الفرنسيين واحتفل كليبر بانتصاره فى مهرجان عظيم كان هو فى طليعته

الجنرال كليبر والحلبى

فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ دعى كليبر الى غذاء عند اركان حربه الجنرال « داماس » فى منزله بالقرب من ديوان الجيش بالأزبكية وخرج بعد تناول الطعام هو والمسيو « بروتين » مهندس الحملة يتمشيان فى رواق موصل بين بيت الجنرال « داماس » والديوان نحو الساعة

الثانية بعد الظهر . وفى اثناء حديثهما وثب رجل من نهاية الرواق وفى يده خنجرطعن به صدرالجنرال كليبر فنادى الحرس وهجم « بروتين » على الرجل فنال منه مثلما نال كليبر فسقط « بروتين » على الأرض ثم تركه الرجل وعاد الى كليبر وطعنه ثانيةوثالثة حتى أجهز عليه ولما سمع ضجة فر الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط فلما أتى الخفر لم يروا الا رجلين يتخبطان فى دمائهما فحملاهما الى البيت وأتوا لهما بالطبيب . فمات كليبر بعد قليل وظل « بروتين » تحت المعالجة

قبض على الجانى وكان اسمه سليمان الحلبي وحكم عليه بالأعدام على الخازوق وكذلك اعدم شركاؤه الأربعة الذين اتضح لهم انهم حرضوه

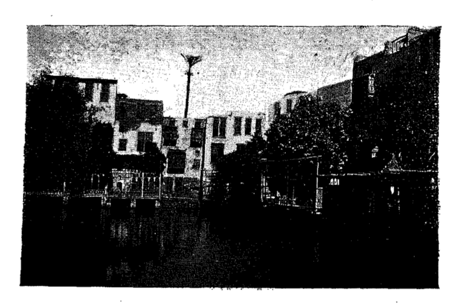
تولى القيادة العامة بعد كليبر « الجنرال مينو » الذى تظاهر بالأسلام ودعا نفسه عبد الله . وفى أيامه زاد ارتياب الفرنسيين فى الأزهر فلما رأى علماؤه ذلك عرضوا على « مينو » إقفاله مؤقتاً فقفلت ابوابه (محرم ١٢١٥ هـ - ٢١ يونيو ١٨٠٠)وظل مقفولا الى ان شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر فأعيد فتحه (محرم ١٢١٦ هـ - ٦ يونيو ١٨٠١) ولم يكف الفرنسيون فى أيام مينو عن إتيان مظالمهم فقد ذكر الجبرتى « وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا بشفيع تقبل شفاعته او متكلم تسمع كلمته واحتجب سارى عسكر « مينو » عن الناس وامتنع عن مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم ونزل بالرعية الذل والهوان . . » وفى مكان آخر من كتابه ذكر أيضا « وجعلوا جامع أزبك الذى بالأزبكية سوقا للمزاد وكثر الهدم فى الدور وخصوصا فى دور الأمراء واستهل شهر جمادى الأولى سنة ١٢١٥ (سبتمبر ١٨٠٠) والأمور من انواع ذلك تتضاعف والظلومات تتكاثف »

الانتقام من عروس الشرق

استمر الفرنسيون فى سياسة الهدم والتخريب لأغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التي كان الجنرال كليبر قد شرع فى انشائها . وهدموا كثيرا من البيوت والعمارات إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون وإما لكشف الجهات التى شرعوا فى إقامة الحصون فيها كما هدموا بيوتا أخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقودا . فدمرت خطط بأكملها كالحسينية والخروبى(بمصر القديمة) وبركة جناق (بباب الشعرية) وبركة الفيل وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر

إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالحطابة وباب الوزير وهدموا أعالى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة وجامع الرويعى جعلوا منه حانة يحتسون فيها الخمر وجزءا من جامع عثمان كتخدا القزدغلى وجامع خير بك حديد بالقرب من بركة الفيل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى.وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه فى أيامهم الا بعض الجدران



بركة الفيل كما كانت فى أوائل القرن التاسع عشر

وهدموا مصاطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم فى توسيع الطرقات والأزقة لمرور العربات وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة وهدموا تلك المصاطب فى احياء كاملة كالصليبة وقناطر السباع ودرب الجماميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشعرية . فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن ينزووا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح

وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفا من تحصين المقاتلين بها وأزالوا جانبا كبيرا من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفا من تمكن الأهالي منها والرمي على القلعة

وصادروا الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع حدائق بساتين القاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلي وأرض الطبالة وبساتين الخليج وكذلك عملوا في الاقاليم وأخذوا أيضا أخشاب السفن مع شدة الحاجة إليها للنقل فتعذر انشاء سفن جديدة وتعطلت المواصلات وصعب النقل وارتفعت أجور الشحن

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل فغرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق فصارت الأرض كلها لجة ماء وتهدمت الدور المقامة على الشواطىء. وجرى الماء في المدينة من جهة الناصرية وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمسي وطريق قنطرة عمر شاه

رحيل الفرنسيين ووصول الأنجليز

انتهت أيام الفرنسيين في مصر على يد « مينو » فقد هزمه الأنجليز في معركة « كانوب » (٢١ مارس ١٨٠١) بعد أن خسروا نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى وفقد الانجليز نحو ألف وخمسمائة قتيل منهم قائد الحملة « الجنرال أبروكرومبي » وجرح بعض قوادهم ومنهم السير « سيدني سميث » الذى اشترك في القتال ولهذه المعركة (ويسميها الأنجليز معركة الأسكندرية) في تاريخهم الحربي منزلة ممتازة . وقد مهد هذا النصر للأنجليز الاستيلاء على رشيد مع الجيش التركى (ذى الحجة ١٢١٥ هـ = ابريل سنة ١٨٠١ م)

بدأ الجيش الأنجليزى التركى يزحف على القاهرة وحدثت عدة معارك فى الطريق من أهمها معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) . وقد ذكر الجبرتى نبأ احتلالها فى حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ . وفى خلال تلك المدة استولى الأتراك على دمياط بعد انسحاب الفرنسيين منها كما أخلوا قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس . وبدأ الفرنسيون ينفذون خطة الدفاع عن القاهرة ففكر الجنرال بليار فى الاستنجاد بحليف فرنسا مراد بك . ولم يكد هذا يرسل له الامداد من رجاله حتى أدركته المنية وتوفى وهو فى طريقه إلى مصر فدفن بسوهاج (١٢١٥ هـ = ١٨٠١ م)

وصل الأنجليز إلى امبابة بعد أربعين يوما من وصولهم إلى الرحمانية واحتشدت القوات الأنجليزية على الشاطىء الأيسر للنيل وقوات يوسف باشا على الشاطىء الأيمن وأقام الأنجليز جسرا من القوارب بشبرا لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو ٤٠٠٠٠ من المقاتلين بينما كان الجيش الفرنسى بالقاهرة لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الأكثر موزعين على خط طويل يمتد من الجيزة إلى حدود القاهرة شرقا وشمالا ومن مصر القديمة إلى بولاق

وأخيراً اجتمع مجلس حربى بقيادة الجنرال « بليار » فى القلعة فشرح موقف الجيش الفرنسى وكان ميالا الى التسليم وعارضه بعض اعضاء المجلس . لكن انتهت المفاوضات بين الفريقين على جلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية في الأراضى المصرية وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوما . وان يتم الجلاء فى أقرب وقت ممكن بحيث لايزيد عن خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا الى الروضة وقصر العينى والجيزة استعدادا لنزولهم فى السفن التي اعدت لنقلهم بالنيل الى رشيد ودخلت الجنود العثمانية المدينة وفى (٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ - ١٤ يوليو ١٨٠١) أخلى الفرنسيون القصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت سفنهم وعددها ثلثمائة الى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر وساروا من رشيد الى أبى قير وابحرت بهم السفن فى اوائل أغسطس سنة ١٨٠١ الى فرنسا

وبجلاء الفرنسيين آلت السلطة الفعلية فى القاهرة الى قواد الجيش التركى والأنجليزى أما فى الأسكندرية فكان الجنرال «مينو» لايزال قابضا على ناصية الحال فاضطر الى الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ وبدأ فى تسليم قلاع الاسكندرية وحصونها ثم رحل عنها يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١

وبجلاء الفرنسيين عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى . وبدأت تتنازع السلطة فى مصر ثلاثة قوات : الأتراك والانجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى

***

تقلد خسرو باشا ولاية مصر وهو أول عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين . وبدأ الجيش

الانجليزى ينسحب من معسكراته فسلم الجيزة الى خسرو باشا فى مايو ١٨٠١ ولم يبق من الجيش الانجليزى فى مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية فظلت بها حتى أبرم صلح أميان (١٧٠٢) فتم جلاء الانجليز

قاهرة المجمع المصرى

أقام الجيش الفرنسى فى مصر نحو ثلاث سنوات كان فى اثنائها ضيفا ثقيلا على البلاد وقد يقال إنه دفع ثمنا باهظا لتلك الضيافة غير المرغوبة واذا كنا لانذكر الحملة الفرنسية واحتلالها لبلادنا الجميلة الا بالبغض والكراهية الا أنه مع هذا الشعور القومى الطبيعى



أعضاء المجمع المصرى فى بيت الامير حسن كاشف بالناصرية «عن وصف مصر»

يجب ان نذكر شيئا واحدا استفادت منه البلاد . هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضوا فيه ومعه اولئك العلماء الأدباء وكبار القوادوالضباط ممن لهم باع فى العلوم والآداب . انشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الاسطول الفرنسى فى أبى قير وعهد الى سبعة من العلماء من أقطاب لجنة العلوم

والفنون وقواد الجيش اختيار اعضائه وهؤلاء السبعةهم العلماء : مونج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجينت والجنرالين كافاريللي وأندريوسى

أصدر أمره بانشاء هذا المجمع فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧ . وقد تألف من ستة وثلاثين عضوا موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون . واختار العالمان مونج وبرتوليه والجنرال كافاريللى قصر حسن كاشف شركس بالناصرية ليكون مقرا لهيئة المجمع وألحقوا به القصور المجاورة له التي شيدها المماليك وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون كقصر قاسم بك وبيت ابراهيم كتخدا السنارى وبيت أمير الحج وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور المماليك فى القاهرة (ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية) وصفها الجبرتى خلال كلامه عن حسن كاشف فقال : «إنه عمّر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة وقبل بياضها وصل الفرنسيون الى مصر فسكنها الفلكيون والمدبرون وأهل الحكمة والمهندسون فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور» . وذكرها المسيو «جوفرواسان هيلير» أحد الأعضاء فى رسائله المنشورة بكتابه رسائل من مصر وظاهر مما كتبه عنها انها كانت غاية فى الفخامة فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة الى العلامة «كوفييه» قال : عدت من المجمع العلمى بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (حسن كاشف وقاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء . وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون وفيها من وسائل الفخامة مالا يقل عن اللوفر . وانا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما فى اللوفر وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الغراس خصصناها للزراعة . أما قاعة جلسات المجمع فأنها مزدانه بأجمل مافى قصور المماليك من الأثاث» وكان هذا القصر الجميل أول مقر لنواة المتحف المصرى اذ أودعت فيه بعض الموميات وحجر رشيد الذى أكتشفه الكابتن بوشار

وقد بذل اعضاء المجمع المصرى جهودا كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين . ويكفيهم فخراً أنهم أخرجوا الكتاب النفيس الذى يعتبر الى اليوم فى مقدمة المراجع الثمينة فى الشئون المصرية . . وهو كتاب وصف مصر . (Description De l'Egypte) ذلك المؤلف الفخم الذى يعد بحق عنوانا صريحا يشهد بكفاءة علماء الحملة الفرنسية

قاهرة الجبرتى

القاهرة بعد الفرنسيين ـ طاهر باشا ـ يوم وليلة ـ محمد بك الألفى ـ ثورة القاهرة ـ القاهرة بين أول مايو وتاسع يوليو ـ ولاية جدة ـ ١٢ مايو ـ محمد على باشا والى مصر ـ السيد عمر مكرم ـ ابتهاج القاهرة ـ يوم مصر ـ ضربة قاضية ـ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى

***

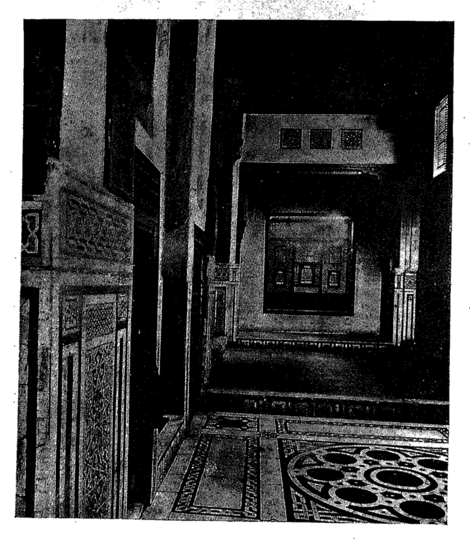


محمد على باشا على جواده

رأيت فى الفصلين السابقين كيف آلت القاهرة بفعال المماليك إلى ميادين للقتال. وحولها الفرنسيون بمدافعهم إلى خرائب فارتسمت على جدرانها صور البؤس والشقاء يراها الناظر عدة قرى متلاصقة فى كل حى من أحيائها تلك البوابات الثقيلة الواقفة على الدروب والحارات والعطف. وكانت كل بوابة تغلق بعد صلاة العشاء على أهل الحى وينام خلفها حارسها القوى بسلطانه. فلا يجرؤ أحد الأهالى على التأخير بعد صلاة العشاء الا لحاجة شديدة. وكانت تصنع تلك الأبواب غاية فى المتانة وتغطى بطبقات سميكة من ألواح النحاس أو الحديد وتثبت بالمسامير الغليظة وتفلطح رءوسها وتفنن القوم فى صناعة المزلاج الذى كان يركب فى داخل الباب وخارجه وتغلق البوابة بالدرافيل الخشبية القوية « والغربان » الحديدية

بدأت القاهرة تفقد طابعها الشرقى الذى امتازت به وبدأت تتقلص عمارتها الجميلة التى ازدانت بها أيام المماليك البحرية والجراكسة ولم يكن لظاهر البيوت رونق بل اتجهت العناية الى تزيينها من الداخل. ولم تكن هندسة البناء يقصد بها التناسب أو مراعاة القواعد الصحية وانعدم التناسق فى توزيع النور والهواء داخل المساكن بل كانت

تشييد البيوت حيثما اتفق . فجميع الغرف لاتتفق فى مستوى أرضيتها . غرفة مضيئة وأخرى مظلمة . وقاعة واسعة وأخرى ضيقة . ثم ترى القاعة التى يعجز الواصف عن حصر رونقها منزوية داخل دهليز مظلم . ولكن مع تأخر صناعة البناء شيد الأمراء المنازل الواسعة والمساجد العظيمة . وكان كل أمير يجمع حوله أتباعه وحشمه و يسكنهم



القاعة الكبيرة ببيت جمال الدين الذهبى

فى بيته . وكانت تشيد فى البيوت المخازن والحوانيت مثل بيت الشرقاوى فانه كان يبلغ أربعة أفدنة . وكانت بجهات سوق السلاح وسويقة العز وعابدين كثيرمن أمثال تلك البيوت التى تحولت فيما بعد الى أحواش سكنها الفقراء والعامة

لم تعرف قاهرة تلك الأيام تنظيما معينا لشوارعها . فخرجت بعض البيوت عن

حدود الطريق العام ودخل البعض عنه هذا له مشربيات قريبة من مستوى الطريق وآخر لا ترى له منافذ . ومن شيّد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه فى المنزل ماأحب بلا قيد . وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة (اذا صح القول بأنه كان هناك فى ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم) اعتناء بأمر النظافة أو الصحة فكانت تلقى القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة . وماتبقّى من انقاض الهدم من الأتربة والأحجار ألقى به بالقرب من أبواب المدينة فتصير تلالا . فاذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة الرائحة فاتسعت دائرة الأمراض . وكانت مقابر الموتى فى وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفى المساجد وفى المدارس

انقسمت القاهرة الى بضعة أحياء تجارية فعرفت الجمالية بما يباع فيها من واردات الشام والحجاز وحضرموت . وبيع فى الحمزاوى الجوخ والحرير وما يرد اليه من الهند وأوروبا وامتاز خان الخليلى بتجارة البلاد التركية . وكانت للقاهرة أسواق وقتية فمنها ما يكون فى يوم معين كسوق الجمعة والاثنين والخميس . ومنها ما يكون كل يوم بعد العصر كسوق العصر . وكانت تلك الأسواق تتنقل من مكان الى آخر حسبما يراه الحاكم واجتمع اصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذون كالحواة والقرادين بميدان الرميلة التى تحولت مبانيه الفاخرة الى اكواخ وحيشان وأخصاص . واستحوذ كل انسان على ما استطاع من أرض تلك الجهة حتى المساجد والمدارس وبنوا حول المساجد مبان قذرة شوهت محاسنها . وكذا ضيقوا واسع أرض الميدان وسوق السلاح فكان المار بتلك الجهات يخطو على القاذورات ويمر بين اقوام لاخلاق لهم وانحطت صناعات القاهرة فكنت لاتشاهد غير الحرف الوضيعة يقوم بها صناع فقراء يحاولون العيش بصعوبة فى حوانيتهم

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة فى تلك الآونة فلا ترى الا أبنية مخربة وأسوارا وأبوابا مهدمة . واذا قادتك قدماك الى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكيمان وأطلال . تلمح الشقاء فى كل مكان وميدان حتى امتد الى عابدين والداودية والقربية والخليفة . أما جهات المدابغ وباب اللوق فلا تسل عما احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة

وخلاصة القول ان القاهرة وصلت الى اتعس حال فى العمارة والتجارة والصناعة فأصبحت المدارس خاوية ولجأ الفقراء الى سكنى المساجد . واذا هبت الريح لا ترى الا غبارا ينبث على البيوت فيسترها ساعات طويلة حتى تهدأ الحال . وكان يوجد على حافة

النيل الشرقية بعض مبان كقصر العيني و بيت محمد كاشف قبليه و بيت محمد بك الألفي بحريه محل القصر العالي وغيرها وامتدت مبان قليلة الى جزيرة العبيط مكان الاسماعيلية الآن وكان يتوصل إليها من بوابة أزيلت كانت تجاور غيط قاسم بك الذى عرف فيما بعد بحديقة وهبي باشا

هذه كانت القاهرة .... حتى قيض الله لها المرحوم محمد على باشا محيي مصر الحديثه فأخذ يرفع مستواها لكي تكون عاصمة تليق بملكه العظيم : وسنرى كيف بدأ ينفذ هذا المصلح الكبير ما كان بصدره من آمال

لما عادت القاهرة الى حكم العثمانيين وشيخ البلد كانت مخربة تنعق على انقاضها البوم واستأنف الألبانيون ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم وعمت كوارث القتل والخطف والنهب وعاد المماليك الى رذائلهم ومفاسدهم . بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات مرتباتهم . فهجموا على بيت الدفتر دار (بيت محمد بك الألفي القديم) و بيت المحروقي (بيت الشيخ البكرى) فصوب الوالى عليهم مدافع القلعة وخرب حى الأزبكية ونهب الرعاع ما فيه وأقيمت المتاريس عند رأس الوراقين والعقادين والمشهد الحسيني . ووزع الجنود بجامع أزبك و بيت الدفتر دار و بيت محمد على وكوم الشيخ سلامة . ونشبت الحرب بين العثمانيين والألبانيين بالقاهرة و بولاق وقصر العيني وانهزم الوالى خسرو باشا بقواته فانتحى ناحية جزيرة بدران ومنها توجه الى المنصورة فدمياط

طاهر باشا

وفى مساء يوم ما باتت القاهرة فى قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين الذى شغل منصب الولاية . فطلب الى المشايخ وكبار العلماء ورؤساء الوجاقات ان يختاروا من يشغل منصب الولاية الذى خلا فأعلنوه باختياره « قائمقاما » حتي تصل له اعلان الولاية أو يعين وال آخر

واستمرت المظالم كعادتها واطلق طاهر باشا لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وتوقيع الغرامات الفادحة على التجار وقام الجنود الانكشارية يطالبون برواتبهم المتأخرة أسوة بالألبانيين

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب رهط من الانكشارية يبلغ عددهم نحو ٢٥٠ بأسلحتهم الى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من رؤسائهم فدخلا عليه وكلماه فى

الشكوى من تأخير دفع الرواتب فاتهرها ورفض ان يسمع شكواها واشتد الجدال بينهم فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورميا جثته من النافذة واحرقوا داره ونهبوها وكانت أيام حكمه قليلة . قال الجبرتى « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل »

عادت السلطة مؤقتا الى الانكشارية فولوا أحمد باشا والى المدينة المنورة على ولاية مصر . وفى ذلك الحين كانت قوات المماليك وجنود محمد على على أبواب القاهرة . فماذا يعمل البطل المنتظر ؟

يوم وليلة

جاهر محمد على بتحالفه مع المماليك واجتمع بابراهيم بك فى الجيزة وافهمه أنه يؤيده وأنه أولى الناس بولاية مصر فدخل محمد على وابراهيم بك وعثمان بك البرديسى وباقى زعماء المماليك القاهرة متحالفين وطردوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوما وليلة !

بدأت سلطة محمد على تظهر فى الميدان ونادى المنادون فى القاهرة « بالأمان حسب ما رسم ابراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد على » . فكان هذا النداء فى شوارع القاهرة إعلانا باقتسام السلطة بين ابراهيم بك ومحمد على

اتفق محمد على وابراهيم والبرديسى على التخلص من الأتراك فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر وكان الانكشارية يقيمون بها حتى أخرجوهم منها ونزعوا اسلحتهم وطردوهم من القاهرة ونادوا بتحذير الناس من ايوائهم

بالغ محمد على فى التودد الى المماليك فسلمهم قلعة القاهرة واتفق واياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة خسرو باشا الذى كان لايزال محتميا بها وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية فى رشيد . فنجحت الحملتان وقبض على خسرو باشا وارسل الى القاهرة سجينا وابتهج المماليك لهذا النصر ونادى ابراهيم بك بنفسه « قائمقام مصر »

فلما علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وعودة نفوذ المماليك عزمت على استرداد سلطتها فعينت على باشا الجزائرلى واليا لمصر وارسلت معه قوة من ألف جندى . فبقى فى الاسكندرية الى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم قصد القاهرة ليتقلد منصب الولاية بناء على دعوة من الأمراء المماليك متظاهرين فيها بالرغبة فى الوفاق . لكن هذه الدعوة كانت له شركا نصبوه للفتك به فلما وصل الى «شلقان» التقت به جماعة من أمراء المماليك وجنودهم

وهنا أبلغوه أنهم يمنعونه من دخول القاهرة واركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته للذهاب به الى حدود سوريا ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه فى الطريق

لم يبق أمام محمد على الاقوة المماليك فبدأ يعمل على التخلص منها وتمهيداً لتلك الغاية ترك لزعماء المماليك ولا سيما البرديسى السلطة ظاهرا حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفا لسخط الشعب وتبعة المسئولية أمام الباب العالى

محمد بك الألفى

لم يأت للآن أسم زعيم آخر هو « محمد بك الألفى » وكان مسافرا لانجلترا وقت جلاء الحملة الأنجليزية (١٨٠١) لمفاوضة حكومتها فى عودة المماليك الى الحكم . عاد لمصر ولو قدر له النجاح لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث

علم محمد على بعودة الألفى إلى مصر فأوجس فى نفسه خيفة لأنه كان يحسب للألفى حسابا كبيرا ويعده أقوى خصومه لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليتخلص من خصمه فانفذ رجاله للقبض على الألفى وقتله . وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا اختفائه وفراره فنجا بنفسه وذهب الى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم

وفى مارس ١٨٠٤ عزم البرديسى على فرض ضريبة جديدة على الأهالى وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجولون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمطرون اللعنات على الأحكام وكانت غالب صيحاتهم منصبة على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادى :

« أيش تأخذ من تفليسى يابرديسى ! » . وأغلق التجار وكالاتهم وحوانيتهم واتجهت جموع الناقمين الى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة فقاموا هؤلاء إلى أمراء المماليك يطلبون إلغاءها

لقد نفخ فى بوق الثورة ! وأخذت روحها تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة . . فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الميادين والشوارع . وخشى محمد على ان تصيب الثورة جنوده فبادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لمغضبة وجاهر بانضمامه الى العلماء والمشايخ . ونزل الى

الطرقات واختلط بالجماهير وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب فأختلطوا هم أيضا بالناس واعلنوا عدم رضاءهم عن الضرائب وجاهروا أنهم يطالبون برواتبهم من الحكومة لامن الأهالى !

كسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه وبدأ الناس ينظرون اليه كرجل عادل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك الفوضى الشاملة

أما عثمان بك البرديسى فقد قابل تلك الثورة بالغطرسة والكبرياء ونقم على المصريين الذين لم يمتثلوا لأوامر المماليك بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك فى الأقاليم فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسي بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى انحاء العاصمة واستمر الحصار الى اليوم التالى

رأى المماليك أنفسهم حيال قوتين ! ثورة الأهالى من جهة وجنود محمد على من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة . وكان أول الفارين البرديسى بك ثم ابراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة

قصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى القديم وكان سجينا منذ ثمانية أشهر ليعيده الى ولايته فنزل به الى المدينة معلنا أنه صاحب الولاية فى البلاد . فازداد الشعب تعلقا بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل وعين من بعده خورشيد باشا

نجح المماليك فى جمع شملهم وعادوا للجيزة بقيادة البرديسى وابراهيم بك لفتح القاهرة واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر حتى ارتدوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد

بدأ خورشيد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على وقد رأى أمامه شخصية جبارة تطغى على نفوذه فاستصدر من الآستانة فرمانا بعودة محمد على وجنوده الى بلادهم . فلما وصل الفرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة وتظاهر بالاذعان وأعد عدته للرحيل ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا الى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة

اهتزت القاهرة لنبأ هذا الرحيل واقفلت الأسواق وكاد حبل الأمن يضطرب وأخيرا قبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه ارضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد

باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتا للأمر الواقع . فاصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك فى الصعيد ليتخلص منه وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمده بامدادات قوية فأوفدت اليه جيشا من الدلاة . فلما وصل الى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة الى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة فى البلاد

ثورة القاهرة

فرض خورشيد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات فضجوا منها وأقفلوا حوانيتهم وحضروا الى الجامع الأزهر يشكون أمرهم الى العلماء فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها الا القليل . واشتد هياج الناس واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجماهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول وصعد الكثيرون منهم الى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلعة دوى صياحهم وأخيرا اضطر خورشيد باشا الى رفع الضرائب وأعلن أبطالها ونادى المنادون بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش العثمانية فقد أخذوا يعيثون فى الأرض فسادا وقال عنهم الجبرتى الذى شاهد أفعالهم وهو يتنقل بين انحاء القاهرة ليعود الى بيته ويسجل فى تاريخه النفيس ما كان يراه كل يوم

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها وكانوا إذا سكنوا دارا أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم فاذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر النواحى وخصوصا بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم »

وكان خورشيد يرى أنه لايهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد إلى المنيا محمد على مع حسن باشا بجنودهما فى الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما فى مهمتهما

وكان خورشيد قد أنفذ اليهما قوة من الدلاة لصدهما عن التقدم بالقرب من طره . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هـذا المعقل دون أن يلقى أية مقاومة . فانه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث اليهم فأجابوه الى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم الا يتعرضوا الجيش محمد على وأخلوا له الطريق

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ ابريل ١٨٠٥ ليبدأ النزال بينه و بين خورشيد باشا وجها لوجه

القاهرة بين أول مايو وتاسع يوليو

القاهرة فى يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥

اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالى الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق فى المدينة كلها

اجتمع العلماء وذهبوا الى الوالى وخاطبوه لوضع حد لفظائع الولاة . فأصدر الوالى أمرا للجنود بالخروج من بيوت الناس وكان هذا الأمر صوريا لأن الجنود لم ينفذوه

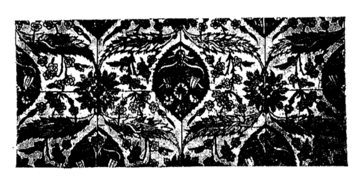
خوطب الوالى ثانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة فلما علمت الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها فى المدينة

القاهرة فى يوم الخميس

عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن القاء الدروس وأقفلت الحوانيت واحتشدت الجماهير فى الميادين والطرق

أدرك الوالى خطر الحالة وأرسل وكيله صحبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لكبح الهياج فلم يجدهم بالأزهر فذهب الى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له فى الحديث وانصرف على غير جدوى . وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل اليها دون أن ترجمه بالأحجار ورفض العلماء ان يتدخلوا لايقاف الهياج وصمّموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة

لم يكن سهلا اجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالى فى القتال . واستمر العلماء مضربين عن القاء الدروس واقفلت الاسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة



لوحة من قاشانى صناعة رودس من صناعة القرن العاشر الهجرى مهداة من حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال لدار الآثار العربية

ولاية جدة

اعتقد خورشيد باشا أنه نجح فى مسعاه لأقصاء محمد على عن مصر . فقد ورد فرمان سلطانى بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل فى الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخلع عليه خلعة الولاية الجديدة . لكن محمد على أدرك مافى هذا التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به اذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره الباشا

غضب خورشيد من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد أغا فى منزل وكيل دار السعادة وصديق محمد على . فرضى خورشيد باشا بهذا الحل مرغما وذهب فى الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة الفرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد عائدا إلى القلعة وقابلته الجنود الالبانية والشعب بالهتافات :

« محمد على لا يذهب إلى جده . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لاعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظا للقاهرة ووالى مصر ـ وليذهب خورشيد لجدة »

فماذا يصنع محمد على الآن ؟

جنود الألبان منظمون . وباشارة من قائدهم يصطفون أمام الوالى ويحيطون به ويمتطى محمد على جواده فى طليعتهم ويحرس خورشيد باشا إلى القلعة . يتم كل ذلك بهدوء ليحتفظ بنفسه لممثل خليفة المسلمين وقار منصبه وسمو مركزه !

القاهرة الآن امام الخطوات الاولى لدولة عظيمة فى طريق البناء

١٢ مايو

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة يوم السبت ١١ مايو وكان لايزال باقيا منهم نحو ١٥٠٠ : وعلم زعماء الشعب انهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية

في صباح يوم (١٢ ضفر ١٢٢٠ = ١٢ مايو ١٨٠٥) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجا قلية (الموظفين) والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لأصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحا فسلاحهم أيمانهم

وتستطيع أن تتبيَّن نفسية الشعب فى ذلك اليوم الرهيب وتحكم عليها من ندائه « يارب يامتجلى أهلك العثمانلى »

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا في تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ووافاهم وكلاء الوالى بعد ان طلبهم قاضى المحكمة فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتهـا إلى القاضى وقام وكلاء الوالى يبلغونها الى خورشيد باشا بالقلعة

فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل الى محمد على يستدعيـه ومعه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء الى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر الى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب اليه

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب اليه تمردا ورفض اجابة مطالبهم

محمد على باشا والى مصر

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع فى اليوم التالى بدار المحكمة للمداولة واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم . واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على واليا مكانه . وقاموا فى عصر اليوم الى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« اننا لانريد هذا الباشا واليا علينا ولابد من عزله عن الولاية »

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلا :

« اننا خلعناه عن الولاية »

فسأله محمد على « ومن تريدونه واليا ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : « لانرضي إلا بك وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير » .

فتردد محمد على فى بادىء الأمر لكى لايقال عنه أنه المحرض للثورة فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « اننا إخترناك برأى الجميع وأجماع الكافة » فقبل محمد على الولاية وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيدباشا فرفض الاذعان لمطالبهم وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لاخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لأجبار الوالى على التسليم.

احتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية وعبثا حاول الزعماء اقناع الوالى بعدالة مطالبهم فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت



الوالى محمد على باشا يخرج من القلعة

اليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وبلغ عدد الثوار أربعين ألفا . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة.

استمر القلق والاضطراب الى ليلة الجمعة ٢٤ مايو ١٨٠٥ وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالي من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار فتبادل الفريقان اطلاق الرصاص الى مابعد العشاء ثم ارتد جنود الوالى الى داخل القلعة. واستمرت الحرب سجالا حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم. ولم يكن ذلك الاخدعة منه ليتزود من الذخيرة وفى يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة على رأس الوجاقلية والشعب وأهل خان الخليلى والمغاربة. ومن العجب ان الفتور كاد يتسرب الى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار فى القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد على باشا فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا فأبوا ولم يمتثلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا فأخذ مكانهم جماعة من المصريين.

وكان السيد عمر مكرم حريصا على نجاح حركته وصيانتها من الفشل وقد حدث فى مدة الحصار ان حضر أحد قواد الوالى بقواته ورابط بمصر القديمة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وان يمد حاميتها بالمؤن والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد على لصرفهم عن حركتهم. ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبية فى أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة. وبينما كانت احدى قوافل الجمال المحمّلة بالمؤن فى طريقها الى القلعة خرج عليها «حجاج الحضرى» شيخ طائفة الحضرية وطائفة من أهالى الرميلة فضربوا «الجمالين» وحاربوهم وأخذوا جمالهم وتغلبوا عليهم. فلما رأى الوالى ذلك أمر بضرب المدافع على القاهرة لاسيما نحو جهة بيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر واستمر الضرب من أول النهار الى بعد الظهر فتهدمت بعض البيوت القديمة.

استمر القتال بين الشعب والوالى الى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ حتى أرسل محمد على باشا الى السيد عمر مكرم مشيرا عليه بارسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على احدى قمم المقطم التى تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته المعسكرة فيها. فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدافع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى المكان الذى عينه محمد على باشا. وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين وبهذه الفكرة انقذ محمد على العاصمة من أذى شديد كاد يلحق بها

وفى تلك الآونة وصل الاسكندرية «صالح بك» من كبار ضباط الباب العالى قادماً من الأستانة يحمل فرمان الولاية . ولكن يحمل اسم من يا ترى ؟

خورشيد ؟ محمد على .... أيهما ؟ وصالح بك صامت لا يقول شيئا كأنه لا يعرف مضمون أوراقه

هذا المندوب السامى فى طريقه الى القاهرة . . . ينتظره شعب مصر بفروغ صبر فمعه مستقبل بلاده . وليس للناس حديث سواه . وأخيرا يصل صالح بك الى بولاق فى عاشر أغسطس - فيتفرس فى وجوه المستقبلين قارئا ما يجول فى أفكارهم ويعلن الملأ بأن السلطان العظيم قد لبىّ رجاء العلماء وولى محمد على قائمقامية القاهرة المحروسة وولاية مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية

فكيف كان موقف القاهرة حينذاك ؟

خرج محمد على باشا وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالى بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والخليفة والرميلة والحطابة والحبالة وفى الطليعة « حجاج الخضرى » وبيده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين ومعهم الطبول والزمور . وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا الى الأزبكية فنزلوا بيت محمد على باشا وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم الذى أحضره « صالح بك » بولاية محمد على على مصر و بعزل خورشيد باشا

يوم مصر

هو اليوم السعيد الموافق (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ = ٩ يوليو ١٨٠٥)

فى اليوم التالى بدأت القاهرة تتنفس الصعداء بزوال نظام بائد من الحكم واستقبلت حكم أسرة محمد على

فى ذلك اليوم قصد السيد عمر مكرم بيت محمد على باشا فى جمع كثير من الجند والأهالى والمغاربة والصعايدة والأتراك وكانوا مسلحين و بعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده الى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ثم عاد الى بيته

وامتنع رمى القنابل فى القلعة كما صدر أمر بوقف نيران مدافع الجبل واستمر الحصار حول القلعة منعا للفاجاءات حتى أذعن خورشيد باشا وسلّم القلعة يوم الاثنين (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ = ٥ أغسطس ١٨٠٥) وأنزل الوالى السابق حريمه وجنوده واتباعه وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجهة الخروبى فبولاق .

وقد ودعه محمد على باشا وعمر بك وصالح بك واقلعت السفينة التى أقلته الى الأسكندرية

أصبح محمد على سيد القـاهرة وسيد مصر على الاطلاق وبدأ فى تنفيذ مشروعاته العظيمة وأولها إخضاع المماليك وتطهير البلاد من جماعات الارهاب

ضربة قاضية

فى اليوم التالى من وصول خورشيد إلى الاسكندرية وصلت قوة من المماليك تبلغ الاربعمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم ومنهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى وأحمد كاشف سليم وعباس بك وعبروا بوابتى الفتوح والنصر ثم ساروا فى كبكبة عظيمة وأمامهم الطبول والزمور والنقرزان فاخترقوا ميادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الاشرفية وكانت أتباعهم ينضمون اليهم كلما تقدموا داخل المدينة فلما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجمت عليهم الجنود الالبان وحاصرتهم من كل جانب فلم يتقدموا ولما ارادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة فترجّلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المســاجد القريبة للاختفاء فيهـا ولجأ آخرون الى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديدا فلم ينج منهم أحد ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويعرى من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تنفصل رأسه عن جسمه ثم تسلخ وتحشى بالتبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسيا فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد ولكن عدوهم كان شديد الوطأة متيقظا فأبادهم ولم ينج منهم غير القليل اذ وقعوا فى الشرك الذى اتقن حبكه ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه فقد كان ينتظرهم شرك آخر . . . . .

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصراف الأهالى كل الى داره فقاموا بمفاجأتهم وقد أيقنوا انهم لابد ناجحون .. وكأنهم لم يعرفوا من قبل بطش محمد على . فلم يتوان عن أن ينزل بهم ضربة قوية كانت القاضية

كانت هذه إرادة محمد على . وكان لابد من تنفيذها

فازت القاهرة بأمنيتها ويجب ان تفوز مصر أيضا

وقد فازت مصر . . .

يريد القدر أن يساعد محمد على ويمهد له طريق النجاح

فيموت البرديسى زعيم المماليك أحد خصمى محمد على

وبعد أيام يموت الألفى مسموما على يد حريمه فيخلو الجو أمام بطلنا وفى أول مارس عام ١٨١١ نجده قد تخلص من نخبة المماليك لما دعاهم إلى وليمة القلعة فيحقق آماله النبيلة لإعادة مجد مصر وتأسيس إمبراطوريته

عبد الرحمن الجبرتى

تلك كانت القاهرة كما شاهدها صاحب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتى. ولد مؤرخنا البارع فى القاهرة (١١٦٨ هـ = ١٧٥٦ م) ورأى بعينيه تلك الحوادث التى وقعت بمصر. ولا سيما فى القاهرة بين عامى (١٧٥٧ و ١٨٢١ م) أما الحوادث التى سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع الى الوثائق المخطوطة



الشاعر يعزف على ربابه فى مقهى وحوله المنصتون يدخنون
« عن كتاب لين »

ولم يكن الاستاذ المؤرخ عبدالرحمن بك الرافعى مبالغا لما وصف طريقة الجبرتى فى كتابة تاريخه الدقيق فقال « انه كان يتحرى الدقة والصدق ويتوخى الحق ولم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى انسان مهما عظم نفوذه . وانك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتى من مطالعة كتابه وإمعان النظر فيه وبخاصة فى تراجمه فانك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ذاكرا لكل منهم ماله وما عليه » وإن كنا لا ننكر عليه ميله إلى بعض الأمراء والمماليك

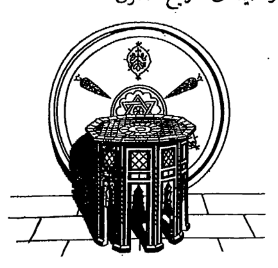
ولاشك فى أن «عجائب الآثار» تعتبر وثيقة وحيدة ونادرة يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسى وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الاجتماعية فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فلم يكتب مؤرخ آخر مثل ما كتبه الجبرتى بمثل إسهابه وتحقيقه . ولولاه لغابت عنا حوادث مصر فى ذلك العهد الطويل وان كان رجال الحملة الفرنسية دوّنوا ماشهدوه من الحوادث خلال الفترة الوجيزة التى مكثوها فى مصر

ويعتبر كتاب الجبرتى مرجعا ثمينا لمن يريد الكتابة فى خطط القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فنحن نستطيع بسهولة أن نصور معالم القاهرة فى أيام الجبرتى ونعرف ماأقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور و بساتين وماستجد فى بعض أحياء القاهرة فى أثناء حكم الفرنسيين مما تطلبته الأغراض العسكرية من تدمير وازالة أو تشويه و بناء

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتى وكما يسميه الفرنسيون « يوميات عبد الرحمن » أصدق الصور عن خطط القاهرة القديمة . وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة المماليك فى أثناء العصور الوسطى وقاهرة الخديوى إسماعيل العظيم فى منتصف القرن التاسع عشر

وقد ترجم « عجائب الآثار» للفرنسية مرتين الأولى بقلم المسيو كاردان مترجم القنصلية الفرنسية بمصر وطبعت عام ١٨٣٨ والثانية وهى ترجمة وافية قامت بها نخبة من الأدباء المصريين برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن وظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٦

وتوفى المؤرخ الجبرتى يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٢) وقد خلف للأجيال المتعاقبة درة ثمينة فى التاريخ المصرى



قاهرة محمد على باشا

عمل محمد على ـ ميدان الأزبكية ـ الأطلال والأكوام ـ قلعة محمد على ـ أبواب القاهرة ـ قصور القاهرة ـ شوارع القاهرة ـ مياه القاهرة ـ سعيد باشا ـ فى قلعة صلاح الدين ـ بولاق والسبتية ـ جزيرة الروضة ـ بركة الفيل ـ جامع محمد على باشا ـ مساجد القاهرة ـ دور الكتب ـ معاهد القاهرة ـ حفلات زواج الأمراء ـ المسترلين وكلوت بك ـ سليمان الفرنسى ـ شاتوبريان ـ الكونت دى فوربان ـ الجنرال ما رمون ـ بريس ذاقين .

إن كان القائد جوهر الصقلى قد خط مدينة القاهرة ووضع أساسها وإن كان صلاح الدين قد ظل وفيا لها واتخذها عاصمة للملك فان الفضل فى تعميرها يرجع إلى محمد على الكبير رأس الأسرة الملكية الكريمة وفى تجميلها الى حفيده العظيم اسماعيل . وفى تثقيفها وجعلها احدى العواصم الكبرى فى العالم الى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد

تولى محمد على حكم البلاد من أيدى المماليك وكانت القاهرة اذ ذاك مدينة مخربة دمرها الفرنسيون بمدافعهم وأهملها القاهريون أنفسهم فبدت عليها آثار الكآبة والحزن .

جامع محمد على باشا

وأدرك هذا العاهل العبقرى كيف يجعل من القاهرة عاصمة جديرة بملكه الواسع ولم يكن ذلك بالشيء الهين ـ انما كان كل شيء يهون أمام محمد على . . . أليس هذا الذى جعل مصر امبراطورية كبيرة بعد ان كانت ولاية عثمانية خاملة ؟

عمل محمد على

جاء محمد على فأدخل كل جديد الى القاهرة . عمارة أوربية حديثة . شوارع واسعة . تخترق أحياءها حدائق غناء يانعة . قصورا جميلة باذخة . ميادين كبيرة للنزهة مما جعلها مدينة عظيمة تتقدم غيرها من عواصم البلدان

تقلد محمد على أمور مصر بعد أن قضى على منافسيه وأسس عرشه على أساس
فبدأ يحقق مشروعاته العظيمة ليخلق من القاهرة عاصمة جديرة بملكه الواسع
عمل هذا العبقرى العظيم ؟

أصدر أوامره لأقلام الهندسة بعمل لائحة التنظيم فعملت ونفذت فعلا . وبدأ
المدينة تدريجيا فاتسعت الحارات وسهل المرور بالمتاجر واتبع الناس فى بنائهم
المعارية الحديثة وتركوا الأساليب القديمة

وذكر الجبرتى ضمن حوادث شهر ذى القعدة عام ١٢٣١ هـ ان الباشا أطلق ا
فى شوارع القاهرة واحيائها وندب جماعة من المهندسين وملاحظى المبانى للكشف
الدور والمساكن فان وجدوا بها خللا أمروا صاحبها بهدمها وتعميرها فان كان يعجز عن
يؤمر باخلائها حتى يعاد بناؤها على نفقة الحكومة وتكون من أملاك الدولة
سبب هذا الأمر سقوط بعض الدور وموت الناس تحت انقاضها

رأى محمد على ان كل مدينة كبيرة لا تخلو من هيئة من الرجال المسئولين
فكلف محافظ القاهرة « الكتخدا » بتأدية الأعمال التى يقوم بها الآن وزير الد
« والباش اغا » للقيام بأعمال حكمدار البوليس فى مراقبة الأمن العام وتنظيم الم
ومراقبة المحال العمومية والمحتسب لملاحظة تنفيذ أوامر الباشا . وعين لكل «
شيخا يقوم بأعمال قاضى الصلح و « قومسيير البوليس » ثم أصدر أوامره بتن
الأحياء فصارت تكنس وترش بالمياه وتضاء بمصابيح الغاز

وانتعشت الحالة الصحية فى القاهرة ولو أنه انتعاش بطىء الا أنه كان خطوة م
خطاها محمد على لأحياء المدينة وانقاذها بعد خرابها . وألف الأهالى الحياة الن
وبدت على الطرقات والميادين مسحة النظافة . ونظم البيمارستان وأنشأ المستشف
على النظام الحديث . فقد كان بالقاهرة حتى أيام الحملة الفرنسية مستشفى واحد
البيمارستان المذكور . ولكن أنشأ محمد على فى ميدان الأزبكية مستشفى جميلا يح
على سبعمائة سرير نصفها للرجال والنصف الآخر للنساء . وكان يتبع هذا مستش
للولادة ومستشفى للأمراض العقلية . هذا غير المستشفى العسكرى الفخم المعر
بمستشفى قصر العينى الذى احتوى على ألفين وثمانمائة سرير وكان القادم الى القا
لاسيما من جهة الغرب يرتد نظره عند وقوعه على أطلال الأتربة وآكام الانقا
ويود لو أن فى الاستطاعة إزالتها لكنه لايلبث ان يسلم باستحالة الأمر بعد مايتأ

جسامة الأكوام ويقدر الهمة الواجبة للأقدام على ذلك العمل الشاق حتى جادت الأيام لمصر بابراهيم الهمام

ميدان الأزبكية

كان ميدان الأزبكية إلى وصول الحملة الفرنسية مصر أرضا واسعة تغمرها مياه الفيضان كل عام وتتحول الى أرض زراعية على مثال بركة الفيل و بركة عابدين والفرايين و بركة باب اللوق والناصرية والرطلي والبشينين . فكانت تبدو فى فيضان النيل كبحيرات جميلة يتنزه فيها الشعب وتغدو عليها القوارب وتروح متنقلة بين شواطئها الزاخرة بالقصور والمناظر والمقاهى والمراقص فاذا ما انقطعت عنها المياه و بذر فيها الحب وأثمر الزرع بدت للناظر كأنها جنة فيحاء أو روضة غناء واذا انتهى القوم الى حصد محصولهم عادت قفراء مجدبة تنتظر عودة الحياة والخير

كان ذلك حتى عام ١٨٣٠ لما بدأت أسباب المسرة فى الأزبكيـة تختفى لتحل مكانها فى ذلك بركة الفيل فانتقـل اليها أصحاب السفن وأرباب الملاهى سعيا وراء أرزاقهم . وبدأ السكان يغفلون شروط الصحة فرموا فيها فضلاتهم وألقوا مخلفاتهم فتصاعدت الروائح العفنة وتعكر صفاء الجو

أراد محمد على الكبير فى عام ١٨٣٧ بعد أن عادت جيوشه من حملاته الحربية العظيمة النهوض بالقاهرة فرأى بعد انتهاء شارع شبرا الذى أصبح منتزها جميلا ان يحول ميدان الأزبكية إلى بستان كبير ينسقه على أسلوب الحدائق الأوربية

أمر برهان بك رئيس ادارة الأشغال العمومية وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى الى باريس أن يضع مشروعا لتحويل هـذه البركة إلى بستان عام ولما انتهى هذا من عمل تصميمه قدمه إلى الباشا فوافق عليه وبدأ العمل على تنفيذه وكانت أراضى ميدان الأزبكية وقفا لأسرة الشيخ البكرى وهى أربعون فدانا فأضيفت الى المنافع العامة وأعطيت لهم عشرة أمثالها من الأراضى الزراعيه الخصبة بالقرب من بهتيم

خطّ برهان بك ثلاثة شوارع كبيرة فى الميـدان لمرور الناس والمركبات وغرس على جوانب تلك الشوارع الأشجار الظليلة وردم جزءا كبيرا من البركة وأحاط الميدان بقناة مرتفعة القاع لتسمح برى جميع البستان عرضها عشرة أمتار . وزرع الأراضى التى تحيط بهذه القناة من الخارج بعد ان رفع مستواها لكى يعلو به عن مستوى

الميدان المتوسط وحفر جدولا عرضه خمس عشرة مترا فى وسط الميـدان لتخزن فيه مياه القناة الخارجية حتى توزع على البساتين وغرس على جانبى الجـدول الأشجار الباسقة . واستعان فى أيام الجفاف بآلة لرفع المياه من القناة الخارجية الى الجدول الداخلى فكانت المياه تجرى فى كل فصول السنة . وأقام قنطرتين جميلتين على الشارع الرئيسى المؤدى الى بولاق وممرات ضيقة ومعابر كثيرة لتسهيل المرور بين نواحى الميدان

ولم تمض أربعة أعوام حتى كمل انشاء الميدان على ذلك النسق الجميـل . وبدت البساتين النضرة والطرقات المنمقة وأقام القوم المقاهي النظيفة . وقصده سكان الأحياء المجاورة للجلوس والتريض . لكن مما يؤسف له أن الأمر قد صدر بردم القناة عقب احتجاج رفعه بعض الأعيان وقناصل الدول . قالوا في شكواهم إنه فى أيام التحاريق يلقى الناس فيها قاذورات الخيل وأوساخ البيوت فتسبب الحميات وتنتشر الاوبئة . فطلب قنصل انجلترا المستر « مورى » وبعض أصحاب البيوت ان تترك لهم مجرى مياه صغيرة مغطاة لرى حدائقهم حتى لا تتلف بانقطاع المياه عنها فأجابتهم الحكومة الى رجائهم وان كان الميدان قد فقد خرير المياه الهادئة واقفرت البساتين وبدأ يغشى الميدان اصحاب المهن الوضيعة والباعة المتجولون . فانحطت مكانته واهمل شأنه مدة طويـلة حتى ولى أمور مصر « اسماعيل باشا » فكان له شأن آخر كما سنرى

الأطلال والأكوام

اذا ركبت قطار السكة الحديدية بين باب اللوق والمعادى شاهـدت على يسارك فى المنطقة الممتدة بين قناطر العيون الموصلة للقلعة ومصر القديمة أطلالا من الأنقاض والأوساخ أقام بعض الفقراء على كيمانها مسا كنهم الوضيعة

هذه الكيمان القليلة بقية ضئيلة مما كان موجودا منها فى وسط القاهرة وأحيـائها وضواحيها ولاسيما مصر القديمة وبولاق ... هذه الأطلال كانت ذكرى إقامة الفرنسيين فى القاهرة بعد أن خربوها بمدفعيتهم . وكانت أنقاض البيوت المخربة منذ القـدم تلقى حول القاهرة خارج سورها القديم فتجمّع منها على مر الأيام تلال عالية وصل ارتفاعها الى الخمسين أو الستين مترا ألقيت وراء باب السيدة زينب وابن طولون وباب الوزير والدراسة وبالقرب من باب النصر وحى الحسينية . عدا الأطلال التى كانت داخل المدينة وما آلت اليه أحياء بولاق ومصر القديمة (الفسطاط)

فكانت القاهرة محاطة من معظم جوانبها بتلك الأكوام التى تعكر جوها وتملأ فضاءها بالرياح المحملة بالأتربة وجراثيم الأمراض . ولم تكن الأكوام التى سيأتى ذكرها هي وحدها التى اشتملت عليها القاهرة بينما كنت ترى تلك الأكوام تمتد بين باب الحسينية الى الفجالة حتى باب الحديد ومن قنطرة الليمون تتجه الى موقع محطة السكة الحديدية وتتفرع نحو طريق السبتية حتى تخترق طريق أبى العلاء وتستمر لباب اللوق الى ان تصل لمصر القديمة مارة بالقصر العالى وقصر العينى

وقد حاول السلطان سليم بعد فتحه مصر أن يزيل بعض تلك الأطلال لكنه شغل عنها بتثبيت دعائم ملكه الجديد فلم يعمل شيئا . وظلت تتزايد يوما بعد يوم حتى تولى شئون مصر المغفور له إبراهيم باشا فأمر المسيو « بونفور » مهندسه بأزالة الأكوام الواقعة بين النيل وبولاق ومصر القاهرة والفسطاط وطلب اليه إنشاء متنزهات خاصة مكانها ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال

أقدم المسيو « بونفور » بهمة على تنفيذ ماأمر به ولم تمض ثمانى سنوات حتى أتم ثلث المهمة وتجلت الرياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة ولا سيما الجميز واللبخ حيث كانت تعلو الأكوام التى ترد البصر كليلا

ولما عاد إبراهيم منتصرا من فتوحاته بالشام نفخ من روحه فى تلك الأعمال الأصلاحية فسارت سيرا حثيثا . وأكمل « بونفور » ازالة الأكوام كلها من باب الحديد إلى مصر القديمة غربي القاهرة بأسرها . واختفى التل الكبير الذى كانت تقع عليه طابية المعهد الفرنسى فى بركة قاسم بك . كما أزيل ما كان منها فى الجهة الشمالية الا مابين بابى الفتوح والنصر من جهة والعباسية والظاهر والفجالة حتى باب الحديد من الجهة الأخرى . ولم يكن فى استطاعة غير فاتح عكاء تتميم ذلك العمل الجبار . فأقبلت الأيدى بتأثير أرادته القوية وهمته الشماء تعمل بكثرة واستمرت معاول القطع والجرف فى تلك الدمن المكدسة تنتزعها وتطرحها فى البرك المجاورة لاسيما بركتى الرطلى وطبالة المستنصر حتى تخلصت منها القاهرة وحلت محلها المزارع والبساتين وجففت أيضا أكثر البرك التى كان الفيضان وعدم الاعتناء يحولانها الى مستنقعات تتولد فيها جراثيم الأمراض وبينما كان هذا العمل العظيم قائما امتدت يد الموت العاتية الى تلك القوة الجبارة فاجتثت شجرة حياة ابراهيم وتعطل العمل

قلعة محمد على

رأى محمد على باشا بثاقب فكره أهمية الموقع العالى الذى يخلف قلعة صلاح الدين وتسلطه عليها وعلى القاهرة فأمر ببناء قلعة حصينة على ذروة الجبل وان يتخذ بهـا صهريج لخزن الماء العـذب . فشيدت القلعة بأبراج محصنة وأقام بها الجند المـكلفون بالحراسة ومعهم الذخائر الكاملة والمدافع القوية . ولما زار الماريشال مارمون مصر فى أيام محمد على سنة ١٨٣٣ وصف حالة القلعة فى مذكراته فقال انه لما كانت القلعة (قلعة صلاح الدين) يشرف عليها جبل المقطم شيد « محمد على » على قمتـه حصنا على النسق التركى ليكون فى قبضة يده يتحكم فى هذه القمة . وهذا الحصن مربع ضيق النطاق يستند إلى سور من الحجارة وفى وسطه « برج » - والبرج والحصن مسلحان بالمدافع

أبواب القاهرة

كانت القاهرة فى تلك الأيام المدينة الأولى بين مدن الولايات العثمانية بعد الاستانة شغلت من الأرض ٩٠٠ هكتار ومحيطها ٢٥٫٠٠٠ كيلو مترا . وبلغ تعداد منازلهـا ٣٠٫٠٠٠ بيتا يقطنها ٣٠٠٫٠٠٠ من الأهالى . وذكر « كلوت بك » فى كتابه لمحة عامة عن مصر أن للقاهرة أكثر من سبعين بابا أهم مافى جنوبها : باب السيدة زينب وباب طولون وباب القرافة وفى شرقها باب الوزير وباب الغريب وفى غربها من جهـة النيل باب اللوق وباب الناصرية وفى شمالها باب الحسينية وباب النصر وباب الفتوح . وكان فى القاهرة أربعة ميادين كبيرة هى ميدان قره ميدان وميدان الرميلة بجنوب المدينة وميدان بركة الفيل فى وسطها وميدان الأزبكية فى شمالها الغربى

وكان لايزال فى القاهرة نحو ألف وثلاثمائة وكالة وفى نواح متفرقة من المدينة نحو ألف ومائتا قهوة وثلاثمائة صهريج وسبعون حماما أشهرها فى الاتساع وفخامة البنـاء وحسن الرياش حمام يزبك وحمام السلطان وحمام المؤيد وحمام الطمبلى وحمام مرجوش وحمام سنقر وحمام السكرية الخ . . .

قصور القاهرة

أما قصور القاهرة فكانت كثيرة منها القديم ومنها الحديث. فكان يحيط الأزبكية من جهاتها الثلاث قصور فخمة مشيدة على النسق الشرقى وقف التاريخ فى بعضها مفكرا أنى يجرى لمجاريه فمنها القصر الذى شاده محمد بك الألفى بعـد هدم ثلاثة غيره لم تقم

طبقا لذوقه . فلما تم بناؤه وجاء وفق مرامه داهمت الحملة الفرنسية الحكم المملوكى وبددت شمله فذهب الألفى بك بعد هزيمة أمبابة يهيم على وجهه خلف مراد بك زعيمه وحلت قدما بونابرت فكان كأنه بنى له . ومنها القصر الذى كان لخسرو باشا عدو «محمد على» اللدود والذى أراد اغتياله مرة تحت ستار الليل ولم يفلح ! والقصر الذى كان لمحمد على



(تصوير الأستاذ حسن أفندى عبد الوهاب)

قصر الجوهرة الجميل بالقلعة

يوم كان لايزال يرتقى درجات سلم طالعه العجيب وحمل فيه زعماء جنده على ان يقسموا له يمين الطاعة العمياء فى كل مايأمرهم به . وأما الجهة الرابعة فكان يشغلها صف بيوت خشبية عالية مظلمة وغريبة الشكل يملكها ويسكن فيها جماعة من الأقباط . وقدشيد

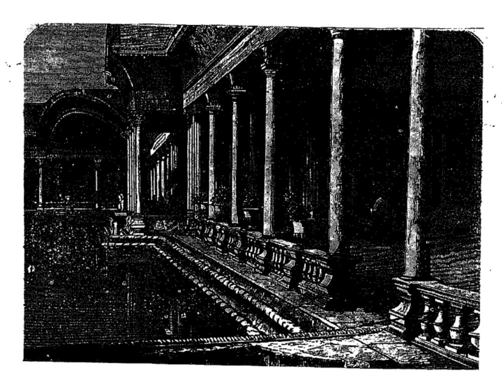
محمد على لابنته زينب هانم قصر الأزبكية وكذلك لابنته نازلى هانم على ساحل النيل هدمه المرحوم سعيد باشا و بنى محله ثكنة قصر النيل . وشيد الفاتح إبراهيم باشا قصر القبة فى طريق الخانقاه حيث كانت قبه الغورى . و بنى فى جزيرة الروضة والمقياس قصرا عرف بقصر المنارة . وشيد المرحوم عباس باشا قصره بالخرنفش وبنى أحمد باشا يكن دارا عظيمة بعطفة عبد الله بك بالمغربلين وجعلها قصرين عظيمين أحدهما للرجال والآخر للحريم . و بنى أبراهيم باشا يكن دارا فى سويقة اللالاه مثل دار أخيه كما بنى أحمد باشا طاهر بالأزبكية سرايه المشهور باسم « ثلاثة و لية » و بنى خور شيد باشا السنارى داره فى عابدين . وشيد المرحوم شريف باشا الكبير قصره على بركة ابى الشوارب و بنى سامى باشا المرهلى قصره بدرب الجماميز الذى تقوم فيه الآن مخازن لوزارة المعارف

هذا الى قصر محمد على الرسمى الذى انشأه بالقلعة وكان يعرف بقصر الجوهرة وكانت تجرى فيه المقابلات الرسمية . وهناك فى شبرا أقام محمد على قصره الخلاب بزهوره ورياحينه المفروسة على أبدع نظام وأجمل تنسيق وكأن محمد على قد أراد ان يجعل منه قصرا من قصور الجنان بجانب تلك المظال الرخامية المتتابعة صفوفها على شكل باقة أزهار تجلت الدقة فى صنعته وتكوينه وأعد لجلوسه أريكة حريرية ليتسنى له فى شيخوخته الوقورة ان يتخيل أنه انتقل الى جنة الفردوس التى أعدها ربه للصالحين

شوارع القاهرة

ولكى يصل بين القاهرة وذلك القصر المنيف بضاحية شبرا مد شارعا جميلا من باب الحديد غرس على جانبيه أشجار الجميز واللبخ . فكان هذا الشارع ملتقى الطبقات الراقية من سكان القاهرة يقصدونه فى عرباتهم الفخمة التى كان يسبقها عادة السواس بملابسهم المزركشة اللطيفة

أما الشوارع التى استحدثت فى قاهرة محمد على فكان لابد من شقها لكى تتحمل توزيع النشاط والحركة داخل المدينة . فوضع تصميما يتناسب مع تطورها الذي ابتدعه وكان لابد من شارع يخترق ناحيتى القاهرة من شرقها الى غربها فكان شارع الموسكى وليد هذا التصميم الذى تم فى أيام مجد أسماعيل . ولما اتسع نطاق التجارة وسكن بجهة الموسكى والأزبكية كثير من الفرنج ونمت الحركة التجارية وازدادت عربات النقل



المظلة الرخامية بقصر شبرا

أمر محمد على باشا بفتح شارع السكة الجديدة وكان ذلك فى عام ١٢٦٢ ﻫ قبل وفاته بثلاثة أعوام . واشتريت الأملاك التى تقابل الشارع فى مروره وعمل له رسم بقلم الهندسة التابع لديوان المدارس وابتدىء فى العمل فى نفس العام المذكور وبيعت الاراضى الزائدة عن حاجة التنظيم لراغبى الشراء ووصل العمل الى قنطرة الموسكى لما توفى محمد على . وفى زمن المرحوم عباس باشا استمر العمل فيه إلى أن وصل إلى شارع النحاسين . وفى زمن الخديو اسماعيل امتد إلى جهة الغريب وزيدت عليه الأرصفة على جانبيه فى أيام توفيق باشا

كذلك أنشأ محمد على باشا طريقا بين القاهرة وضاحيتها بولاق

مياه القاهرة

كانت القاهرة حتى أيام محمد على تستقى رأسا من مياه النيل على أيدى سقائين فوجّه اهتمامه الى هذه المسألة الحيوية وفكر بادىء الأمر فى تعميق قاع الخليج المصرى بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطيان الواقعة شمالى العاصمة فوق انتفاع أهل القاهرة بها لشربهم . لكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك أهمها أن أسس جدران

معظم المبانى القائمة على ضفة الخليج لاتستطيع مقاومة التعميق المطلوب . ففكر فى طرق أخرى كايجاد آلات رافعةعند فم الخليج أوحفر ترعة يكون فمها على بعد كاف فوق القاهرة بحيث اذا مياهها صبّت فى الخليج كفته ماء طول السنة ولكن المصاعب التى قامت دون تحقيق كل ذلك أدت الى الأحجام عن المشروع بتاتا

فلما شيد عباس الأول قصره المشهور فى الصحراء الشمالية « الدار البيضاء » وسميت تلك الصحراء (العباسية) باسمه فكر هو أيضا فى توزيع المياه على القاهرة وتسيير فرع كبير منها الى ذلك القصر وكلف بالعمل « لينان بك » ثم ضم اليه « لامبير بك » والمسيو « بوديسو » فوضعوا المشروع وقدروا نفقات تنفيذه بمبلغ ٣٣٤ و ٦٦٩ و ٣ فرنكا وبدءوا يسورون الأرض ويخطون تصميمات الشوارع التى عزموا على تسيير مواسير المياه تحتها ولكن العمل أوقف لكثرة تكاليفه

وجاء سعيد باشا فأراد أن يهتم بالموضوع أيضا فاتصل بالقنصل الفرنسى لكى يكلف أحد المهندسين الفرنسيين بوضع تصميم جديد للمصادقة عليه فأسس هذا الفرنسى واسمه « كرديبه » شركة وباشر الأعمال التمهيدية لاتمام المشروع ولكن لم ينفذ منه شىء يذكر حتى نفذته مشيئة اسماعيل

فى قلعة صلاح الدين

ان سكنى ولى الأمر فى الأزبكية أى فى قلب العاصمة يجعله أميل الى الاصغاء لمطالب الشعب اذا هاجته خواطره . لأن الأزبكية كانت الميدان الذى تحتشد فيه الجموع اذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج . فاذا ماسكنها ولى الأمر كان أقرب الى رؤية مظاهرات الشعب وأدنى للاستماع الى مطالبه . أما اذا استقر فى القلعة فكأنه يريد أن يمتنع فى قمة الجبل وينظر الى القاهرة كما ينظر النسر المحلق فى السماء الى فريسته على الأرض . وهكذا فعل محمد على . . .

وانك لترى القلعة تربض على ذروة المقطم كما يربض الأسد فى عرينه وهى بأبراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها ويكفيك أن تصعد يوما اليها وتمد بصرك الى مايتناوله الأفق لتتضاءل القاهرة أمامك اذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها وميادينها وقصورها ومبانيها وأشجارها وحدائقها كرقعة صغيرة تكاد تكون فى قبضة

يدك على بسطة ذراعك . وهيهات أن تبلغ سمعك أصوات شعبها مهما علت أو اكتظت به الميادين

انتقل محمد على باشا الى القلعة واتخذها معقلا له حينما قامت فى المدينة فتنة الجنـد الأرناءود . ومنذ ذلك اليوم وهو معتزم ان يستأثر بالحكم لاينازعه فيه منازع فأخمد فتنة الجند وتخلص من زعامة الشعب وقضى على المماليك

وأعمال محمد على فى قلعـة صلاح الدين يجب تخليدها فى سيرة أخرى . فكأنها أنشئت فى عصره من جديد . أو عادت اليها الحياة ودبت فيها روح النشاط بعد مااحتملته على أيدى ولاة الأتراك من ظلم وهوان . أوشكت فى عهدهم المظلم على الخراب والدمار فأنقذها محمد على وأزال مافيها من الأنقاض وأصلح أسوارها وأعاد اليها قوة أبراجها وفخامة أبوابها . وشيد قصر الجوهرة وأقام لله مسجدا . وبنى ثكنات الجند وديوانا للنظار وبيتا لضرب المـال ومصانع للذخيرة . واشتهرت القلعة بترسانتها التى عظمت واتسعت ارجاؤها لاسيما بعد عام ١٨٢٧ فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانكشارية المطل على ميدان الرميلة . وكان أهم مصانع الترسانة وأكثرها عملا معمل صب المدافع تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع أوأربعة من عيار أربعة وثمانيـة أرطال وصنعت فيه مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع قطرها ٢٤ بوصة

ولمـا زار المـاريشال « مارمون » ترسانة القلعة سنة ١٨٣٤ أعجب بنظامها وأعمالها وقال عنها « إن معمل القلعة يضارع أحسن معامل الأسلحة فى فرنسا من حيث الأحكام والجودة والتدبير »

وكان يشرف على ادارة هذه الترسانة العظيمة أحد الضباط الأكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية هو اللواء ابراهيم باشا أدهم

استطاع محمد على العظيم بهمته العالية أن يعيد للقلعة أيام مجدها الأولى . مجد القرون الوسطى وأبهة المماليك البحرية وسكنها الموظفون والجند والصناع . لكن بعد أن استقر محمد على فى قصر الجوهرة عدة سنين انتقل الى قصره بشبرا كما كان يقضى بعض أيام فى قصر مراد بك فى الروضة بعد ان اطمأن إلى استتباب ملكه وأمن إلى رجاله المخلصين الذين أقاموا فى القلعـة بالنيابة عنه للأشراف على أعمال دولته الناشئة . ولم يكتف محمد على بمصنع البنادق فى القلعة بل انشأ فى الحوض المرصود حوالى سنة ١٨٣١ معملا آخر اصنع البنادق وكان من قبل معدا للنسيج وعهد بإدارته الى رجل ايطالى

اسمه « المسيو ماريتجو » وتسمى باسم على أفندى . و بلغ عدد عمال الحوض المرصود حوالى سنة ١٨٣٧ ألف ومائتى صانع ورؤساء عمل يصنعون فى الشهر نحو تسعمائة بندقية من مختلف الأنواع

وأنشأ محمد على بجوار القلعة الدفترخانة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها وكانت من أجل منشآته ولاتزال قائمة فى محلها لليوم

بولاق والسبتية

نظر محمد على بثاقب بصره فرأى ان المدن الكبيرة كلندن وباريز لها أحياء خاصة بالصناعات الكبيرة فعمل على أن يكون أيضا للقاهرة حى للصناعات المهمة فأين يقيمه ؟ وجد أخيرا أن يقيمه بين شبرا وبولاق فى المكان المعروف اليوم بالسبتية

أقام فى بولاق مسبكا للحديد فى بناء مشيد تشييدا فخما تكلف نحو ستين ألفا من الجنيهات ووضع تصميمه المهندس الانجليزى « مستر جالو يه » الذى أشرف على العمل فيه بمساعدة خمسة من العمال الأنجليز تحت اشراف القائمقام ابراهيم بك أدهم (باشا فيما بعد) وكان يصب فى هذا المسبك حوالى خمسون قنطارا من الحديد كل يوم وأنشأ أيضا مصنعا آخر سمى مصنع مالطه عهد بادارته للسيو « جوميل » وأعده لغزل القطن ونسجه إلى أقمشة مختلفه و بلغ عدد دواليب الغزل فيه ٢٨ دولابا و ٢٤ آلة تدار بواسطة أربعة عشر طنبورا تحركها آلة يجرها ثمانية من الثيران . وكانت تحتوى على ورش للتجارة والخراطة والحدادة . وكان بالقرب من هـذا المصنع مصنعان آخران لغزل القطن عرف أحدهما بمصنع ابراهيم أغا والآخر بمصنع السبتية

وأنشأ فيما بين بولاق وشبرا على شاطىء النيل عمارات ومنازل خلوية وحظيرة واسعة أطلق عليها اسم « المبيضة » وفيها كانت تبيض الأقمشة التى تصنع فى المعامل بالأساليب الصناعية الحديثة . وأنشأ مصنعا للجوخ على شاطىء النيل امتاز بجودته . وأزال محمدعلى أنقاض بولاق وخرائبها وحوّلها إلى حى صناعى راق . وقامت فيه الورش والمصانع والمسابك والمخازن ومساكن المهندسين . وكل من شاهد بولاق فى أول القرن التاسع عشر ثم زارها فى أواخر أيام محمد على يدهش كثيرا كيف تم لها هـذا التحول

العجيب . وقدوصف هذا التحول الرحالة الانجليزى « تيلور » (١٧٣٩) وزميله الفرنسى كومب (١٨٤٧) وأعجب الأثنان ببولاق وبنشاط حركتها القائمة وتطور حالها . وعلى العكس منها كانت مصر القديمة سائرة فى طريق التدهور فشلت حركتها وبدأ عدد سكانها يتضاءل ولم يبق فيها الا بعض مخازن الحبوب التى كانت تصلها من مديريات الوجه القبلى

جزيرة الروضة وبركة الفيل

وعاد العمران إلى جزيرة الروضة فبنى أمراء الدولة فيها قصورهم وأقاموا بساتينهم العامرة بالأشجار والأزهار ففى جهتها القبلية أقيمت سراى حسن باشا المناسترلى بالقرب من المقياس . وفى الجهة البحرية أقيم البستان الكبير الذى أعده المرحوم القائد ابراهيم باشا للنزهة وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترددون على ذلك البستان فى أيام شم النسيم وكان يحتوى على الأشجار المتنوعة الغريبة المجلوبة من البلاد البعيدة وعلى أصناف الحيوان والطيور كما كان به خلجان تجرى فيها المياه ومغارة صنعت من الودع وخميلة من الأشجار والحشائش والأزهار . وعلى الحد الشرقى للجزيرة كانت قصور الأمراء وبساتينهم كقصر سليم باشا الجزائرلى وبستان المندورة وأرض الست البارودية وبها جامع وضريح سيدى ابن يزيد البسطامى ثم أرض حسن باشا يكن وبستان شاكر بك وبستان وقصر على باشا شريف وبستان وقصر ذى الفقار باشا ثم سراى وبستان الخديو اسماعيل والطريق الموصل الى جامع قايتباى الكائن بوسط الجزيرة يفصل هذه السراى عن سراى والدة المرحوم عباس باشا وأرض الدوق إدمون

والحد الغربى للجزيرة المقابل لمدينة الجيزة يليه من الجهة القبلية قصر أمين باشا ثم يليه أرض حسين باشا يكن ثم أرض على باشا شريف ثم أرض للخديوى اسماعيل ثم أرض احمد باشا المنكلى (ناظر الحربية) ومنزل وبستان خليل بك

وأقيم معمل للبارود فى المقياس بطرف الجزيرة وكان بناؤه فسيحا ومناسبا وبعيدا عن المساكن وتولى إدارته فرنسى اسمه « مسيو مارتل » وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملا موزعين على أقسام العمل المختلفة

أمر محمد على بردم بركة الفيل التى وضعها الرحالة المشهور ابن سعيد وكانت من أعلام القاهرة القديمة فجىء لها بأتربة التلال القريبة والأنقاض المجاورة وغرس على حافتها الأشجار وزرع البساتين وشيد بالقرب منها قصرين عظيمين عرفا بقصر الحلمية ودرب

الجاميز . و بنى أتباعه البيوت الكبيرة وانتشرت أملاك رجاله . فأصبح سكان ذلك الحى من الأرستقراط والخاصة . وكان إلى عهد غير بعيد تسكنه أسر الأتراك والشركس ثم اختفت على مر الأيام القناة التى كانت تغذى البركة بالمياه

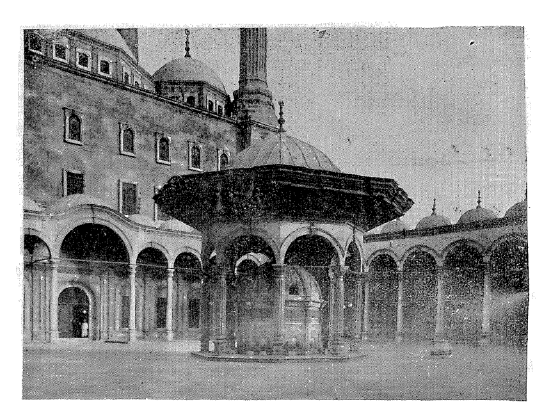
جامع محمد على باشا

ومن مؤسسات المرحوم محمد على باشا بالقاهرة جامعه العظيم فى القلعة . فقد بدأ عمارته سنة ١٢٤٦ هـ بعد انتهائه من تنظيم القطر المصرى وبعد ان انتهى من فتوحاته الخالدة. وقد اختار لبناء هذا المسجد قلعة مصر لكى ينتفع موظفو الدواوين والقصر باقامة الصلوات وأعد له قطعة من الأرض متسعة كانت بها آثار مبان باقية فأمر بازالتها ووضع أساس مسجده عليها . وقد تم رسم المسجد طبق مسجد نورعثمان بالآستانة وجامع سيدى ساريا بالقلعة وعمل له أربعة أبواب من الجهة البحرية بابان أحدهما للصحن والثانى للقبة ومن الجهة القبلية بابان أيضا وقد زينت جدرانه بالمرمر النفيس

وانتقل المرحوم محمد على باشا إلى رحمة الله تعالى قبل اتمام بناء المسجد فدفن فى مقبرة أمر بعملها له نقرا فى الجبل وباشر عملها بنفسه قبل موته . ولما تولى بعده المرحوم عباس باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ أمر باتمام هذا المسجد فأحضر أرباب الصناعات ونقشوا الأكتاف بعد بياضها وطلائها بلون الرخام و بلطت أرضية المسجد وطليت قبابه ونقشت الآيات القرآنية على قبابه ومحرابه بالخط الثلث المحلى بماء الذهب وعملت قضبان من الحديد علقت بسلاسل نحاسية ثبتت بالقباب والعقود و وضع بها أربعمائة وثمانية عشر تنورا من البللور لايقادها بالمواسم وليالى الأعياد ووضعت بالقبة الكبيرة نجفة من البللور النفيس باثنين وسبعين فنارا ونجفة أمام المحراب بثلاثة وخمسين فنيارا وأخرى أمام باب القبة من جهة الصحن بتسعة وخمسين فنارا ونجفة أمام باب القبة البحرى بأربعة وعشرين فنيارا ثم أمر باستحضار تركيبة وستر من الاستانة ووضعا على المقبرة . ثم أمر عباس باشا بعمل مقصورة من النحاس الأصفر فعملت حول المقبرة و وضع بداخل المقصورة سبعة شمعدانات من الفضة ارتفاع كل واحد متران و وضع بها عدة مصاحف محلاة بالذهب

جامعا عمرو بن العاص والسيدة زينب

وعنى محمد على باشا بأمر اصلاح مسجد عمرو بن العاص . وقد كتب « أورلبار » سنة ١٨٤٥ يقول : « والاعمال جارية فى عمارة المسجد وترميمه واصلاحه اصلاحا



جامع محمد علی باشا



الخليج المصرى كما كان فى منتصف القرن التاسع عشر

شاملا بأمر الباشا الحالى » . ووصف « جيرول دى برانجى » هذه الاعمال بقوله : « وفى سنة ١٨٤٥ رأيت العمارة قد شملت ثلثى المسجد من بلاطه الى سقفه والحفر جار بصحنه . . . . الخ » ومن المحتمل ان رواق المسجد القبلى أخذ شكله الحالى منذ هذه العمارة كما يظهر ذلك من الاطلاع على صورة شمسية أخذها فينار سنة ١٨٥١ قد تكون أول صورة شمسية أخذت للمسجد

ولما استقرت ولاية محمد على باشا على مصر اهتم بتجديد مسجد السيدة زينب واصلاح ماتهدم من أجزائه . وكان قد ابتدأ فى تعميره الأمير عبد الرحمن كتخدا القازدغلى فى جملة عمائره فى سنة ١١٧٤ هـ إلى أن ظهر به خلل فانتدب لعمارته عثمان بك المعروف بالطنبورجى (١٢١٢ هـ) فهدمه وكشف انقاضه وشرع في بنائه . وفى أثناء العمل دخل الفرنسيون مصر فوقفت العمارة حتى دخل العثمانيون البلاد أثر خروج الفرنسيين . ولما انتهى الأمر لمحمد على باشا شرع فى أكمال أصلاحه وتسقيفه فتم على أحسن حال وزخرفت جدرانه بالنقوش وصليت به صلاة يوم الجمعة فى ١٤ ربيع الثانى عام ١٢١٧ هـ وقد حضرها محمد على باشا والدفتردار وبعد انتهاء الصلاة أهدى الباشا خلعة الى الشيخ محمد الأمير المالكي

وقد زاد في نقوشه المغفور لهما عباس باشا وسعيد باشا فيما بعد على يد ناظر الأوقاف المرحوم ابراهيم باشا أدهم . وفى عهد الخديو توفيق باشا جددت أجزاء كثيرة من المسجد أهمها القبة الكبيرة فقد زيد فى اتساعها وفرغ من بنائه وزخرفته عام ١٣٠٤ هـ فجاء مسجدا جميل الشكل بديع الحسن

دور الكتب

لم يكن فى القاهرة أيام محمد على دور عامة للكتب كالتى نراها اليوم ولكنه كان فى كل مسجد مكتبة خاصة تحت إشراف شيخ المسجد . فمكتبة الأزهر اشتملت على عدة آلاف من الكتب الدينية كما كان الحال فى مكاتب مساجد محمد أبى الذهب وأزبك وشيخو . وكانت أكبر المكاتب الخصوصية فى القطر المصرى مكتبة سمو الأمير ابراهيم باشا الفاتح . . فقد احتوت على ثمانية آلاف مجلد وقيل انه لما عاد من فتح المورة واليونان جلب معه مالايقل عن ٥٠٠ و ١ كتاب كانت فى مساجدها وأودعها فى القلعة وكان يمتلك « حبيب افندى » محافظ القاهرة مكتبة عظيمة اشتملت على خمسة آلاف كتاب أو أكثر

وقد كان من أعظم مآثر محمد على فى مصر انشاؤه المطبعة الأميرية ببولاق حيث طبعت مئات الكتب والرسالات فى شتى العلوم والفنون الحديثة

مشاهد القاهرة

ولقد شاهدت القاهرة فى أيام محمد على كثيرا من الحوادث العظيمة المتصلة بتاريخ مصر فقد خرجت الجيوش المصرية تحت قيادة الفاتح ابراهيم الى بلاد العرب وفلسطين والشام وآسيا الصغرى واليونان والسودان

استيقظت القاهرة بعد نوم عميق دام ثلاثة قرون لم تر فيها جيشا من ابناء البلاد حتى ولى أمورها محمد على باشا فأسس الجيش المصرى الحديث وأصدر أوامره بخروج المجندين الى ميادين التعليم خارج باب النصر حيث قبة العزب فخرجوا فى ثلث الليل الأخير وابتدءوا فى التمرين على الرماية وضرب النار ثم عادوا الى المدينة فى احتفال عظيم فزحموا الطرقات بخيولهم واستقبلتهم الجماهير بالأعجاب والحماسة لأنهم لم يروا قبل ذلك اليوم جنودا من أبناء جلدتهم يزاولون الحرب كالعثمانيين والألبان والمماليك

وفى اليوم التالى خرج محمد على باشا قاصدا بولاق وجمع جنود ابنه اسماعيل باشا ونظمهم على الطريقة التى عرفت بالنظام الجديد . وشاهد تدريبهم على أيدى الممرنين الأوروبيين . فلما أتم عدته وجهز جيوشه شاهدت القاهرة الجيوش المصرية تخرج منها وتعود اليها تحمل ألوية النصر .

حفلات زواج الأمراء

وفى عام واحد (١٢٢٩ ه) شاهدت القاهرة حفلتى زواج الأمير اسماعيل باشا كامل نجل محمد على باشا بابنة عارف بك التى أحضرها من الأستانه . وزواج الدفتردار من ابنته زينب هانم . ففى الحفلة الأولى كلف كتخدا بك (محافظ القاهرة) السيد محمد المحروقى كبير تجار القاهرة بتنظيم الأفراح واتفق على أن تكون مهرجاناتها ببركة الأزبكية تجاه بيت حريم محمد على باشا وطاهر باشا على ان يجتمع المدعون فى بيت الأخير وتدار المطابخ فى خرائب بيت الصابونجى . وأرسلت أوراق الدعوة للمدعوين وأقيمت فى وسط البركة عدة صوارى لتركيب القناديل والمصابيح ونصب حبل لبهلوان امتد بين بيت الباشا إلى رأس مأذنة كانت بجهة حارة القوالة واجتمعت طوائف اللاعبين والموسيقيين والحواة

والقراداتيه والرقاصين . واستمر اللهو عـدة أيام لبست القاهرة اثناءها حلل الزينة والابتهـاج

وفى اليوم المعين لزواج الأميرة زينب هانم حضر حريم الباشا من بولاق الى الأزبكية فى عربات مقفلة فدوت المـدافع لهن واقيمت الولائم واعدت العربات الفخمة لنقـل المدعوين ـ وفى يوم الزفاف سارت العربات والموكب من ناحية باب الهواء تقصد قنطرة الموسكى فباب الخلق ثم درب الجماميز وعطف من الصليبة على المظفر فالسروجية فقصبة رضوان بك فباب زويلة فشارع الغندورة فالجمالية الى سوق مرجوش فبـين السورين فالأزبكية حيث كان منزل العروسين

وقد طبق الجو بالغيام لمـا توسط الموكب المدينة وأمطرت السماء فتوحلت الأرض وابتل السائرون والمتفرجون واختـل نظام الاحتفال . ولم تصل العروس الى دارها الا قبيل دنو الشمس من غروبها ثم أنجلى الجو

وفى نفس العام خرجت زوجة الباشا للحج فمرت تحت باب النصر فى محفة عظيمة وحضر لوداعها ابنها ابراهيم باشا من الصعيد مع أخيه اسماعيل باشا وفى صحبتها الدفتردار وطاهر باشا وصالح بك السلحدار وغيرهم من أفراد الأسرة المحمدية العلوية

المستر لين وكلوت بك

بين الشخصيات الفذة من الأجانب الذين أقاموا فى القاهرة فى أيام حكم محمد على المستر « أدوارد وليام لين وكلوت بك » قام الأول وحده بما لم يسبقه فيه غيره من علماء الأوربيين فقدم آداب المصريين وعوائدهم واخلاقهم وبيوتهم لأوربا . وأدخل الثانى إلى مصر الطب الحديث كما عرفته أوربا فى ذلك الحين . والواقع أن الاثنين أتما عمل بعثه نابليون بونابرت علما وثقافة . عاش الاثنان فى القاهرة معيشة المصريين وامتزجا بهم وابتعدا عن أبناء جنسيتهما وقضيا فى بيتيهما حياة دراسية وبحث وقد قيل ان « لين » أسلم وسمى نفسه منصور افندى فكان يرتدى الملابس الشرقية والعمامة ويدخل المساجد ويزوره أصدقاؤه المسلمون فى بيته بباب الخلق وترك ذقنه تنمو على طريقة مشايخ الطرق واتخذ اثنين من المدرسين ليتقن عليهما اللغة العربية فاستطاع ترجمة ألف ليلة وليلة ثم ألف قاموسا فى اللغة العربية

أما كلوت بك فقد كان أول من أدخل العلوم الطبية الحديثة إلى مصر وكان أول من شرّح الجسم الانسانى أمام طلبة مصريين فى القصر العينى . عهد اليه محمد على تنظيم

الأدارة الصحية للجيش المصرى وجعله رئيس أطباء الجيش . وقد أشار على الباشا بانشاء مستشفى عسكرى فى أبى زعبل فنفذ اقتراحه . وفى عام ١٨٢٧ أنشأ مدرسة الطب الأولى التى صارت مبعث النهضة الطبية فى مصر

سليمان باشا الفرنساوى

وكان الكولونيل سيف من ضباط جيش نابليون وانصرف عن الجندية إلى الزراعة وما لبث أن قدمه أحد أصدقائه « الكونت دى سيجور » الى محمد على باشا فجاءها سنة ١٨١٩ فعهد اليه بالبحث عن الفحم الحجرى بأسوان ولما عزم على تأليف جيش مصرى على النظام الحديث وجد فى تلك الشخصية الفرنسية ضالته . ولم يلبث الكولونيل سيف أن أخذ فى تعليم الجند حتى أتم تعليم فرقة استعرضها فى ميدان الرميلة بحضور محمد على باشا وأعيان البلاد ــ ومنذ ذلك الحين أخذ على عاتقه ترقية الجيش المصرى وجعله الاداة الرئيسية التى حقق بها محمد على باشا امبراطوريته العظيمة

شاتو بريان والكونت دى فوربان

فى اليوم العشرين من أكتوبر عام ١٨٠٦ فى أوائل سنى ولاية محمد على باشا وصل الأديب الفرنسى « شاتو بريان » فاستقبله على ميناء الاسكندرية القنصل الفرنسى « المسيو دروفتى » ورحل إلى رشيد حيث قضى بضعة أيام ثم استأجر سفينة نيلية أقلته إلى بولاق . واستضافه أياما المسيو « فيلكس منجان » (Felix Mengin) مؤلف كتاب « تاريخ مصر تحت حكم محمد على » الذى صحبه فى أكثر نزهاته فى القاهرة وأرباضها كالمطرية ومصر العتيقة

وفى اليوم التالى لوصول شاتوبريان القاهرة طلب السماح له بمقابلة الوالى بقصر الجوهرة بالقلعة وكان الباشا غائبا فناب فى استقباله أحد أبنائه الأمراء ويحتمل أنه كان الامير « ابراهيم باشا » . ثم خرج شاتو بريان عقب الزيارة فبهره منظر القاهرة من ذلك العلو الشاهق . . وأمامه النيل والصحراء والأهرام والمآذن والقباب

وزار شاتو بريان جزيرة الروضة التى عنى بوصف جمالها المسيو « سافارى » ولا سيما حدائقها الغناء . ورأى الاهرام تقترب منه كما وجد نفسه على حافة الصحراء برمالها الذهبية . هناك على مسافة ليست بعيدة عنه الصحراء وآثار سقاره وميدان معركة الأهرام . فأوحى اليه خياله الخصب وهو جالس تحت أشجار النخيل والجميز والسنط مادونه عن رحلته فى مصر فى أثناء تلك الفترة التى بدأ فيها نجم محمد على يصعد إلى السماكين

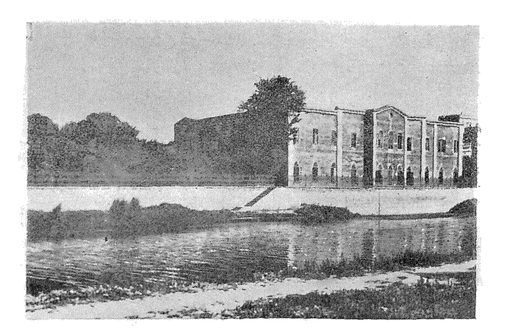
وبعد عشرة أعوام من زيارة شاتوبريان مر بمصر فى أواخر عام ١٨١٧ الكونت دى فوربان (De Forbin) أثناء رحلته فى البحر الأبيض المتوسط وسوريا . وقد وصف فى كتابه مدينة القاهرة وصفا سريعا بعد زيارة مساجدها وحماماتها ووكالاتها وأسواق الرقيق وقد اشترى فتاة جركسية جميلة دفع لصاحبها ستة آلاف جنيه

كان محمد على باشا فى الاسكندرية لما وصل « دى فوربان » إلى القاهرة . وكان كتخياه محمد بك لازوغلى قائما بأعماله . فلما طلب من القنصل الفرنسى المسيو « روسيل » مقابلة محمد بك اقترح عليه أن يذهبا سويا . وفى اليوم المعين بدأ الموكب من القنصلية الفرنسية بالأزبكية وامتطى الاثنان جوادين مطهمين بالفضة يحف بالموكب الشاوبشية والقواصون والسياس والضوية . فلما وصلا إلى القلعة كان ينتظرهما الكتخيا فى قاعة الاستقبالات الكبيرة وحوله حاشية من المماليك والضباط الألبانيين ثم جلسا على الوسائد فى الديوان وبالقرب منهما جلس الكيخيا بك ووقف المترجم فتبادلوا التحيات وقدمت لهما النارجيلات المرصعة بالماس ثم جلبت القهوة وتجاذبوا الأحاديث مدة نصف ساعة . وقد خلع الكتخيا على القنصل الفرنسى خلعة الشرف وأهدى الكونت جوادا عربيا امتطاه فى عودته . وبعد انتهاء الزيارة عادا بموكبهما الحافل إلى حى الافرنج

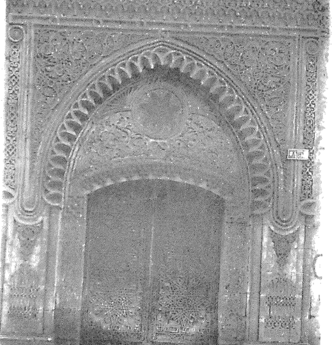
وبعد عودة الكونت من الصعيد قصد الاسكندرية ونجح فى مقابلة الباشا فى قصره العامر برأس التين وكان جالسا فى قاعة الاستقبالات العظيمة يحف به رجاله العظام . وعلقت على أحد جدران القاعة صورة لخليفة المسلمين ثم تناولا الحديث عن العلاقات الودية بين مصر وفرنسا وتكلم محمد على عن مشروعاته العظيمة التى أعدها للبلاد والصعاب التى يقاومها كل يوم من الدول لانشاء مصانع الأسلحة والمسابك ولكنه صرح بعزمه على تنفيذ كل رغباته ولاسيما ما اختص بتحصين السواحل بالقلاع والحصون وتجهيزها بالمدافع

« الكونت ماركيلوس »

وفى عام ١٨٢٠ جاء مصر الكونت « ماركيلوس » الفرنسى وتعرف بالكولونيل سيف وتلازم الاثنان كصديقين . وهذا الذى أتاح له القدر أن يكون فيما بعد القائد المسلم « سليمان باشا الفرنساوى » قدم صديقه الجديد إلى نخبة من رجال فرنسا فى مصر ومنهم المهندس المعمارى « باسكال كوست » الذى زار معه جميع أنحاء القاهرة . وكان بيت القائد العام للجيش المصرى فى مصر القديمة مجمعا لأهل العلم والفن من أبناء فرنسا منهم « جولز بلانا » وهو راس فيرنيه ومارمون . وجسكيه . وآمبير و لوفيرن و بارديو وفلوبر ومكسيم دوكام وغيرهم



قصر سليمان باشا الفرنساوى
على شاطىء النيل
وكان مجتمع العلماء والقواد
والفنانين الفرنسيين



باب القصر المزخرف

وحظى ماركيلوس قبل رحيله من مصر خطى بمقابلة محمد على باشا فى قصره بالاسكندرية فودعه الباشا كما استقبله وبالغ فى الترحيب به وتحدث اليه عن تجريدته الأخيرة إلى سيوة التى أخمد ثورتها الدفتردار . وسأله الباشا عن حالة استحكامات سوريا وحصون عكا . وفى المقابلة الختامية خلع عليه الباشا هدية ثمينة لا تقدر بمال . فان سمو الوالى كان يضع دائما سيفه المرصع بالجواهر بقلائده الذهبية الى جانبه فخلعه وألبسه الى الكونت ماركيلوس

وجاء بعده نخبة من الرسامين المشهورين منهم دوزا والأثريان كالبارون رينوار وشامبوليون الكبير مستكشف الهيروغليفية والمؤرخ جوزيف ميشو (١٨٣٠) وأخيرا جماعة « سينت سيمون » (١٨٣٣ - ١٨٣٦) الذين قاموا فى مصر بعدة أبحاث فى طليعتها قناة السويس والقناطر الخيرية . وكان لابحاثهم الفنية أثر يذكر فى تطور النفوذ الفرنسى فى مصر تطورا نما وزاد ظهورا فيما بعد

المارشال مارمون

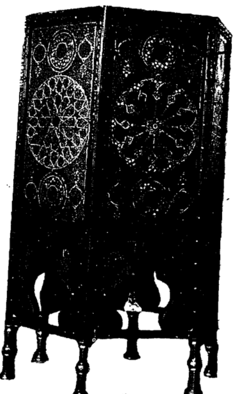
وفى ١٢ أكتوبر عام ١٨٣٤ وصل ماريشال فرنسا العظيم مارمون (Marmont) مصر فكانت خاتمة رحلته الطويلة فى شرقى أوربا وآسيا الصغرى والشام

لما وصل الماريشال الى مصر أمر محمد على باشا باستقباله استقبالا رسميا يليق بشهرته العسكرية فأرسل اليه عربتين فخمتين وصلتا اليـه حديثا من فينا . واصطف الجنود المصريون على جانبى الطريق لتأدية التحية العسكرية . واستقبله الباشا أمام القصر وسار بجانبه حتى دخل قاعة الاستقبالات وأجلسه الى جانبه . ولم يكن معهما فى تلك المقابلة غير اثنين هما ناظر الأمور الخارجية بوغوص بك وابن اخته توبار الذى كان يترجم بين الباشا والماريشال . وفى الليل اقيمت حفلة عشاء ساهرة لتكريمه ثم افـترقا صديقين حميمين واتفقا على اعادة اللقاء

وفى صبيحة اليوم السابع والعشرين من نوفمبر ١٨٣٤ زار الماريشال مارمون القائد سليمان باشا الفرنساوى فى قصره الجديد بمصر القديمة فاستقبلته فرقة الموسيقى العسكرية بنشيد المارسيليز والباريزيين . وكان سليمان باشا ينتظر قدوم زميله القـديم فى جيش الأمبراطور فعادت بهما الذكريات القديمة الى انتصارات نابليون فى النمسا وايطاليا وبروسيا وأسبانيا . . والى الحملة المصرية . . والى عام ١٧٩٨ وتذكرا كيف تغـيرت ملامح القاهرة . . بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٣٤

وكانت القاهرة لما زارها مارمون تزخر بالمدارس العسكرية والمصانع الحربية وثكنات الجند . وكان سليمان باشا يصحب الماريشال اثناء زياراته لمشاهدة أعلام القاهرة وآثارها المجيدة . ثم قصد مارمون الوجه القبلي يحمل مجلد رسائل شمبليون عن الآثار المصرية فزار الفيوم وطيبة ووادي الملوك وقصد بعض مناطق البحر الأحمر ودير القديس بولس ثم عاد الى القاهرة بعد ستة أسابيع

كانت عودته فى شهر رمضان المعظم فكان يرى ذاهبا عقب العشاء الى قصر الجوهرة بالقلعة حيث يجلس مع الوالى للتحادث فى مختلف الشئون الدولية والادارية والعسكرية والبحرية ويدخنان النرجيلة ويشربان القهوة اللذيذة فى فناجين الذهب البديعة . وفى المقابلة الأخيرة طلب سمو الباشا من المار يشال ان يقبل منه تذكارا لتعارفهما فقدّم اليه علبة لطيفة الصنع مرصعة بالماس والجواهر وجوادا عربيا مطهما بطقم من الفضة . واحتفل بتوديعه رسميا أمام قصر سليمان باشا على النيل بحضور أهم الشخصيات الفرنسية ورجالات البلاد وركب فرقاطة عسكرية عائدا الى فرنسا



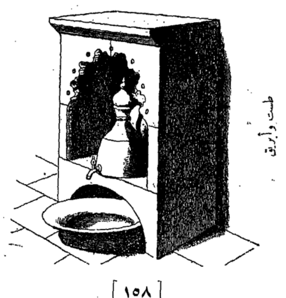
كرسى عربى بمجموعة دار الآثار العربية

بريس دافن Prisse D'avennes

وآخر طائفة العلماء الذين وفدوا على القاهرة فى أيام محمد على باشا مغامر فرنسى أدعى الأسلام وتخلص من جنسيته وحارب فى بلاد الأغريق والصعيد وسوريا ثم قصد الهند وعاد منها للاقامة فى فلسطين . وهو « بريس دافين » وذلك إن محمد على باشا استقدم لفيفا من علماء أوربا لتنظيم مرافق دولته ورفع شئون التعليم والصحة والزراعة والرى والجيش .
وفى عام ١٨٢٩ كان بريس دافن مهندساً للرى ثم مدرسا للطبوغرافية فى مدرسة اركان الحرب بالخانقاه ومشرفا على تربية أبناء ابراهيم باشا . وفى ذلك الحين قدم هذا الشاب العالم عدة اقتراحات مهمة فى مقدمتها مشروع تجفيف بحيرات شمال الدلتا للانتفاع بأراضيها الشاسعة وبناء قنطرة على النيل بين الروضة وبساتين ابراهيم باشا وكأن مراميه الواسعة لم تقتصر على جعله استاذا او مهندسا فقد أجاد العربية ودرس اللغة المصرية القديمة وشغف ببحث الآثار القديمة فشغل عن وظائفه وأخيرا طلق منصبه فى الحكومة ليغذى مواهبه بالتعمق فى دراسة العاديات فارتدى عباءة شرقية وعاش عيشة الفلاحين باسم أدريس افندى وبدأ تنقلاته بين بلاد الوجهين البحرى والقبلى وبلاد النوبة وألف كتابه « نزهة نيلية فى الجزء الشرقى من الوجه البحرى » واشترك مع عالم انجليزى فى حفريات طيبة بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٣ وأخرجاسويا للعالم ما كان مستورا فى الأجيال الطويلة

وكان « بريس » فنانا مبدعا فى الآثار العربية وكتابه النفيس فى العمارة العربية لايزال حجة نادرة ومرجعا ثمينا يعود اليه علماء اليوم

فاذا كان للقاهرة أن تفخر اليوم بعلماء الفرنسيين الذين مروا بها واتخذوها وطنا ثانيا فأنها تجد فى « بريس دافين » عالما ثقة ومستشرقا مخلصا ومحبا للشرق ولا سيما مصر



طست وأبريق

قاهرة الخديو اسماعيل

اسماعيل العظيم – الأزبكية – خليفة المسلمين فى القاهرة – قصور القاهرة – حديقة الأورمان – الاسماعيلية – شارع محمد على – شارع شبرا – شارع الفجالة – النيل واسماعيل – تماثيل القاهرة – اسماعيل ومساجد القاهرة – القلعة – الآثار الفرعونية والعربية – دار الرصد والاحصاء – قاهرة الجيش – تنظيم الشرطة – الجمعيات العلمية – مدارس القاهرة دار الكتب – حفلات القاهرة – ملاهى القاهرة – ضيوف القاهرة – رجالات القاهرة خاتمة الفصل

إسماعيل العظيم

جاء اسماعيل باشا بهمته الماضية وعزم على ادخال الأصلاحيين الاجتماعى والصحى على قاهرة المعز لدين الله مع بقائها على ماهى عليه من ذاتية القرون الوسطى بفروسيتها وتقواها ورأى فى الوقت نفسه أن ينشىء قاهرة أخرى غير الموجودة يدعوها العصران الحاضر والمستقبل « قاهرة اسماعيل » تمتاز بشوارعها الفسيحة وميادينها الواسعة ذات الفسقيات الجميلة وقصورها الأنيقة المشيدة على الطرز الحديثة و بساتينها الزاهية وأحيائها الممتعة

تمثال الفاتح ابراهيم باشا

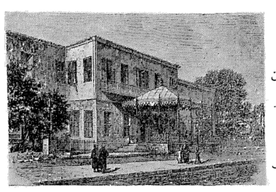
أمر بأزالة مابقى شمالى قاهرة المعز من أكوام الانقاض و بردم مازال غير مطمور من المستنقعات والبرك الآسنة وتنظيف مابين بابى الفتوح والنصر وقلعة الكبش والسيدة زينب من شوارع وأزقة ودروب وأسواق بتعميم الكنس والرش . وخطَّ ما بين الظاهر وباب الحديد الشارع المسمى الآن بشارع الفجالة وخطَّ أيضا بين باب الحديد والأزبكية الشارع الذى أطلق عليه اسم كلوت بك لا لتكريم الطبيب الفرنسى فحسب لكن للدلالة على ان الأصلاح الصحى سيسير من شمالى المدينة الى جنوبها و يتناول بذراعيه شرقها

وغربها ثم خط جنوبى الأزبكية بشرق الى القلعة الطريق الفخم الذى أطلق عليه اسم جده العظيم فأصبح السبيل الى القلعة سهلا أمينا بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق التى يتبعها المحمل سنويا منه الى الحسينية وعرا كثير التعرجات والمنعطفات .
وفى أيام اسماعيل العظيم تم امتداد شارع السكة الجديدة الى جهة الغريب وكان قد بدأه محمد على باشا سنة ١٢٦٢ هـ . كذلك خط شارع عابدين الذى ابتدأ من منزل راغب باشا الى شارع غيط العدة وهدم فى سبيله الكثير من المنازل والزوايا الصغيرة

الأزبكية

ولما عاد اسماعيل العظيم عام ١٨٦٧ من باريس أقدم على الأزبكية يريد تحويلها على شاكلة حدائق تلك العاصمة فخرج الى الوجود بستان من أبهج المنتزهات ومكان بديع تنيره الأنوار الغازية وتزينه الفسقيات والمناظر الصناعية وتتلوى فيه البحيرات الصافية تبلغ مساحته ثمانية عشر فدانا وأحاطه بسور جميل له أربعة أبواب كبيرة مازلت تراها لليوم وجىء لهذا البستان بأشجار من الصين والهند والسودان والمناطق الاستوائية .وغرست فيه الأحراش الغزيرة والأنواع المختلفة من الحشائش والأزهار ووضعت فى بركته انواع عديدة من الطيور المائية والأسماك . وفى عام ١٨٧٢ احتفل بافتتاح البستان رسميا وحضر الاحتفال سمو الخديو وكبار رجال حاشيته وأعيان القاهرة وأطلق على هذا البستان حديقة الأزبكية

ثم أقبل على الحى المحيط بهذا المنتزه الفريد ينتزع ملكية منازله الخشبية التى كانت للأقباط مقابل تعويضات دفعها اليهم وازال تلك المساكن . ووهب الأرض التى كانت قائمة عليها هبة الى من شاء التعهد باقامة مبان فخمة عليها تتفق مع عظمة القاهرة الاسماعيلية التى رغب انشاءها . وجعل ميدان الأزبكية مركزا للاحياء الجديدة التى وضع تصميمها فأوصله بالموسكى شرقا واتجه الى غربيه فأزال ما كان يعرف بباب الجنينة وهو باب كان قائما على مدخل حى باسمه فى منتهى الطريق الواصلة مابينه و بين بولاق . وخط الى جنوبه بميل نحو جهة الغرب الأحياء البديعة المعروفة الى اليوم بأحياء التوفيقية وعابدين والاسماعيلية بعد ان أقام فى طرف الأزبكية الجنوبى المسرحين الفخمين وهما المسرح الجديد والأوبرا .
واختط فى تلك الأحياء الطرق العريضة الظليلة الواصلة بين جهاتها المختلفة . تلك الطرق



واجهة فندق شبرد كما كان فى أوائل القرن
التاسع عشر

فندق النيل أشهر فنادق القاهرة فى منتصف
القرن التاسع عشر



التى بالرغم عن كل ماحدث بعدها لاتزال من أفخر مسالك القاهرة وأكبر شرايين مواصلاتها وأهمها شارع عبدالعزيز والشارع الذى أقام نوبارباشا فيه قصره الفخم فسمى بأسمه من ناحيته الشمالية (شارع ابراهيم باشا) وشارع كوبرى قصر النيل وشارع سراى الاسماعيلية غرباوغيرها مما أمتازت به القاهرة الاسماعيلية

أما جنوبا نخطت طرق حديدة وفتحت دروب وأزقة كثيرة فاتصلت أحياءالسيدة زينب بحي عابدين وأقام ذلك الميدان الفسيح الأرجاء أمام قصره الذى انشأه بعابدين ليكون مقرا للملك بدل قصر الجوهرة بالقلعة

خليفة المسلمين فى القاهرة

وفى أيام اسماعيل زار السلطان عبدالعزيز مصر (٧ أبريل ١٨٦٣) فاستقبله الخديو اسماعيل على يخته الملكى بميناء الأسكندرية واحتفت المدافع باستقباله كادوت أصوات المستقبلين بهتافاتهم « باديشاميز تشوك ياشا » (يعيش السلطان) وعزفت الموسيقى أشجى نغماتها . وفى اليوم التالى انتقل السلطان الى القاهرة بقطار خاص وكان قدأعد له قصر الجوهرة بالقلعة وصلى صلاة الجمعة بجامع محمد على وزار ضريحه العظيم . ثم قدم له الخديوى كبار رجال دولته وأعيان البلاد . وفى اليوم الحادى عشر عرض مهرجان المحمل النبوى بميدان الرميلة . وكان الخديوى اسماعيل قد أعدله برنامجا لمشاهدةأحياء القاهرة فزار انحاءها وفى ركابه أكابر رجال حاشيته . وفى عصر اليوم تفضل السلطان بزيارة انجال اسماعيل باشا فى قصر النيل بالروضة وعاد قبيل المغرب الى قصر الجوهرة فشاهد فى أثناء عودته أقواس النصر والثريات والأنوار التى أقامها أصحاب المحال التجارية على بيوتهم وحوانيتهم . وأمر السلطان « باش أغاه » راسم أغا ليحمل بطاقته الكريمة لأميرات الاسرة المحمدية العلوية فى قصورهن . . عقيلات محمد على وابراهيم وعباس وسعيد . . وتفضل السلطان عبدالعزيز بقبول دعوة الأمير حليم باشا لزيارة قصره الفخم بشبرا — قصر محمد على باشا المشهور بفسقيته الرخامية البديعة الصنع العديمة المثال فى العالم بأسره . قضى السلطان فى تلك الروضــة الغناء طول النهار و بعض المساء متجولا بين رياحينها وأزهارها طورا . وطورا جالسا أمام بحيرتها المحيطة بها المظلة الرخامية الجميلة أوجالسا فى القاعة العظمى الكائنة فى الزاوية على يمين الداخل التى أزدهت جدرانها العالية وسقفها الظريف بالصنعة الدقيقة والمواد الثمينة

قضى عبد العزيز وقته فى تلك الجنة الأرضية يتحادث مع حليم باشا وفؤاد باشا كبير مرافقيه عن زراعة البساتين ثم عن القناطر الخيرية . وكان الأمير مراد أفندي ولى العهد قـد ذهب فى ذلك اليوم لزيارتها فى سفينة بخارية وفى اليوم الثالث عشر زار السلطان متحف الآثار القديمة فى بولاق والمصانع الكبيرة التى أقامها محمد على فى ذلك الحى واستكملها الخديو اسماعيل وزار أهرام الجيزة وصعد بعض ضباط الحاشية الى قمـة الهرم الأكبر وتناول هناك الخليفة طعام الغذاء فقضى النهار بأكمله وعاد الركب فى المساء الى الجيزة حيث أعدت له استراحة أنيقة على النيـل فتناول العشاء الهنىء . وقضى ليلة أعادت ذكريات البوسفور

وفى اليوم الأخير من الزيارة السلطانية (١٦ أبريل) غادر الخليفة القلعة فى الساعة العاشرة فدوت المدافع مؤذنة برحيله وأخذ الموكب طريقه الى قصر النيل ثم أقله القطار الخاص الى الاسكندرية التى ودعته فى اليوم التالى احتفال عظيم

قصور القاهرة

وفى زمن الخديو اسماعيل ازدهرت القاهرة بتلك القصور البديعـة التى أنشئت فى جهتى الجزيرة والجيزة . فقد شيد قصران كانا من أعظم المبانى الفخمة وامتازا بما كان فى بستانيهما من الأشجار والأزهار والرياحين والقنوات والبرك والقناطر والخمائل . فهنا قصر الجزيرة ببستانه الزاهر يشغل ستين فدانا واشتمل على قصر للحريم وسلاملكين أحدهما كبير والآخر صغير . وكانا من تصميم فرانز باشا (Franz) النمساوى رسمهما على الطراز العربى القديم فى شكلهما وزينتهما ومفروشاتهما وجعل فى خارج السلاملك الكبير شرفات وعقود من الحديد جلبت من البلاد الأوربية وأحاط البستان بسور من الحديد جعل فيه محلات للحيوانات المتنوعة كالفيلة والسباع والنمور والقردة وأنواع الطيور المختلفة الألوان وفرش مساربه بالرمل والزلط ووزع فيه المصابيح الغازية فكان بديعا ان تراه ليلا وهناك قصر الجيزة الذى بناه المرحوم سعيدباشا وكان يتألف من قصر صغير وحمام وبعد وفاته اشتراه الخديو اسماعيل باشا ومايتبعهما من الأرض ومساحته نحو ثلاثين فدانا من ابنه المرحوم طوسون باشا وهدمهما وبناهما وفرشهما وبعد قليل أخذ فى توسيع القصر من ناحية النيل وزاد فى المبانى واحضر من الاستانة أحد المهندسين لرسم المبانى الجديدة كما استجلب له مشاهير الصناع ورجال الحدائق

فنظموا بستانها وفرشوا طرقاته بالزلط الملون المجلوب من رودس وجعلوا فيه جبلايات وبحيرات متسعة وغدرا ناعليها قناطر وأكشاك للجلوس واقفاصا واسعة للطيور وأوصل له المياه النيلية المرفوعة بطولمبة خاصة وأنير بمصابيح الغاز وأقام فيه سلاملكا شيده من الحجر المنحوت

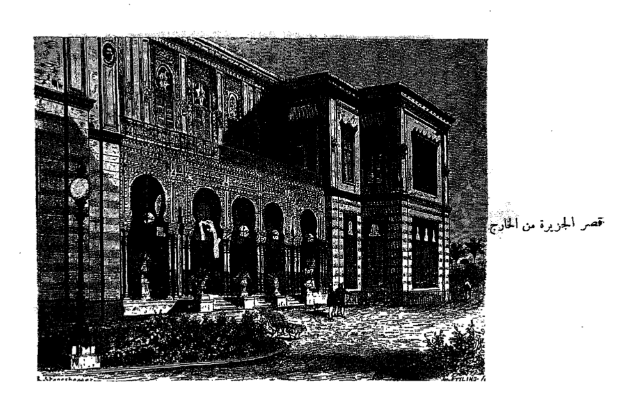
ولم يشيد اسماعيل العظيم قصرى الجيزة والجزيرة فقط فان همته العالية أرادت أن تحول القاهرة الى عاصمة جديرة بملكه فشيد قصر عابدين وتفنن أهل الفن فى تنسيقه وتزيينه بالأثاث وقصر الاسماعيلية الصغير وقصر بولاق التكرور وسراى فاطمة هانم والقصر العالى وقصر الزعفران بالعباسية للوالدة وذلك غير قصور الاسكندرية والمنصورة والمنيا والروضة كما شيد أيضا قصرا كبيرا بالعباسية احترق فيما بعد وعمل جانب منه مستشفى للأمراض العقلية وكانت جميع جدران هذه القصور محلاة من الداخل وسقوفها مكسوة بالأقمشة المتنوعة وبلغت تكاليفها وماصرف عليها من صناع ومفروشات ونقوش ألف ألف وثلثمائة وثلاثة وتسعين ألفا وثلثمائة وأربعة وسبعين جنيها وعلى قصر عابدين ستمائة وخمسة وستين ألفا وخمسمائة وسبعين جنيها وقصر الجزيرة ٨٩٨٦٩١ جنيها وقصر الاسماعيلية الصغير ٢٨٦ و ٢٠١ جنيها . . الخ

وفى أيام اسماعيل شيد الأمراء وكبار رجال دولته كثيرا من المبانى الكبيرة ولا سيما فى احياء الاسماعيلية والفجالة وشبرا وبلغ تعدادها مئات وامتدت العمارة إلى طريق السبتية بين محطة السكة الحديدية وبولاق ونتج عن هذه الأعمال اختفاء التلال والبرك الآسنة التى كانت بأراضى الاسماعيلية وبجانبى طريق بولاق وطريق السبتية والفجالة وصارت تلك الجهات من أجمل احياء القاهرة عمارة وتخطيطا وتنسيقا

ومن هذه المنشآت قصر وزير الدولة رياض باشا وقصر ناظر المعارف على باشا مبارك وسراى شريف باشا والمناسترلى والمرنساوى . . . وغيرهم

حديقة الأورمان

وانشأ الخديو اسماعيل بستان الأورمان وجلب أشجاره من جزائر الروم بعد ماردمت أرضه بطمى النيل على ارتفاع مترين وردم أيضا الأراضى المجاورة له على يد مقاولين أوربيين اشترط عليهم ان تكون تكاليف المتر المكعب فرنكا ونصف على أن يقوم اسماعيل باشا نفسه بنفقات السكة الحديدية التى انشئت لهذا العمل وعهد برسم البساتين



قصر الجزيرة من الخارج



بهو الأعمدة بقصرالجزيرة

للمهندس « باريل بك » المشهور فى تنظيم الحدائق وهو الذى نظم حديقة الأزبكية فنوع فى رسوم حديقة الأورمان وجعل بها مناظر مختلفة وتلالا علبها جسور تمر فوق وديان. وكان نحو خمسمائة عامل يشتغلون فى تلك البساتين تحت اشراف بعض الأوربيين وذلك لخدمة الأشجار وسقيها وكنس الطرق . . . الخ فصارت بساتين الجيزة والجزيرة فريدة فى نوعها و بلغت مساحة الأراضى المشغولة بتلك الحدائق أز بمائة وخمسة وستين فدانا

الأسماعيلية

ومن الأحياء الزاهرة التى خطت فى عصر اسماعيل حى الاسماعيلية وأرضها كانت تغطى أرض اللوق وميدانى الصالح نجم الدين والناصر محمد بن قلاون وبستان الفاضل . وقد بلغت هـذه العمارة فى تلك الخطة فى زمن الناصر محمد بن قلاون كالها بعد ان تم حفر الخليج الناصرى فكان على حافتيه من أوله عند قصر العينى إلى منية السيرج كثير من قصور الأمراء ومشاهير الكتاب والاعيان ثم تخربت وتحولت الى كثبان أتربة وبرك مياه وأراضى سباخ حتى قيض الله لمصر اسماعيل فأبدل وحشتها أنسا ونظمها وصارت كما قال العلامـة الفاضل على باشا مبارك « من أبهج اخطاط القاهرة وأعمـرها » وأنشئت فيها الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر ونظمت على جوانبها الأفاريز ومدت فى أرضها أنابيب المياه وأقيمت عليها أعمدة المصابيح الغازية وسكن الاسماعيلية الأمراء وكبار الأعيان ومنهم حسين باشا الدرمللى وأحمد باشا خيرى ومحمود باشا الفلكى وعمر باشا لطفى وغيرهم

شارع محمد على

ابتدأ هذا الشارع التاريخى من العتبة الخضراء وانتهى بجامع السلطان حسن فجاء من أطول شوارع القاهرة فطوله أكثر من ألفى متر . كانت بأوله المقابر المعروفة « بترب المناصرة » وكانت مقبرة كبيرة دفن فيها من الأخطاط المجاورة لها وغيرها فأصدر المرحوم محمد على باشا فى آخر عهده أمرا بمنع الدفن فيها

ولما شرعت حكومة اسماعيل باشا فى انشاء هذا الشارع جاء مروره فى وسطها تقريبا فصدرت الأوامر للمحافظة بمشترى الأملاك الداخلة فيه وهدمت المقابر ونقل منها بعض العظام الى قرافة الأمام الشافعى واودع البعض الآخر فى صهريج بنى عليه المسـجد

المعروف بمسجد العظام فى شارع عبد العزيز . وفى سبيل فتح شارع محمد على أزيلت مبان كثيرة منها جامع أزبك فقد هدم وحارة مجاورة له كان اسمها حارة الميضة وأقيم فى محل الجامع تمثال ابراهيم باشا قبل نقله الى محله الحالى فى ميدان الأوبرا (ابراهيم باشا) . وأزيل أيضا جامع اسكندر باشا .

وبفتح شارع محمد على أزيلت مجموعة من البيوت القذرة والحارات والمنعطفات الضيقة وأصبحت الأحياء التى يمر بها ذات طابع خاص من العظمة والأبهة وارتفع ايجارها ورغب السكن فيها و بنيت على ضفتيه عمارات كبيرة كالتى انشأها الحاج محمد أبى جبل احد التجار المشهورين وقصر الأمير حسن باشا الشريعى وقصر نعمانى باشا (ولا يزال باقيا) وسراى [illegible] رستم باشا وغيرها من البيوت الكبيرة وقد عرف بيت حسن باشا الشريعى أولا ببيت « لاجين بك » أحد الأمراء المصريين حاكم الغربية وكان أصله من مماليك رضوان بك صاحب قصبة رضوان . وبقى يتنقل فى أيدى الملاك الى أن أخذه محمد على باشا وجعله مصنعا للخياطين وصناع الأحذية ولما أغلق المصنع اشترى القصر حسن باشا الشريعى من الحكومة بثلثمائة كيس وعند فتح شارع محمد على أخذ منه جزء كان سببا فى تحسينه وعند ابتداء العمل فى تنظيم هذا الشارع كان المرحوم على باشا مبارك ناظرا للأشغال العمومية وقد قال ان التصميم الأصلى للشارع كان يجعل عرضه عشرين مترا منها ثمانية أمتار للافريزين وتبنى المساكن فوقهما لتقى الناس حر الشمس ومطر الشتاء . ويظهر أنه كان فى النية تعديل هذا التصميم لكنه نفذ على أصله

وقد بلغ عدد الأماكن التى اخذت لهذا الشارع ثلثمائة وثمانية وتسعون منها بيوت كبيرة وصغيرة وطواحين وأفران ورباع ووكالات وزرائب وخرائب كما أخذ جزء كبير من جامع « قوصون »

شارع شبرا

وكانت جهة شبرا بمزارعها النضرة ومناظرها الجميلة المكان المطروق للتنزه والرياضة وكان يقصدها المرتاضون مشاة وركبانا . وكان المار يرى الدواب المطهمة تغدو وتروح او واقفة فى انتظار سيدها . ترى العربات الفخمة تجرها الجياد المجرية المطهمة تحمل أفراد الأسرة الخديوية والسراة والأعيان يتقدم تلك العربات القمشجية (السواس) لافساح الطريق واتماما لمظاهر الأبهة وكانت شبرا مقر الكثيرين من الأسر الكبيرة فبها قصر



نزهة الخديو اسمعيل فى عربته تحف به فرسان الجيش والمماليك

زينب هانم بنت محمد على باشا وقصر أينجوهانم أرملة سعيد باشا وقصر شيكولانى البديع الحافل بالتماثيل النادرة وقصر النزهة الذى كان يقصده اسمعيل باشا للراحة وغيرها من البيوت الأنيقة التى تحيط بها الحدائق الغناء .

شارع الفجالة

كانت أرض الطبالة تشغل هذا الشارع وكانت الى قبل دخول الفرنسيين أرضا صعبة المرور فحوّله الفرنسيون الى شارع منظم يمتد من قنطرة باب الحديد الى قنطرة العدوى . وكان السالك فى ذلك الشارع يجد عن يمينه من جهة باب الشعرية القرية التى عرفت بقرية كوم الريش وقد صارت تلالا عالية حتى أمر بأزالتها الخديوى اسمعيل باشا وكان السالك فيه يبصر على بعد بركة الرطلى التى ردمت بعد ازالة التلال المذكورة . بدأ هذا الحي ينمو وينتظم وعرف بحى الفجالة ابتداء من ترعة الاسماعيلية الى سور القاهرة عرضا ومن جامع اولاد عنان الى بوابة الحسينية طولا وبيعت الأرض المملوكة للحكومة وبنى فيها كما شيد على غيرها من أراضى الأهالى مبان عظيمة وقصور فاخرة تحيط بها الحدائق النضرة واصبحت هذه المنطقة نزهة للطلاب وارتفعت أثمان أراضيها حتى بيع المتر المسطح بنحو الثمانين قرشا بعد أن كان لا يثمن بأكثر من قرش واحد

النيل واسماعيل

مصر هبة النيل وهو مصدر حياتها وبهجة القاهرة ولقد أدرك اسمعيل ذلك فوصلت العمارة الى غربه وكانت لا تتجاوز شاطئه الشرقى . فشيد قصر الجيزة والجزيرة وحديقة الاورمان . ورأى بثاقب بصره أنه لم يعد يحسن ابقاء العبور من شاطىء الى شاطىء على قنطرة من القوارب المصفوفة بعضها بجانب بعض والممدودة عليها ألواح الخشب



قنطرة قصر النيل كما كانت عام ١٨٨٠

او فى معديات صغيرة . فأمر باقامة كوبرى قصر النيل العظيم فى فخامته وجماله لكي يتناسب مع الحى الجديد الذى أنشأه بالقرب منه . وكانت قنطرة قصر النيل فى ذلك الحين من أحسن قناطر العالم من حيث هندستها ومتانتها وجمال صنعها . بلغ طولها ٤٠٦ من الأمتار وعرضها عشرة امتار ونصف وقام بصنعها شركة « فيف ليل » الفرنسية التى بدأت العمل عام ١٨٦٩ وأتمتها فى خلال سنة ونصف وسلمتها للحكومة فى منتصف عام ١٨٧١ و بلغت نفقات انشائها مائة وثمانية آلاف من الجنيهات

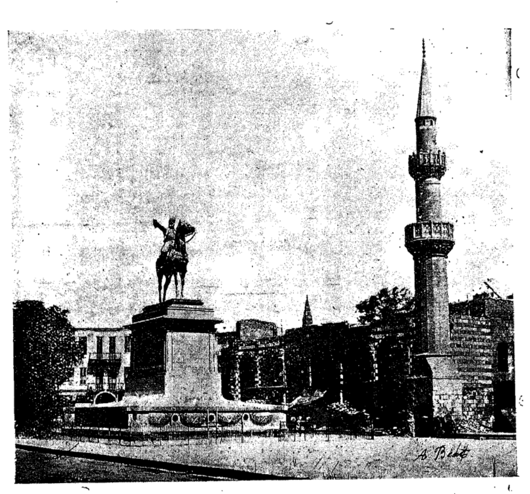
ولما استحضر الخديو اسماعيل المثالين اللذين صنعا تماثيل محمد على باشا وابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوى كلف احدهما بعمل أربعة تماثيل لأربعة من السباع الضخمة فصنعاها أجمل صنع من معدن البرونز ثم اقيم كل اثنين منها على طرفى القنطرة من جهتيها

المتقابلتين فزادت هذه التماثيل الفخمة من أبهة القنطرة ورونقها وجعلت لهـا منظرا رائعا يشعر القادم عليها بالجلال والأبهة

رأى اسماعيل فيما بعد حاجته الى ربط الجزيرة بالجيزة فكلف شركة انجليزية ليصل بينهما فانجزت قنطرة أخرى عام ١٨٧١ وهى القنطرة التى تعرف اليوم باسم «كوبرى الانجليز» وبلغت نفقاتها نيفا وأربعين ألف جنيه

تماثيل القاهرة

كان الخديو اسماعيل أول من شرع فى إقامة تماثيل العظماء فى الميادين العامة تخليدا لذكراهم فأمر بصنع التمثالين الكبيرين اللذين يزينان أهم ميادين القاهرة والاسكندرية الأول لمحمد على وقد أقيم فى الأسكندرية والثانى لابراهيم باشا وقد نصب فى القاهرة



بقايا مسجد أزبك (٨٨٢ هـ) الذى هدم عام ١٢٨٦ هـ وأمامه تمثال الفاتح ابراهيم باشا قبل نقله الى موقعه الحالى وهذه الصورة من تصوير المرحوم تيجران باشا

عام ١٨٧٣ بميدان العتبة الخضراء وقد أنزله العرابيون أيام الحوادث العرابية و بعد ان سكنت الثورة أقيم فى ميدان الأوبرا

اسماعيل ومساجد القاهرة

لما تولى اسماعيل باشا شئون مصر أمر بتجديد مسجد سيدنا الحسين فندب المرحوم على باشا مبارك لعمل رسم يكون وافيا فعمل له رسما لائقا وعدل حدوده فوسعه كثيرا عن ذى قبل وقدمه الى سموه فاستحسنه . وفى الحال كلف الأمير راتب باشا الكبير وهو يومئذ ناظر الأوقاف المصرية لاجراء العمارة على ذلك الرسم وشرع فى هدم البناء القديم ماعدا القبة والضريح و بدأ فى البناء فى (١٥ محرم سنة ١٢٨٢ ﻫ) وفى ٢٨ من شهر شعبان سنة ١٢٩٠ ﻫ تم جميعه ما عدا المأذنة فتمت بعد خمس سنوات و بلغ المنصرف على البناء فقط نحو سبعين ألف جنيه مصرى غير ما تبرع به الخديو اسماعيل من خزائنه الخاصة . فقد أرسل الى الاستانة لاحضار جميع العمد الرخامية التى بالصحن والميضأة وهى تنيف عن ستين عمودا بجلساتها . وفى عهد اسماعيل باشا بنيت الابواب الثلاثة الرخامية الى جهة خان الخليلى وأعيد الى منبر المسجد رونقه القديم وكان فى الأصل لجامع أزبك الذى كان بالعتبة الخضراء فنقل اليه بعد تخربه

وانشأ الخديوى اسماعيل فى الجهة القبلية لقصر عابدين جامعا له بابان عظيمان مرتفعان بدرج فى واجهة المسجد الغربية وكان يصلى فيه صلاة الجمعة

قلعة القاهرة

ولم ينس اسماعيل باشا القلعة فجدد أسوارها وللمرة الأولى والأخيرة منذ الاحتلال العثمانى كتبت اللغة العربية على جدرانها فنقشت العبارة الآتية :

« إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم »

أمر بانشاء وتجديد هذا السور المبارك خديو مصر حالا اسماعيل بن الحاج ابراهيم ابن الحاج محمد على فى تاريخ شهر رجب سنة ١٢٨٥ ﻫ (١٨٦٨ م) وأصلح اسماعيل ميدان الرميلة الواقع بجانب القلعة ووسعه وغرس به الأشجار وأوصله بشارع محمد على فصار من أفسح ميادين القاهرة

الآثار العربية والفرعونية

أنشأ محمد على باشا داراً للآثار المصرية بجهة الازبكية بمنزل الدفتردار وأمر بمنع خروج الآثار القديمة من مصر وكان الأجانب ينهبون منها ماتصل اليه أيديهم لحفظها فى متاحف

أوربا . وفى أيام سعيد باشا عين المسيو « ماريت » الاثرى الفرنسى مأمورا لأعمال العاديات بمصر فبذل جهودا موفقة فى التنقيب عن العاديات ونقل ماتجمع من الآثارالى مخازن اعدت لها فيما بعد ببولاق

ولما توفى سعيد باشا لقى ماريت من اسماعيل تعضيدا عظيما فأمرهالخديوى باصلاح مخازن بولاق وتوسيعها وافتتحها رسميا يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٣ ثم نقل المتحف الى الجيزة عام ١٨٩١ وأخيرا إلى مكانه الحالى بجوار قنطرة اسماعيل سنة ١٩٠٢ وكما عنى اسماعيل باشا لحفظ الآثار الفرعونية فأنه أصدر أمرا بانشاء دار الآثار العربية سنة ١٨٦٩ وعهد بانفاذ المشروع الى فرانز بك(باشا فيما بعد) كبير مهندسى الأوقاف ليجمع فيها ما كان مبعثرا فى المساجد من الآثار الأسلامية وان هذه الفكرة السامية وان لم تحقق فى أيامه الزاهية فقد حققها ابنه توفيق باشافاختار فرانز بك الأيوان الشرقى من جامع الحاكم لكنها لم تتسع اتساعا حقيقيا الا فى عام ١٨٨١ بصدور أمر عال قضى بتشكيل لجنة حفظ الآثار العربية وفى عام ١٨٨٣ بنى لها محل مخصوص فى صحن جامع الحاكم لضيق الأيوان الشرقى وفى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٠٣ افتتحت دار الآثار الحالية وعرضت بها المجموعات الأثرية التى رتبها مديرها فى ذلك الحين هرتس باشا

قاهرة الجيش

كان نصيب القاهرة من المؤسسات العسكرية الحديثة كبيرا . فقد وحّد اسماعيل باشا المعاهد الحربية فى مناطق القاهرة بعد ان كانت مبعثرة فى ضواحيها بالخانقاه وأبى زعبل والقناطر الخيرية وطره وجعلها فى العباسية وقصر النيل

أمر بنقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية وأنشأ بهذه الجهة التى استجدها عباس باشا الأول عدة مدارس حربية وجعل مقرها فى القصر الفخم الذى أنشأه الأمير المذكور ووحّد ادارة المدارس الحربية لتشمل المعاهد الآتية : —

١ — مدرسة المشاة (١٨٦٤) وكان عدد تلاميذها ٤٩٠

٢ — « الخيالة (١٨٦٥) « « « ١٦١

٣ — « المدفعية والهندسة العسكرية (١٨٦٥) « « « ١٨٠

٤ — « أركان الحرب بالعباسية (١٨٦٥) وكانت تعد ومدرسة المدفعية من أرقى المدارس العليا التى أسسها الخديو اسماعيل

٥ — مدرسة الخطرية بالقلعة (١٨٧٤) لتخريج ضباط الصف

٦ — « الطب البيطرى (١٨٦٨) وألحقت أخيرا بمدرسة الخيالة وأنشأ اسماعيل باشا ميدانا لرمى المدافع وآخر للبنادق والتمرينات العسكرية أسماه البوليجون « بالعباسية » وشيد بطره معملا لصنع الأسلحة وآخر لصب المدافع ومثله للبنادق عدا مصانع الذخيرة الصغيرة والقنابل

الجمعيات العلمية

وفى القاهرة الاسماعيلية نشأت أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر . وكان اسمها جمعية المعارف أسست سنة ١٨٦٨ وجعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا و رئاسة محمد عارف باشا واقتنت مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها عدا ما كانت تطبعه فى دار الطباعة الأميرية

ومن أهم منشئات اسماعيل الجمعية الجغرافية الخديوية التى أسسها عام ١٨٧٥ وكان رئيسها العالم الألمانى الدكتور « شوينفرث » ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال « ستون باشا » رئيس أركان الحرب الجيش المصرى . . وفضل هذه الجمعية منذ أسست الى اليوم فى نشر المباحث والاستكشافات الجغرافية لا يمكن أن ينساه أحد

وفى عصر اسماعيل أنشئت الجمعية الخيرية الاسلامية بسعى السيد عبد الله نديم وبدأت الصحافة المصرية نهضتها فظهرت عدة جرائد ومجلات أهمها روضة المدارس ووادى النيل ونزهة الأفكار ومصر وروضة الأخبار والكوكب الشرقى والأهرام ومرآة الشرق

تنظيم الشرطة

وأمر الخديوى اسماعيل باشا بتنظيم الشرطة فى القاهرة والمديريات فانتخبت الحكومة ضابطين ايطاليين هما المسيو « كورلسيمو » والمركيز تيجرى » وعهدت اليهما تنظيم ادارة الشرطة

دار الرصد ومصلحة الاحصاء

وانشأ اسماعيل دار الرصد بالعباسية وعهد برآستها الى اسماعيل بك (باشا) الفلكى والعالم المشهور وانشأ أيضا مصلحة للاحصاء تولاها المسيو « دى رينى » بك ثم المسيو « أميشى بك »

مدارس القاهرة

ايقظ اسماعيل الروح العلمية فى البلاد بما أسسه فيها من المدارس العالية والثانوية والخصوصية والابتدائية والصناعية والزراعية الخ . فانشأ بالعباسية عام ١٨٦٦ مدرسة الرى والعمارة (المهندسخانة) بسراى الزعفران ثم نقلت عام ١٨٦٨ الى سراى درب الجماميز . وأسس مدرسة الأدارة والألسن وكان مقرها بجوار قصر محمدعلى الذى سكنه مدة طويلة قبل انتقاله الى قصر الجوهرة بالقلعة . ولما أغلقت آلت الى فندق عرف فيما بعد باسم « فندق شبرد » وأسس أيضا مدرسة دار العلوم (١٨٧٢) ومدرسة الطب والولادة ومدرسة الفنون والصناعات ومدرسة المحاسبة والمساحة ومدرسة اللسان المصرى القديم (١٨٦٩) ومدرسة الزراعة (١٨٦٧) ومن أهم المدارس الثانوية كانت المدرسة التجهيزية بالعباسية (١٨٦٣) ونمت المدارس الابتدائية فى القاهرة فقد بلغت ١٥ مدرسة موزعة على أحيائها

وبدأ فى عهد اسماعيل باشا انشاء مدارس البنات ففى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات انشأتها السيدة « جشم آفت هانم » ثالث زوجات الخديو اسماعيل وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة . وبعد عام واحد بلغ عددهن أربعمائة تلميذة يتعلمن مجانا . وانشئت أيضا عدة مدارس أوربية كان اسماعيل باشا يهبها الهبات الكبيرة تشجيعا لها

وبدأت روح الأصلاح والتقدم فى الأزهر الشريف تتمشى منذ ولى مشيخته الشيخ محمد العباسى المهدى عام ١٨٧١ . وفى تلك السنة جاء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر فنفخ فى الأزهر روح النهضة التى حمل لواءها الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده

على ان التكلم عن العلم والتعليم فى القرن الماضى لا سيما فى عصر اسماعيل العظيم يقرن دائما باسم على باشا مبارك صاحب الفضل فى النهضة العلمية وزعيم حركة العمران فى القطر بأسره

دار الكتب

ورأى اسماعيل أن ينشىء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفى المساجد ونحوها فأمر على باشا مبارك عام ١٨٧٠ بتحقيق فكرته فجعل مقرها فى الدور الأسفل من سراى الأمير مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز بجوار

معظم المدارس وجمع فيها ماتشتت من الكتب وأضاف اليها اسماعيل نحو ألفى مجلد من المخطوطات العربية والفارسية ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى كما اشترى مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته وأهداها الى دار الكتب وفى عام ١٨٨٩ تقرر نقلها الى السلاملك الذى كان به ديوان وزارة المعارف العمومية فى نفس سراى الأمير المشار اليه. ولما انتهى بناء الدار التى خصصت لها ولدار الآثار العربية بميدان باب الخلق عام ١٩٠٤ نقلت اليها

حلوان

وأمر الخديوى ببناء حمامات حلوان لما تبين من مزايا مياهها المعدنية وعنى بعمران هذه الضاحية وشيد بها قصرا فخما وهو الذى عرف بقصر الوالدة على النيل وخطط طريقا معبدا من النيل الى حلوان ورغّب الى السراة سكناها كما انشأ السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة (١٨٧٢) فعمرت تلك الناحية من ضواحى العاصمة

حفلات القاهرة

وشاهدت القاهرة فى عام ١٨٧٣ حفلة زواج الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وحسن أنجال الخديو اسماعيل وكانت من أفخم حفلات الزواج التى شهدتها مصر الحديثة دامت أربعين يوما كاملة زينت فيها الشوارع المؤدية الى القصر العالى مقر والدة اسماعيل المطل على النيل والى قصر الجزيرة التى كانت مثوى الخديوى نفسه والى قصر القبة مقر الأمير ولى العهد. كل هذه الشوارع كانت مزدانة بالشموع والمصابيح ووضع فى نهاية كل شارع أقواس نصر مختلفة صنعوا فى أعاليها شرفات صفت على جوانبها فوانيس من الورق مختلفة الألوان. وكانت أمام القصر العالى رحبة فسيحة جدا هى التى يشغلها اليوم حى المنيرة يفصلها عنه شارع قصر العينى الآن وقد نصبت بها السرادقات الفخمة المتعددة لاستقبال المدعوين ليتناولوا صنوف الطعام فى بعضها ويتمتعون بمشاهدة الألعاب وسماع الغناء فى البعض الآخر. وقد غصت هذه الساحة بالفرق الموسيقية والغنائية وفى طليعتها تخت عبده الحمولى وبأنواع الملاهى الأخرى. كما كان فوق قوس النصر فى شارع المبتديان فرقة المزمار الشهيرة بجوقة « الفناجيلى الدمياطى » وحضر كثير من الفرق التمثيلية والجوقات الموسيقية وجماعات الحواة المصرية والأجنبية والبهلوانيون.

وكانت تقدم الذبائح والخبز الى الفقراء والمحتاجين فى أماكن خاصة وأطلقت السواريخ باشكال مدهشة من حديقة الأزبكية وغيرها

وفى أول يوم من هذه الحفلات الرائعات بدأ خروج الهدايا المقدمة من سمو الأميرة والدة اسماعيل باشا وزوجاته الفخيمات الى عرائس الأمراء (توفيق وحسين وحسن) من القصر العالى وشوارهن . وكان شوار الأميرة أمينة هانم زوجة ولى العهد أول مابدىء باهدائه وارساله فسير به الى قصر القبة وسط صفين من الفرسان مرتدين الأزياء العربية والعقال ومن ورائهما الجنود المشاة يسيرون مرحسين يعلو وجوههم البشر والسرور لابسين ملابس بيضاء ناصعة وتقدم الجميع فرقة موسيقيه كانت تدق الأنغام الشجية المصرية

وكانت الهدايا موضوعة فى سلال مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس يغطيها شاش فاخر أمسك بكل طرف من أطرافه الأربعة أربعة جنود يتبعهم ضابطان فى ملابسهما الرسمية واجتاز الموكب الملكى شوارع العاصمة المزينة بين تصفيق الشعب المبتهج وهتاف الجماهير وفرق الجند

ثم اشرقت شمس اليوم التالى على القاهرة فهرع الناس إلى سباق خيل أقيم فى العباسية كان فيه « الجيوكية » من الجنس الأسود وقد ارتدوا الثياب الحريرية الحمراء وأقيم مرقص عظيم فى قصر الجزيرة دعا اليه سمو الخديوى ما يزيد عن سبعة آلاف من كبار الأعيان المصريين والأجانب . وكان عدد الخدم الذين وقفوا لخدمة المدعوين يزيد عن ثمانمائة خادم .

ولم يكن الرقص واللعب والغناء تقام فى المدينة فقط بل ما كان فى داخل القصر العالى وفى دور الحريم أعظم وأبهى ! فهنا أشهر الراقصات يرقصن وهناك « ألمظ » على التخت تشجى بصوتها العذب آل القصر العظام

وفى عاشر أيام الاحتفالات بعد ظهر يوم الخميس انتظم موكب زفاف عروس ولى العهد وخرجت بصحبة سمو الوالدة باشا من سراى الحلمية الفخمة قاصدتين العريس سمو ولى العهد فى قصر القبة وتقدم الموكب الموسيقى السوارى وفرقة من المشاة وأخرى من السوارى وتبع ذلك عربات مقفلة فيها الأميرات قريبات العروس ثم أقدمت عربة العروس جرتها ثمانية من جياد الخيل وكان حوذيتها لابسين الملابس الحمراء المزدانة بشراريب القصب تتدلى على جانبيهم وجوارب من الحرير الأبيض واضعين على رءوسهم شعورا

بيضاء مستعارة مسترسلة على أكتافهم ووقف فى مؤخرة العربة اثنان من الفرنسيين بزيهم المخصوص الأبيض القصير الملاصق لأجسامهم وصداراتهم ذات الأزرار المذهبة وقبعاتهم الصغيرة . وحف بالعربة صفان من الأغوات على جيادهم وهم يرتدون الشيلان المهداة لهم . ثم جاءت العربات المقلة لكبيرات المدعوات لمرافقة العروس . ولما وصلت إلى سراى ولى العهد كان فى استقبالها الأمير توفيق . فنحرت الذبائح وزفت داخل الحرم والعروس فى أبهى حلل العرس البيضاء مسدولا على وجهها الدواك الذهبي الرفيع

إنها كانت أيام هناء وفرح ... تلك التى شاهدتها القاهرة الاسماعيلية ...

ملاهى القاهرة

تطور ذوق المجتمع المصرى فى القاهرة فأصبح ميالا إلى المرح والحبور . واستطاع اسماعيل أن يغذى هذا الميل فأنشأ بالقاهرة مسرح « الكوميدى فرانسيز » وكان موقعه مكان دار البريد الحالية فى شارع طاهر . وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر عام ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ . ثم أمر بتشييد دار الأوبرا التى فتحت عام ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس فى مدة خمسة أشهر وبلغت تكاليفها ١٦٠ ألف من الجنيهات ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر عام ١٨٦٩ أول رواية أوبرا اسمها « ريجوليتو » وقد حضرت هذه الحفلة الامبراطورة « أوجينى » عقيلة « نابليون الثالث » وعهد اسماعيل إلى الموسيقى الأيطالى «فردى» ان يضع أول أوبرا مصرية لتمثل بدار الأوبرا الملكية (الخديوية اذ ذاك) فوضع العلامة الفرنسى « ماريت باشا » موضوع رواية « عائدة » ولحنها « فردى » ومثلت فى الأوبرا للمرة الأولى فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ فنالت نجاحا عظيما

وفى عام ١٨٧٦ وفدت على القاهرة جماعة من الأدباء والممثلين السوريين وأولى تلك الفرق فرقة سليم النقاش ويوسف الخياط التى مثلت فى الأوبرا أمام اسماعيل باشا فلقيت تعضيدا منه

وسرت روح النهضة والتجديد إلى الموسيقى والغناء بظهور المغنى المشهور عبده الحمولى فألهمته عبقريته الموسيقية اصلاح الأساليب القديمة وبلغت شهرته الخديوى اسماعيل فاجتذبه والحقه بمعيته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا واصطحبه فى رحلاته الى الاستانة وغيرها . واشتهرت فى عصره بعض السيدات فى الغناء منهن « ألمظ » المغنية المشهورة التى تزوج بها عبده الحمولى

ضيوف القاهرة من الأدباء

فى أيام اسماعيل زار القاهرة عدد كبير من الأجانب والفنانين المشهورين والعلماء الأثريين . واشتهر هؤلاء فى عالم الفن بمؤلفاتهم عن مصر الخالدة . فقد زارها « جيرار دى نرفال » (Gerard de Nerval) وفلوبير (Flaubert) وما كسيم دوكام (Maxim Du Camp) وماريلا (Mrilhat) وكرابيليه (Crapelet) وفى عام ١٨٠٦ عرض الفنان بيدا (Bida) لوحته « الدوسة » وفى غضون عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٧ شاهد الفرنسيون لوحات جيروم (Gerome) الثلاثة وهى الأسيرة وتاجر الرقيق وتاجر الملابس وفى عام ١٨٦٧ انتهى « بيرشير » (Bercher) من لوحته « التئام القوافل » كما أخرج « بيدا » لوحة مذبحة المماليك . وفى عام ١٨٦٩ سمح الأديب الفرنسى الكبير تيوفيل جوتييه (Théophile Gautier) بصالونه الفخم لعرض لوحتى جيروم « تاجر القاهرة المتنقل » ونزهة الحريم ولأعمال بيرشيه و بيلى البديعة

لاشك أن تلك الأعمال كانت دعاية طيبة لمصر اسماعيل لاسيما وقد أتت كلها عقب اشتراك الخديوى فى معرض باريز عام ١٨٦٧ وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل . فقد أقام به قسما مستقلا خاصا لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديرا بتمثيل مملكة مستقلة . وكانت تلك الدعاية الفخمة مدعاة لاجتذاب عدد كبير من مشاهير رجال أوربا إلى عاصمة أفريقية

وصل « جوتييه » إلى الاسكندرية واستقل منها القطار الى القاهرة بعد أن كان أسلافه من رجال البيان والعلم لا يعرفون سوى السفينة النيلية التى كانت تمخر بهم فى النيل من رشيد أو المحمودية فى أيام محمد على . . أخذ مكانه فى عربة الدرجة الأولى ذات المقاعد الحريرية الخضراء واستطاع أن يسجل بقلمه اللطيف مشاهداته فى مصر عن جمال الدلتا من خلال نافذة القطار . فلما وصل الى القاهرة قصد فندق «شبرد» وبدأ «جوتييه» يحقق أحلامه عن الشرق الجميل و بدأ تجولاته وأبحاثه . وطاف أنحاء القاهرة وتعرف إلى كل أعلامها وتجول فى شوارعها وحاراتها وأزقتها ودخل حماماتها و بيوتها ثم انتقل إلى مديريات الدلتا واصطحب الفلاح و زامل النيل ولما عاد من رحلته زار آثار الصعيد

شاهد « جوتييه » أعياد القاهرة وافراح الاسماعيلية وحفلات استقبال اسماعيل للملوك والملكات والأمراء الذين جاءوا لمصر لمشاهدة مهرجان القناة . . قناة السويس . كل هذا رآه « جوتييه » فسجله فى آثاره الأدبية النفيسة

فى ذلك العهد كان « ماريت بك » (Mariette) يعمل فى سبيل مصر لاستخلاص آثارها من أيدى المهربين أجانب ومصريين . كما زارها الأثرى « سولسى » (Soulcy) والفيلسوف رينان (Renan) مؤلف حياة المسيح والصحافى شارل أدمون (Ch. Edmond) والقاصى [illegible] والشاعر الروائى شارل ديديه (Ch. Didier) والسياح « فيلكى تينار » « وهنرى كاماس » « واندرى ليففر » وأميل جيميه والممثلة راشيل والكونتس رو بير سار والأديبتان أوليمب أدوار ولويزه كوليه . ولكل هؤلاء مؤلفات وأعمال أدبية معروفة لليوم . فان لشارل ديديه ليالى القاهرة (١٨٦٠) « وخمسون يوما فى الصحراء » (١٨٥٧) وأخرج هنرى كاماس وزميله أندريه مجموعة ثمينة من الصور أودعاها فى كتابهما وادى النيل (١٨٦٢)

وزار القاهرة الكاتب الفرنسى « أدمون أبوت (Edmond About) وكتب مؤلفه « أحمد الفلاح » فنال بسببها شهرة ذائعة فى عالمى الأدب والاجتماع

وفى أيام حفلات افتتاح قناة السويس كانت مصر ملتقى عظماء أوربا من رجال الثروة والآداب والفنون وأعضاء الأكاديميات وقواد الجيوش ومديرى الشركات العالمية . ويكفى القول أن بلغ عدد المدعوين تسعمائة منهم مائة على الأقل زاروا آثار الوجه القبلى . وقد أتوا الى مصر على ظهر ثلاث بواخر عظيمة من مارسيليا فى تاسع اكتوبر عام ١٨٦٩ . واستقبلتهم بور سعيد استقبالا حافلا لم تشاهده مصر من قبل وكان البذخ الشرقى يتمثل فى ضيافة المدعوين فلم يكبدوا جيوبهم شيئا كثيرا أو قليلا ! ولقد بلغت تكاليف حفلات القناة . . . و ٤٠٠ و ١ جنيه

وكان فى مقدمة المدعوين الامبراطورة « أوجينى » وفرانسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر – والأمير فردريك ويلهلم ولى عهد روسيا والأمير هنرى شقيق ملك هولندا وقرينته وسفراء الدول الأجنبية لدى الباب العالى والأمير عبد القادر الجزائرى وغيرهم من رجال الفن والصحافة الذين مثلوا صاحبة الجلالة

رجالات القاهرة

لقد ازدهرت القاهرة فى عصر اسماعيل المجيد بمجموعة من الأعلام المشهورين الذين رفعوا المستوى الفكرى فى البلاد وظهرت بجهودهم ثمار النهضة القوية . . نهضة مصر فى أيام اسماعيل . فمن أعلام الأدب فى تلك الأيام الذهبية رفاعة بك الطهطاوى

والسيد جمال الدين الأفغانى باعث روح الحياة فى النهضتين الأدبية والسياسية والشيخ حسين المرصفى ومحمود باشا سامى البارودى والشيخ محمد عبده وابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال وعائشة عصمت تيمور وعبد الله باشا فكرى الذى وصل الى نظارة المعارف والشيخ عبد الهادى الابيارى والسيد عبد الله نديم وأديب اسحق والشيخ على الليثى والسيد صالح مجدى بك وأحمد بك عبيد وغيرهم ومن علماء الهندسة والرياضيات الوزير الخطير والعالم العبقرى على باشا مبارك ومصطفى باشا بهجت ومحمد مظهر باشا وأحمد فايد باشا وحسن باشا فهمى المعمار وحسين حسنى باشا صاحب الفضل الكبير فى احياء العلوم العصرية بواسطة الطباعة والنشر ونذكر بالفخر العالم الفلكى محمود باشا الفلكى الذى أنشأ مدفع الظهر فى القلعة وتولى وزارة الأشغال سنة ١٨٨٢ وعهدت اليه وزارات أخرى وتولى رآسة الجمعية الجغرافية الى أن توفى فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٥ . كذلك نذكر اسماعيل باشا الفلكى مصلح مقياس النيل فى اسوان (١٨٧٠) وصاحب المؤلفات الفلكية الكثيرة وسلامة باشا ابراهيم الذى اشترك مع مصطفى بهجت باشا فى انشاء الترعة الابراهيمية ومحمد ثاقب باشا واسماعيل باشا محمد وأحمد بك نجيب وعامر بك سعد

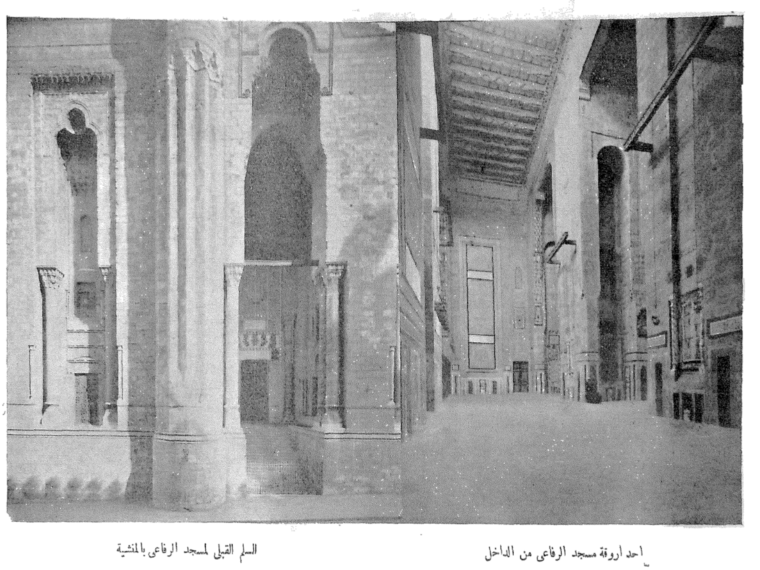
ومن علماء الطب والجراحة محمد على البقلى باشا وأحمد حسن الرشيدى بك ومحمد الشافعى بك وحسين عوف باشا ومحمد درى باشا وحسن بك عبد الرحمن وسالم باشا سالم ومحمد بك بدر وأحمد حمدى باشا وحسن باشا محمود وابراهيم باشا حسنى وعيسى باشا حمدى

وكان من علماء القانون والتشريع محمد قدرى باشا والشيخ محمد العباسى المهدى والشيخ محمد عليش . ومن علماء الفنون الحربية محمود باشا فهمى واللواء محمد مختار باشا وشحاته عيسى بك ومحمد صادق باشا وسليمان قبودان حلاوة وعبد الله فوزى باشا ومحمد نادى باشا وغيرهم

لقد حفلت القاهرة حقا بمن سجلنا أسمائهم ولو ان المجال سمح بذكر بقية زملائهم لما سعت أعمالهم المجيدة صفحات هذا الكتاب

خاتمة الفصل

انقذ محمد على باشا القاهرة بمعاونة ابنه الفاتح ورجال دولته بما شرع فيه من الاصلاحات العظيمة ومن الصعب جدا ان نفهم كيف جمع هذا العبقرى بين فتوحاته



احد اروقة مسجد الرفاعى من الداخل

السلم القبلى لمسجد الرفاعى بالمنشية

العسكرية ومشروعاته العمرانية فى خارج مصر وفى داخلها لكنها على كل حال عبقرية مصلح يبخل الدهر أن يجود بمثله الامرات قليلة فى تاريخ الانسانية فلم يكن شيئا يذكر على همة محمد على أن يحول القاهرة من حال الى حال فى زمن يعجز فيه كثيرون من حكام الأقاليم عن اصلاح حى أوقرية

وكان من حسن حظ عباس الأول وسعيد باشا ان امتاز عصراهما بهدوء أحوال البلاد من الناحيتين السياسية والعسكرية . فكان فى وسعهما أن يكملا مابدأه محمد على وفعلا ساعدتهما ظروفهما فحققا بعض المشروعات فى القاهرة وهى وان كانت قليلة غير انهما سارا بالاصلاح شوطا محمودا . ولم يكن همهما منصرفا الى رفع شأن القاهرة مباشرة ففى أيام عباس الأول اتصلت القاهرة بالاسكندرية بواسطة السكة الحديدية المفردة (١٨٥٦) و بعدعامين انشىء خط القاهرة ـ السويس ولما وافت سنة ١٨٦١ أزدوج الخط بين الاسكندرية والقاهرة

ثم جاءت الطفرة فى أيام اسماعيل فكان ماقرأناه . . .

ان هذا التقدم العجيب فى عمران القاهرة أدى بطبيعته الى زيادة عدد سكانها فمنذ استتب الأمن فيها وقضى محمد على باشا نهائيا على فئة المماليك بدأ الأهالى يطمئنون الى المعيشة فى داخل القاهرة . ففى أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر بلغ تعدادسكان القاهرة ٠٠٠ و ٢٦٠ ثم وصل هذا العدد قبيل وفاة محمد على الى ٠٠٠ و ٣٠٠ حتى اذا أجرى آخر احصاء رسمى عام ١٨٧٢ نمي سكانها الى ٠٠٠ ر ٣٥٠ منهم ٠٠٠ و ٢٥٠ مسلم و ٠٠٠ ر ٣٠ قبطى و ٠٠٠ و ٢٠ حبشى ونوبى وسودانى وخمسة آلاف تركى و ٠٠٠ ر١٠ يهودى و ٠٠٠ و ٣٠ سورى و ٠٠٠ و ٢٠ أجنبى

***

هذه هى عاصمتنا . . . القاهرة . . . التى تضاهى فى كثير نواحيها باريز ولندن وبرلين . اتخذت زيها الحاضر من أيام اسماعيل الذى أنشأ فيها القصور وخط الشوارع وأقام فيها بناء الأوبرا وغرس حديقة الأزبكية وأسس المتحف المصرى ودار الكتب وفتح مالايعد من المعاهد والمدارس . ولوأن رجلا أسس شيئا واحدا من هذه الأشياء لكان جديرا بالشكر والتمجيد

قاهرة على باشا مبارك

تولية الخديو توفيق باشا ـ مشاكل داخل البيت ـ ١٤ سبتمبر ـ عابدين ـ أقسام القاهرة ـ مسجد الامام الشافعي والرفاعي ـ احصائيات قاهرية ـ ميادين جديدة ـ مدافن القاهرة ـ مذابح القاهرة ـ مشاهد القاهرة ـ سهرات القاهرة ـ الخليج المصري ـ على باشا مبارك

الخديو توفيق باشا

في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٧٩ وردت أوامر الباب العالي بتولية صاحب الدولة محمد توفيق باشا منصب الخديوية . وفي ضحى اليوم التالي كان الطريق من قصر عابدين الى القلعة يموج بجموع الأهالي واصطف الجند على جانبي الطريق . ولما خرج سمو الخديو من القصر اطلقت المدافع مائة مرة ومرة وهتف الجميع بحياته وسارت عربته وراء كوكبة من الفرسان على يساره شقيقه الأمير حسين باشا كامل وأمامه أخوه الأصغر حسن باشا وبجانبه رئيس النظار محمد شريف باشا

على باشا مبارك

ولما بلغ الموكب القلعة دخل سموه القاعة الكبرى في قصر الجوهرة وجلس على يساره الأميران والنظار . واستقبل فيها من توافد عليه من العلماء وفي مقدمتهم السيد على البكري نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية وقاضي القضاة وشيخ الجامع الأزهر ثم قناصل الدول وقدم أكبرهم سنا التهاني لسموه فرد عليهم شاكرا ثم استقبل الأعيان والتجار وكبار الموظفين (١)

(١) نقلا عن مذكراتي في نصف قرن لسعادة المؤرخ الكبير الحاج أحمد شفيق باشا

وبانتهاء المراسيم المعتادة أطلقت المدافع مرة أخرى وعاد سموه الى عابدين ثم أرسل برقية شكر لجلالة السلطان على ثقته به

وفي اليوم الثلاثين من يونيو غادر الخديو اسماعيل القاهرة الى الاسكندرية قاصدا « نابولى » بايطاليا . وكان موكب وداعه حافلا من قصر عابدين الى محطة القاهرة يحفه الفرسان والجماهير المتدفقة وقد جلس الى يساره فى العربة الخديو توفيق باشا

مشاكل داخل البيت

تولى توفيق باشا البلاد والمصاعب تحيط بها من كل جانب وكانت أمامه أربع مسائل تلخص كما يأتى :

١ — رأى الخديو أن يشرك معه النظار فى حكم البلاد لكى لا يستأثر بالسلطة وكلف شريف باشا بتشكيل النظارة . فلما قدم اليه هذا مشروعا يجعل الحكومة نيابية لم يوافق عليه الخديو . فاستقال شريف باشا وترأس الخديو مجلس الوزراء بنفسه ولكن لم تدم هذه الوسيلة أكثر من شهر وانتهت باستدعائه رياض باشا لتشكيل النظارة وجعل لنظاره نفوذا حقيقيا فى ادارة شئون البلاد

٢ — أراد الباب العالى بعد عزل اسماعيل باشا أن يزيد من سيادته على مصر وإلغاء الامتيازات التى منحها للخديو السابق . ولكن تدخل الدول ولاسيما فرنسا جعل الباب العالى يذعن لهم واكتفى بتحديد عدد الجيش المصرى وان لا تعقد قروض جديدة الا بالاتفاق مع الدائنين أو وكلائهم

٣ — اتفق الخديو مع الدول الأوربية على تجديد « المراقبة الثنائية » كما كانت فى عهد اسماعيل باشا بشرط أن تقتصر أعمال المراقبين على الفحص والتحقيق وأن لا تتعداها الى التدخل فى شئون الادارة

٤ — الفصل بين الحكومة المصرية ودائنيها بتشكيل « لجنة التصفية » لعمل حل نهائى للمشاكل التى بين الحكومة ودائنيها

ولكن مما يؤسف له أنه بينما كانت تلك الاصلاحات سائرة فى طريق تقدم البلاد كانت روح الاستياء تتفشى فى الجيش يوما بعد يوم مما أدى الى قيام الحركة العرابية

وليس من أغراض هذا الكتاب البحث فى نشأة تلك الحركة وأسبابها وتطوراتها ونتائجها ولكن مما لا شك فيه أنها أدت الى تغيير كلى فى نظام البلاد . فان الحركة العرابية وان كانت ترجع أسبابها الرئيسية الى أيام الخديو اسماعيل فقد بدأت تنمو فى ١٥ يناير عام ١٨٨١ لما قرر بعض الضباط المصريين بزعامة الأمير الاى على فهمى بك

واحمد عرابى بك الاحتجاج على قانون القرعة العسكرية القاضى بمنع الترقى من « تحت السلاح » الذى أصدره ناظر الحربية « عثمان باشا الرفقى »

الح رياض باشا على الضابطين أن يسترجعا تقريرها ووعدهما بأنه سيبذل سعيه فى تلبية مطالبهما فلم يذعنا . ولما علم الخديو بأمرهما استشاط غضبا وأمر بعقد مجلس النظار فقرر القبض عليهما ومحاكمتهما أمام مجلس عسكرى

وفى أثناء انعقاد المجلس لمحاكمتهما بنظارة الحربية بقصر النيل هجم ضباط الآلايين ورجالها وأخرجوا قائديهما من غرفة اجتماع المجلس . فكان أمام حرج هذا الموقف أن عين الخديو محمود باشا سامى البارودى ناظرا للحربية بدلا عن عثمان رفقى ولكن لم يكد تهدأ الأحوال بضعة أيام حتى عزل سامى باشا وعين مكانه « داود باشا » ابن أخى الخديو . وعقب ذلك صدور الأوامر بسفر الآلاى الثالث المشاة الى الاسكندرية

وفى اليوم التاسع من سبتمبر ١٨٨١ سار عرابى بك بقسم من الجيش الى ميدان عابدين واصطفوا أمام قصر عابدين لعرض مطالبه الجديدة . فنزل الخديو الى الميدان وتقدم اليه عرابى بك . فناداه الخديو وسأله عن مقاصده وبعد اجابته أشار « المستر اوكلند كلفن » المراقب الانجليزى على الخديو أن لايناقش الجند فى تلك الأمور وأن يدخل القصر ويترك له أمر المفاوضة مع قواد الجيش

لما أجيبت بعض الطلبات بدأ نفوذ عرابى يتسع وأصبح للحزب العسكرى صوت مسموع فى البلاد وتولى رئاسة النظارة سامى باشا البارودى عقب الخلاف بين الخديو ونظاره السابقين وبدأت الدول تتحرك فقررت انجلترا وفرنسا استخدام القوة لاخماد الحركة المصرية قبل تطورها . ولكن سوء الحظ لازم مصر فوقعت فى ١١ يونيو ١٨٨٢ تلك الحادثة المشئومة بين المالطى والمكارى فى الاسكندرية فهولت الجرائد الأوربية فيها وفاتت فرصة الأصلاح

ظهر الأسطول الانجليزى أمام الاسكندرية فى فجر اليوم العاشر من يوليو وأعلن قائده أنه سيضرب قلاع المدينة ان لم تسلم له فى مدة أربع وعشرين ساعة

ضربت قلاع الاسكندرية وأحرقت المدينة وأخذت الجيوش الانجليزية فى غزو البلاد المصرية فى ميدان كفر الدوار ثم تحولت إلى ميدان التل الكبير ودارت رحى المعركة الفاصلة ــ فى التل الكبير (١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢) فهزم العرابيون وتقهقر الجيش إلى القاهرة . وكان الجنرال « ولسلى » قائد الحملة الانجليزية قد أمر الجنرال

دروری لو (Drury Lowe) بانقاذ القاهرة فسافر مسرعا بآلايه السوارى مع قوة من المشاة الراكبين

وفى فجر ١٤ سبتمبر دخل القاهرة من طريق شبرا وكانت الأهالى مجتمعين آلافا على جانبى الطريق يصيحون : « أمان . أمان » . فلما وقع نظر رماحة البنغال الهنود وهم من المسلمين على المآذن هتفوا بصوت واحد : « الله أكبر . الله أكبر . لا إلاله إلا الله محمد رسول الله » وكانت تردد الجماهير هذا الهتاف من بعدهم

١٤ سبتمبر

اتجهت القوة الانجليزية بقيادة « الجنرال دروری لو » الى العباسية وعسكرت خارجها وحضر اليه مأمور الضابطة ابراهيم بك فوزى ورضا باشا قومندان الجنود المصريين الذين لم ينضموا الى العرابيين فطلب منهما نزع أسلحة جنود حامية القلعة وكسر ابر المدافع . ثم أوفد خمسين جنديا بقيادة «اللفتننت كولونل هربرت ستوارت » والكابتن واطسون المترجم ومعهما ضابطان مصريان أوفدهما الخديوى لارشاد القوات الانجليزية . فلما اقتربت القوة من ثكنات العباسية شاهدت قوة كبيرة من الجنود المصريين . فتقدمت فصيلة من الخيالة نحوهم لما رفعوا الأعلام البيضاء . ثم أرسل « هربرت استوارت » لقائد القوات المصرية فى ثكنات العباسية يأمره بالتسليم وتقديم المعاونة اليه وأمره باستدعاء محافظ القاهرة ومأمور الضابطة وقائد القلعة

كانت لاتزال الخيالة الانجليزية معسكرة خارج القاهرة على مسافة ميلين الى أن وصل اليها مأمور الضابطة فأخبر قائد القوة ان عرابى باشا فى بيته بالقاهرة فأمره هذا بأنه يجب تقديم نفسه فى الحال وتسليم القلعة فى تلك الليلة . فأخذ فوزى بك على عاتقه تسليم عرابى باشا ووعد قائد القلعة بتسليم مفاتيحها اليه وأمر الجنرال « دروری لو » قبل ذهابه للنوم بتعيين اثنى عشر جنديا من « الدراجون » للقيام بواجبات الحراسة عند ما يصل عرابى باشا

ذهب ابراهيم بك فوزى الى عرابى باشا وطلبه باشا عصمت ليبلغهما أمر القائد الانجليزى فقام الاثنان الى العباسية وسلما نفسيهما قبيل الساعة الحادية عشرة ثم نقلوهما بعد ثلاثة أيام الى ثكنة الحرس الخديوى برحبة عابدين

وفى الساعة الثامنة من مساء يوم ١٤ سبتمبر اتجه الكابتن واطسون وزميله لورنس على رأس قوتهما الى قبور الخلفاء حتى وصلوا الى باب الوزير . فاصطف الجند للراحة

على جانبي الطرق المؤدية الى العلقة واحتشدت الأهالى لمشاهدة القادمين الجدد وكانت الساعة قد بلغت العاشرة تقريبا ثم استأنفت القوة سيرها فبلغت باب العزب وإذ ذاك لاحظ « الكابتن واطسون » أن حامية القلعة وعددها خمسة آلاف جندى لا تزال تحتلها فاتفق «الكابتن» مع قائد القلعة الأميرالاى على بك يوسف وهو الذى فتح الطريق لمقدمة الجيش الانجليزى فى معركة التل الكبير على اخراج جنود الحامية من القلعة . فاصطفوا بهدوء وخرجوا من باب العزب ثم دخلت الجنود الانجليزية وتسلم الكابتن واطسون مفاتيح القلعة من قائدها وذهبت القوات المصرية الى ثكنة قصر النيل لتبيت فيها تلك الليلة تمهيدا لتجريدهم فى اليوم التالى وقد تم ذلك وتفرق الجنود الى بلدانهم

تم كل هذا تحت جنح الظلام . وفى صباح اليوم الخامس عشر كانت القاهرة قد احتلها الجيش الانجليزى

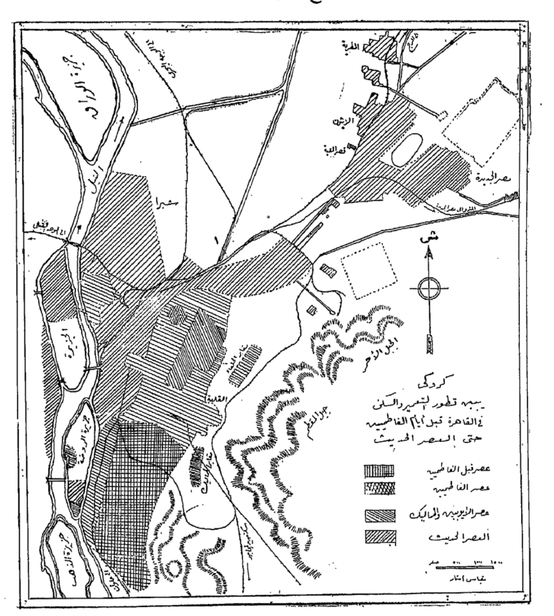
عابدين

قصد « الجنرال ولسلى » سراى عابدين وكان الخديو توفيق باشا قد أمر بأعدادها له ونزل ضباط أركان حربه بجناح الحرم ونزل « الدوق أوف كنوت » بقصر النزهة ونزل مدير المهمات بمدرسة عابدين واحتلت القوات الأنجليزية ثكنات العباسية وقصر النيل وفى اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر غادر الخديو مدينة الاسكندرية الى القاهرة فاستقبلته وفود الأمراء والأعيان والضباط والعلماء للترحيب به وزينت محطة القاهرة أجمل زينة واصطفت الجنود الانجليزية على جانبي الطريق وكان مع سموه رئيس نظار حكومته رياض باشا وقابله « الدوق » تجل الملكة « فكتوريا » وركب على يساره « الجنرال ولسلى » أمامه والسير ماليت القنصل الانجليزى أمام الدوق وسار الموكب الى قصر الاسماعيلية . وفى اليوم التالى قصد الخديو سراى الجزيرة لمقابلة وفود البلاد وطلب أعيان القاهرة ان يسمح لهم الخديو بأقامة الزينات ليلتين متواليتين وأهدى وفد من أعيان البلاد برئاسة سلطان باشا الى الجنرال ولسلى سيفا قديما مرصعا وقدموا هدية أخرى للأميرال سيمور

وفى يوم السبت ٣٠ سبتمبر أعد فى ميدان عابدين كشك كبير لجلوس الخديو وعرض الجيش الانجليزى . وفى الساعة الرابعة حضر الخديو ببذلته الرسمية فاستقبله القواد ورجال البلاد وعرض القوات البريطانية

فى تلك الفترة استعفي الشيخ الأمبابى شيخ الجامع الأزهر وعـين خلفا له الشيخ العباسى . ثم صدر أمر الخديو بتأليف محكمة عسكرية عليا برئاسة رءوف باشا لمحاكمة العرابيين كما تألفت لجنة مخصوصة لتحقيق قضايا العصيان والتعدى وصدرت الأوامر ايضا بعزل حكام المديريات والمحافظات وتعيين سواهم وعين عثمان باشا غالب مأموراً لضابطة القاهرة

هذا ماكان من تاريخ القاهرة فى الأعوام الأربعة الأولى من أيام توفيق باشا وسنرى مالحق بالمدينة فى أواخر القرن التاسع عشر



أقسام القاهرة

ولسهولة أدارة القاهرة قسمت الى ثمانية أقسام أو « أثمان » وانقسم كل ثمن الى شياخات وكان لكل ثمن شيخ يعرف بشيخ الثمن كان يصرف له من محافظة القاهرة مائة قرش ولكل شياخة شيخ عرف بشيخ الحارة كما هو متبع الى الآن ليس له مرتب رسمى أنما ينال مكسبه من النقود التى يأخذها من أصحاب الحاجات من سكان الأملاك التى فى شياخته

وكانت أهم أقسام القاهرة حتى أواخر القرن التاسع عشر تتألف من أثمان الموسكى والأزبكية وباب الشعرية والجمالية والدرب الأحمر والخليفة وعابدين والسيدة زينب ومصر القديمة وبولاق . وكان فى الأثمان المذكورة ثمانية وأربعون قره قولا موزعة داخل القاهرة وخارجها لأقامة رجال البوليس فيها ولكن بطل أكثرها ثم نشأ فى كل ثمن مركز للصحة به طبيب وطبيبة وكاتب وممرض

مسجدا الامام الشافعى والرفاعى

أمر المغفور له محمد على باشا بتوصيل المياه من مجرى العيون الى مسجد الامام الشافعى حيث ميضأته ومنافعه بعد ان كانت تستخدم المياه المالحة . وكان سبب ذلك أنه لما توفى ابنه اسماعيل بك فى السودان ونقل الى مصر شيد له مقبرة بقرب الامام و بنى حولها عدة مبان أجرى الماء فيها . فطلب اليه الشيخ حسن القويسنى ان يوصلها الى مطهرة الامام فأجاب الباشا طلبه ولما تولى الحكم الخديو توفيق باشا أمر بتجديد جدران المسجد بعد أن ظهر فيها بعض الخلل وتوسيعه وشراء بعض الأماكن المجاورة للمسجد وشرع فى هدم المسجد القديم فى آخر عام ١٣٠٣ ه ثم حضر الخديو بنفسه حفلة وضع الحجر الاساسى له مع أعيان البلاد ومن بينهم دولة المشير الغازى أحمد مختار باشا وتليت القصائد الجليله وكتب مضمون حوادث اليوم على ورق متين ووضع مع صرة من النقود فى إناء من البلور حفظ فى صندوق من الرصاص . وهذا أودع فى حجر كبير محفور بقدر الصندوق ثم وضع ذلك الحجر فى أساس البناء بيد سمو الخديو

وأما مسجد الرفاعى العظيم فيعد مفخرة فنية للأسرة العلوية الكريمة فهو من أعمال والدة المغفور له الخديو اسماعيل باشا . كان ذلك فى عام (١٢٨٦ ه = ١٨٦٩ م) لما شرع المرحوم خليل أغا كبير أغوات قصرها فى العمل . فمد سكة حديدية للبساتين وجلب العمال بالآلاف لقطع الأحجار واستمر العمل قائما مدة طويلة فى عمل الأبواب والشبابيك

والثريات والأعمدة الرخامية وكتابة الآيات الكريمة ولكن بوفاة المغفورلها مؤسسة الجامع عام ١٣٠٣ ﻫ وقفت العمارة فيه خمسا وعشرين عاما حتى استأنف بناءه حفيدها سمو الخديو السابق عباس الثانى فأمر بأكمال البناء بعد أن عمل له تصميم آخر بواسطة باشمهندس الآثار العربية وقتئذ « هرتز باشا » . فجلب له الرخام من بنى سويف والمرمر من اليونان وتركيا والمرمر الأسود من إيطاليا والبلجيك والصوان من ألمانيا . . . الخ وباشر تكملته المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر الخاصة فتم تشييده فى أول المحرم عام ١٣٣٣ (٢٢ ديسمبر ١٩١١) وبلغ مجموع ماصرف عليه ٥٠٠و٥٧٠ جنيه وافتتح رسميا لاقامة الشعائر الدينية فيه يوم الجمعة غرة المحرم سنة ١٣٣٠ ﻫ

والى جانب مسجد الرفاعى مدافن الأسرة العلوية الكريمة . ففى الحجرة البحرية الشرقية ثلاثة قبور لنجل وكريمتى المغفور له اسماعيل باشا . وفى الحجرة الغربية قبران أحدهما مدفونة فيه المغفورلها السيدة خوشيار هانم . والدة الخديو اسماعيل باشا مؤسسة الجامع والثانى فيه المغفور له اسماعيل باشا خديو مصر المتوفى عام (١٣١٣ ﻫ - ٦ مارس ١٨٩٥م) وفى الحجرة ثلاثة قبور للسيدات الثلاث زوجات المغفور له الخديو اسماعيل باشا عليهن الرحمة والرضوان . وفى الجهة الغربية حجرة أخرى فيها قبر المغفور له السلطان حسين كامل المتوفى (١٣٣٦ ﻫ - ١٩١٧ م) . وفى الجانب الغربى القبلى من هذا المسجد العظيم حجرتان احداها وهى الشرقية بها مدافن للأسرة انشئت عام ١٣٣٩ ﻫ والأخرى وهى الغربية فيها مدفنان أحدهما مدفونة به المغفور لها السيدة والدة صاحب الجلالة مولانا الملك العظيم والآخر أعده لنفسه حضرة صاحب الجلالة الملك أطال الله فى حياته وحفظه ذخرا للبلاد

إحصائيات قاهرية

ولا شك فى أن بحثا للقاهرة يجب أن لايخلو من ذكر بعض إحصائيات . فان للأرقام لغة يسهل فهمها بمجرد النظر . ولنبدأ بسكان القاهرة فقد بلغ عددهم حسب الأحصاء الذى تم فى ٣ مايو سنة ١٨٨٢ [٣٧٤و٨٣٨] منهم ٢٢و٤٢٢ أجنبيا كان أكثرهم من اليونانيين والفرنسيين . وقد كان عدد سكانها فى الاحصاء السابق الذى تم فى عام ١٨٧٢ [٣٤٩و٨٨٣] بزيادة خمس وعشرين ألف نفس أى بمعدل ٥٠٠و٢ نفس يزيدون فى كل عام . وقد بلغ عدد سكان القاهرة فى سنة ١٧٩٨ [٢٦٠و٠٠٠] فكأن الزيادة التى حدثت فى اثناء خمس وثمانين سنة كانت ١٥و٠٠٠ نفس

وقد أورد المرحوم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية عدة إحصائيات لطيفة

فقد بلغ عدد طوائف القاهرة من أصحاب الحرف والصنائع المتعددة ١٩٨ طائفة وعدد الصناع فى تلك الحرف بلغ ٩٤٤٨٧ شخصا وقد اقتطفنا بيانات عن بعض الطوائف التى تهم القراء :

١٦١٠ بناء - ٦٨٩ نحات حجر - ٥٨٩ مبيضا - ٢٣٠ مرخما - ١٦١٥ نجارا دقيا ١٨١ نجار سفن - ٥٠ نجار طواحين - ١٢٧ من الـكتبية والمجلدين - ٢٧صانع سيوف وأسلحة - ١٠٥٣ جزارا ومن يتبعهم-١٥٧٩ زياتا - ١٥٠ دقاق بن وعطور - ١٠٢٥ تاجر فاكهة - ٢٢٩ فطاطريا - ٨٣٦ حلاقا - ٤٩١ منجدا - ١٢٣١ خياطا - ٤٤٤ عقادا - ١٧٢ صانع أحذية - ٧٨٢ جنازا - ١٢٦ موسيقيا . . . . الخ وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى كالمناخلية والصدفجية والسمكرية

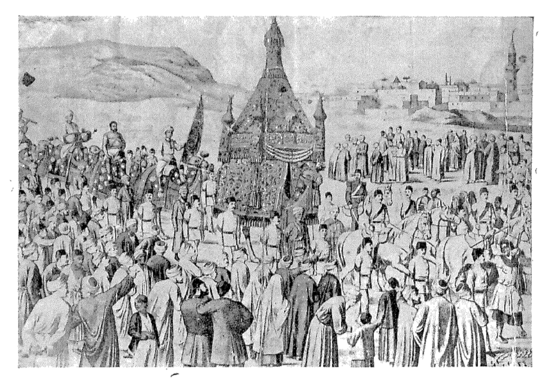
وقال على باشا مبارك إنه كان بالقاهرة فى عام ١٨٧٦ المحال الآتية :

٢٦٥٦٣ من المنازل المملوكة لأربابها - ١٢٣٩٠ من الحوانيت المملوكة لأربابها - ٥٢٨ من الرباع المملوكة لأربابها - ٤٤١ مصبغة - ٣٨٤ طاحونة - ٦٦٣ حوشا - ١٥٩ فرنا للخبز - ٢٩٣ وكالة - ٨٣ قاعة لنسج الحرير - ١٠٠ زريبة للحيوان - ١٠٢ مغلق للأخشاب - ١٦ فندقا للسائحين وغير ذلك من الورش ومحال طفى الجير واسطبلات الخيل

ولقد كثر عدد المقاهى فى القاهرة فبلغ ١٠٦٧ قهوة منها فى ثمن الأزبكية فقط ٢٥٢ وفى ثمن بولاق ١٦٠ وفى الجمالية ١٤٢ - كذلك نما عدد حانات الخمور فقد كان منها فى العاصمة ٤٨٦ حانة فى الأزبكية منها ٢٢٨ وأقل الأقسام عددا كان الدرب الأحمر فلم تـكن فيه سوى ١١ حانة

وكان بالقاهرة خمس وخمسون حماما عموميا وكان بها خمس مستشفيات اثنتان للأوربيين احداهما كانت بالعباسية واسمها المستشفى الأوربى والأخرى بالاسماعيلية وعرفت بالمستشفى البروسيانيـة واثنتان للحكومة المصرية الأولى مستشفى قصر العينى الملحقة بمدرسة الطب و بلغ عدد أسرة المرضى فيها نحو ألف ومائة وخمسين سريرا . والثانية مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية وقد أنشئت فى عهد المغفور له محمد توفيق باشا وكانت قبل ذلك فى ورشة الجوخ ببولاق . والمستشفى الخامسة كانت للاسرائيليين بحارة اليهود . وقد بلغ عدد الصيدليات فى ذلك الحين أربعا وأربعين صيدلية موزعة فى القاهرة خلاف الصيدليات الأميرية . كان منها فى شارع كلوت بك ست صيدليات وثمانية بشارع الموسكى وثلاثة بشارع عابدين وخمسة بدائرة البوستة بالأزبكية . وقد ظهرت الصيدليات بشكلها الحديث فى أيام محمد على وكانت العقاقير تباع بدكاكين العطارين بحالتها الطبيعية فتشترى وتمزج على حسب ماتوصف

مسجد الرفاعى من الداخل وفيه مدفن الأسرة المحمدية العلوية



موكب المحمل الشريف فى أيام اسماعيل باشا

ميادين جديدة

من الميادين التى استجدت بالقاهرة فى أيام الخديو توفيق باشا ميدان باب الحديد والخازندار تجاه فندق أوربا والبوستة . وميدان العتبة الخضراء وميدان التياترو وعابدين - والبدروم تجاه عمارة سوارس وعمارة السيوفى - وميدان باب اللوق تجاه منزل المرحوم على بك راغب ومنزل محمد أفندى الناغى - وميدان الكوبرى أمام كوبرى قصر النيل وسراى الاسماعيلية - وميدان الدواوين تجاه سراى المالية والداخلية والحقانية وميدان الأزهار تجاه منزل المرحوم محمود باشا الفلكى ومنزل على باشا صادق

المدافن

وكانت مدافن القاهرة التى فى خارجها خمسة وهى قرافة السيده نفيسة وقرافة الامام الشافعى وبها مدفن الأسرة المحمدية العلوية . وقرافة باب الوزير وقرافة المجاورين وقايتباى وقرافة باب النصر . ولما امتنع الدفن داخل القاهرة بطلت عدة مقابر كانت ممتدة بين العتبة الخضراء وميدان باب الخلق وبنيت على أرضها عدة مبان . وأكثر ماتم منها انشىء فى أيام المغفور له الخديو اسماعيل باشا . ومن هذه المقابر مقبرة القاصد ومقبرة الأزبكية ومقبرة الرويعى ومقبرة السيدة زينب وزين العابدين ومقبرة السبتية كما تحددت مناطق الدفن وأصبحت بعيدة عن المساكن

المذابح

قبل الاسرة المحمدية كان الذبح فى داخل القاهرة فى محال متعددة . فلما نظم محمد على باشا ديوان الصحة بطل الذبح داخل المدينة وبنى مذبحان فى خارجها أحدهما بجهة الحسينية والآخر فى قبلى المدينة بقرب العيون وذلك فى عام ١٨١٧ . ولم تكن الشروط الصحية تتوفر فيهما كثيرا كما نشاهد فى هذه الأيام واستمرت شكايات الأهالى حتى تم فى عهد الخديو توفيق باشا بناء مذبح مستوف للشروط الصحية بين العيون وزين العابدين وبطلت المذابح القديمة

مشاهد القاهرة

وقد كان أهم ماشغل أهل القاهرة فى ذلك الوقت من حفلات الطرب حفلات الذكر والموالد وما كان ينشد فيها من الأناشيد الجميلة - وكانت تقام تلك الحفلات فى البيوت أو المساجد أو الزوايا وكثرت فى شهر رمضان فى بيوت رؤساء الطرق الصوفية

ولاسيما بيت السادة البكرية بالقاهرة . فأقاموا أجمل الحفلات وكان يؤمها الناس لسماع مشاهير الفقهاء المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم أوكبار المطربين أوالمنشدين الذين يترنمون بانشاد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم . وكان يتلهى القاهريون فى المقاهى الشعبية بسماع قصص « الأمير حمزة » « والظاهر بيبرس » وعنترة بن شدادوالأمير « سيف ابن ذى يزن » . وكانت هذه القصص تلقى بنفس الأسلوب واللغة والوزن الذى تسمع به لليوم فى بعض المقاهى المنزوية فى أحياء باب الشعرية والحسينية وسيدنا الحسين وكانت أروج هذه القصص هى قصة « عنتر الشاعر » البطل الحربى الذى لا يقهر وصورة للعاشق الذى ينتصرحبه على كل شيء . ولقد كان جمهور السامعين يحتفلون بزفاف عنتر على عبلة . فتضاء القهوة بالشموع وتفرش أرضها بالرمل وتزدان بالأعلام ويصف فوقها « البطيخ » الأحمر والأخضر ويقام سرادق فسيح فاذا وصل « المحدث » الى وصف ليلة الزفاف هنأ الحاضرون بعضهم بعضا !

وكان يسمع بكثرة فى تلك الأيام بعض القصص الشعرية كقصة أبو زيد الهلالى سلامة « والزير سالم » . ولاتزال القصة الأولى ينشدها « الشعراء الجوابون » على الرباب أوبدونها

ولما نمت الأزبكية فى أيام اسماعيل اجتذبت قهاوى الرقص والغناء وغيرها من أماكن اللهو جمهورا كبيرا من رواد القهاوى البلدية . وظهرت طائفة من المهرجين الفكهين من أمثال « أحمد الفار » « والسيد قشطه » . وكانوا يحيون ليالى الأسبوع كلها فى أحياء مختلفة وكان الجمهور يقبل عليهم ويتجشم مشاق السير على الأقدام مسافات طويلة ليستمتع بفكاهاتهم اللطيفة . ولقد ابتدع سيد المطربين عبده الحمولى فى ذلك الحين « الضمم » ثم اشتهر بعده من المغنيين « أحمد صابر » والشيخ الصفتى ومحمد سالم العجوز ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى أخيرا ثم زعيم المجددين فى أوائل القرن العشرين المرحوم الشيخ سلامة حجازى

لقد اختفى هذا المجتمع من حياة القاهرة واختفت معه « الدكة العالية » التى كان يجلس عليها « الشاعر » أو « المحدث » بنايه أو ربابه وقامت آلة الراديو تذيع ما يحب وما لا يحب

وكان لكل بيت من بيوت الطبقة الوسطى منظرة يجتمع فى إحداها أصدقاء الحارة فيسمرون فيها السمر اللطيف أو يحيون بعض الليالى فى سماع القرآن أو حفلة طرب ولم تكن المقاهى قد انتشر وباؤها فى كل مكان

وكان الموسرون من أهل الحرف والصناعات يتبارون فى اقتناء أنواع الحمير الحصاوية أو القبرصية وعنوا ببرادعها ورشماتها واتفقوا عليها بسخاء . وكانوا من عادتهم أن يمتطوا حميرهم أو جيادهم فى أيام الخميس والجمعة والأحد لزيارة الإمام الشافعى أو لزيارة المحمدى أو للتبريك بضريح السيدة نفيسة

الخليج المصرى

الخليج المصرى من خلجان القاهرة القديمة أهمل مدة طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب لتسهيل نقل المؤن عليه الى الحجاز وأسماه خليج أمير المؤمنين مبتدئا به عند مصر القديمة وسار به فى ظاهر الفسطاط حتى القاهرة (التي انشئت فيما بعد) ومنها الى المطرية فبو بسطة حيث كانت ترعة قديمة متصلة بالبحر الأحمر أهملت وجف ماؤها . وسارت السفن فى خليج أمير المؤمنين الى أيام الخليفة المنصور لما أمر بردمه منعا لامداد العلو بين الذين ثاروا فى المدينة . فلما ولى الحكم الحاكم بأمر الله الفاطمى أمر بحفره عام ١٠٠٠ م لتسير فيه السفن الصغيرة . وكان يبدأ الخليج المصرى عند النيل بالقرب من شمالى مصر القديمة وجنوبى قصر العينى وبجرى السواقى السبع التى كانت تصل المياه من النيل للقلعة بالمجراة المشهورة السلطانية التى كانت فيما قبل حدود مصر القاهرة من الجهة الجنوبية . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرقى وقبل أن يصل الى وزارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبى حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقى مارا بجانب بركة الفيل ثم سراى درب الجماميز (مخازن وزارة المعارف الحالية) فتكية الحبانية ثم يقطع شارع محمد على مارا بجانب قصر منصور باشا بميدان باب الخلق الى أن يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكى فيمر تاركا كنيسة اللاتين وكنيسة السوريان الى يساره وكنيسة الأرمن وكنيسة الأقباط الى يمينه حتى يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينه ثم يخترق سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركا جامع الظاهر الى يمينه حتى يلتقى بترعة الاسماعيلية عند مصرف الشيبينى القديم وكانت على الخليج المصرى عدة قناطر معقودة تتقاطع مع الشوارع التى يمر بينها عددها عشرون قنطرة وهى :

قناطر الفم والسد وقصر العينى وقنطرة السباع التى أمام مسجد السيدة زينب وقنطرة

عمر شاه وشاهين بك ودرب الجماميز وسنقر وقنطرة الذي كفر وقنطرة باب الخرق المار عليها الشارع الموصل من العتبة الخضراء إلى جامع السلطان حسن وقنطرة ثابت باشا وقنطرة الأمير حسين وقنطرة الشيخ المفتى وقنطرة الحفنى . وقنطرة الموسكى و بين السورين فيما بين الموسكى والشعراوى وقنطرة الشعراوى و باب الشعرية والعدوى وقنطرة الظاهر المار عليها شارع الفجالة الموصل للعباسية . وكانت كل هذه القناطر ذات عين واحدة ماعدا قنطرة السد فانها كانت بعينين

وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على رى القاهرة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحه سنويا عند وفاء النيل فلما توزعت المياه فى القاهرة بالأنابيب الى المنازل فى أيام حكم اسماعيل باشا لم تبق له فائدة

لقد تغنى الشعراء وأدباء السياح بجمال هذا الخليج وبديع مناظره وحسن مجالسه و ياليت أصحاب البيوت المطلة على جانبيه حافظوا على العناية به . بل كانوا يلقون فضلات الطعام فيه وسلطوا أنابيب دورات المياه والمطابخ عليه فكانت منشأ الأمراض المعدية وانتشرت الحميات المختلفة التى كانت تختطف من كل أسرة شخصا أو اثنين . فرأت الحكومة أن تردمه لتخلص العاصمة من أضراره الفتاكة فلما علم الأعيان عزم الحكومة كتبوا عريضة طلبوا فيها العدول عن هذا العمل لما فيه من ضرر ورفعها الى سمو الخديوى توفيق باشا لجنة مؤلفة من أصحاب السيادة والفضيلة شيخ الأسلام والشيخ البكرى وقاضى القضاة وأحمد بك السيوفى . فلما نظر فى الأمر تأخر الردم نحو عشرين سنة

وأخيرا فى عام ١٨٩٦ تعاونت الحكومة المصرية مع شركة ترام القاهرة على ردم الخليج لتسيير خطوطها فى أنحائه وربط أجزاء العاصمة القبلية بالبحرية ولقدتم ذلك ونحن نرى اليوم شارع الخليج المصرى يصل بين الوايلى والعباسية وباب الشعرية والسيدة زينب والحلمية ومصر القديمة واتسع الشارع فى بعض أنحائه من جهة غمره وغرست فى وسطه الأشجار الباسقة وقامت على جانبيه العمارات الفخمة وسارت فيه خطوط الترام والسيارات

على باشا مبارك

لقد وفقت مصر حقا فى انجاب عدد كبير من كتاب الخطط اذ كان من أبنائها المصريين ابن عبد الحكم أقدم مؤرخى الخطط المصرية والكندى وابن زولاق والمسبحى والقضاعى وابن عبد الظاهر وابن دقماق والمقريزى والسخاوى وابن إياس

والجبرتى وأخيرا فى القرن التاسع عشر وهبت مؤرخها المحقق وعالمها الخطير ووزيرها الفذ على باشا مبارك

ولد المترجم فى برنبال من أعمال دكرنس بالدقهلية عام (١٢٣٩ هـ = ١٨٢٣ م) ولم يكن فى نشأته الأولى ما يلفت النظر أو مايدل على أنه سيكون رجلا يختلف عن معاصريه ولكن أمرا واحدا كان يلفت النظر ذلك هو نفوره من الذل ومجافاته قسوة معلمه ففضل الفرار من قريته على احتمال القهر والضرب فكان فى هجرته الخير للبلاد . وجاء الى القاهرة رغم إرادة والديه واحتال فى الالتحاق بمدرسة قصر العينى عام ١٨٣٦ وكان إذ ذاك لايتجاوز الثانية عشرة من عمره . وهنا بدت ظاهرة جديدة فى شخصية على مبارك وهى ميله الفطرى الى العلم وطموحه الى المعالى وقوة إرادته

ولست أرى فى تلك الصفحات القليلة ما يكفينى لترجمة على باشا مبارك فحياته الناجحة مثال يجب أن يحتذى به الشباب وحياته تستحق أن تكون موضوعا ثمينا يدرسها الشبان

تحول الى مدرسة أبى زعبل وفى عام ١٨٣٩ انتخب ولاة الأمور بعض نجباء التلاميذ لألحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق فكان على مبارك ضمن هؤلاء . فدخل مدرسته الجديدة وهو فى السادسة عشرة فكان يرى دائما فى أول فرقته مما شجع أساتذته لاختياره ضمن بعثة الأنجال الأمراء عام ١٨٤٤ التى أوفدت الى فرنسا لتعليم الفنون الحربية . فتقدم على زملائه ولحق ثلاثتهم الأول وهم على مبارك وحماد عبد العاطى وعلى ابراهيم بمدرسة المدفعية والهندسة الحربيه الشهيرة بمتز (Metz) ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى وألحقوا به للتمرين فكان على مبارك فى الآلاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية واستمر بها الى عودته لمصر عام ١٨٥٠ فى أيام حكم عباس الأول . فعين مدرسا بمدرسة طره الحربية ثم قلد عدة وظائف ومهام مختلفة كالتحاقه بمعية عباس باشا وتنظيمه المدارس الأميرية ونظارته لمدرسة الهندسة . وفى عام (١٢٧٠ هـ = ١٨٥٤م) سافر الى تركيا مع الحملة المصرية التى أرسلها سعيد باشا لمساعدة تركيا فى حرب القرم فقضى فيها وفى الأناضول عامين الاقليلا لاقى فيهما الشدائد والأهوال حتى عاد ثانية لاستئناف حياته الحكومية التى اضطهد فيها

ولما ولى اسماعيل باشا الحكم فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة فعينه عام ١٨٦٧ وكيلا لنظارة المعارف ثم أسند اليه ادارة مصلحة السكة الحديدية والأشغال والمعارف ثم ضمت اليه نظارة ديوان الأوقاف فجمع بين تلك المناصب الرفيعة مع بقائه ناظرا للقناطر الخيرية والتحاقه بالمعية

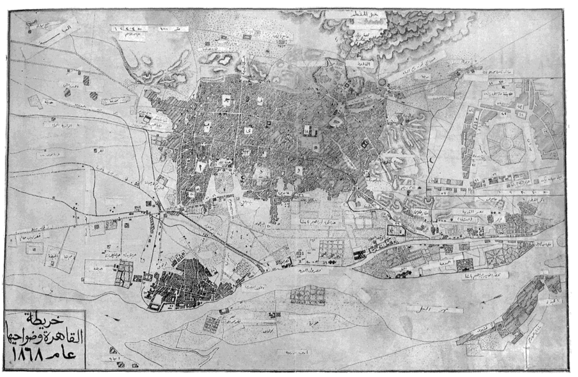
وفى تلك الفترة الذهبية فى حياة على مبارك أخرج لائحة التعليم المشهورة بلائحة رجب (١٢٨٤ هـ) وأسس دار العلوم ودار الكتب ونشر المجلات العلمية وأقام مدرج المحاضرات هذا بجانب أعماله الهندسية فى أنحاء القطر واشتراكه فى تنظيم القاهرة وتوسيع شوارعها وانشاء احيائها الجديدة وإن معظم أعمال الاصلاح التى تمت فى العاصمة أثناء حكم الخديو اسماعيل نفذت فى عهد على باشا مبارك وقد ذكرناها فى الفصل السابق

لما تولى الخديو توفيق باشا الحكم كان على باشا مبارك متقلدا وزارة الأشغال وفى أيام الثورة العرابية اعتكف حينا فى الريف ثم كان من سفراء العرابيين لدى الخديو للسعى فى الصلح . وبعد انهاء الثورة دخل الوزارة ثانية ثم اشترك فى وزارة رياض باشا فى يونيو ١٨٨٨ وكان وزيرا للمعارف العمومية وفى تلك الفترة ظهر كتابه الخالد « الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة » التى طبعت بأمر الخديو توفيق باشا فى مطبعة بولاق الأميرية وظهرت أجزاؤها تباعا خلال سنتى ١٣٠٥ و ١٣٠٦ (١٨٨٨ — ٨٩ م) وبجانب هذا السفر الثمين فللمترجم العظيم مؤلفات أخرى معروفة

ولما استقالت وزارة رياض باشا عام ١٨٩١ لزم داره ثم قصد بلدته لتفقد أملاكه وهناك مرض بداء المثانة فعاد الى القاهرة مريضا حتى وافته المنية بمنزله فى الحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٣ فأقفلت المدارس حدادا على وفاته

وتؤلف الخطط التوفيقية عشرين جزءا فى خمسة مجلدات كبيرة فى أكثر من ألفى صفحة من القطع الكبير . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة منذ أسسها جوهر القائد حتى أيام الخديوى توفيق باشا وتناول فى الاجزاء التسعة التالية الكلام عن الأقاليم المصرية ومدنها وقراها وترجمة أعيان بلادها مرتبة على الحروف الأبجدية . وتكلم فى الجزء السادس عشر على الآثار الفرعونية وفى السابع عشر على بعض التراجم والأماكن وخصص الثامن عشر لمقياس النيل منذ الفراعنة وتناول فى الجزء التاسع عشر الكلام على الرياضيات والترع وفى العشرين وصف النقود وأشكالها وذكر تواريخها فى مختلف العصور

لقد استطاع على باشا مبارك بما أوتى من عزم وعلم أن يخرج موسوعته الخالدة وقدم لمواطنيه مأثرة نفيسة فى تاريخ الخطط والآثار المصرية وأعطى لنا صورة واضحة من القاهرة الاسلامية فى مختلف العصور فوصل الحاضر بالماضى على صفحات خططه الثمينة . وستبقى « الخطط التوفيقية » دائما أثرا عظيما لاينسى فى تاريخ مصر

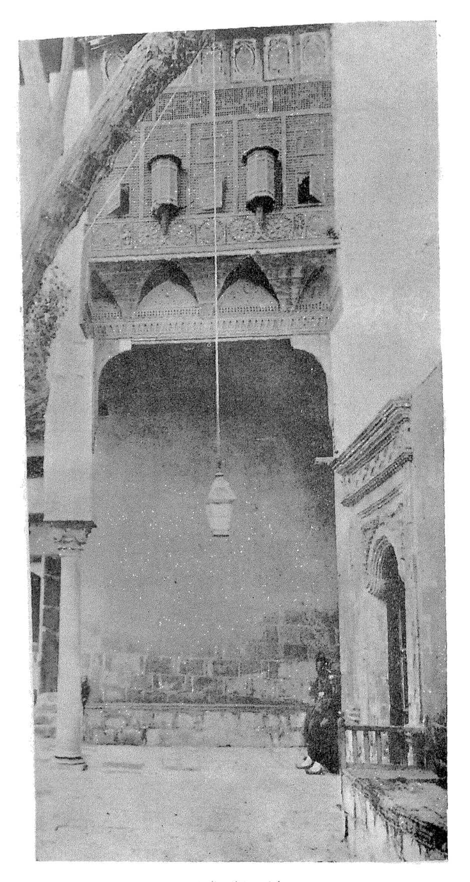


مرشد لخريطة القاهرة وضواحيها عام ١٨٦٨

لم تتسع الخريطة لكتابة أسماء المعالم المشهورة المرسومة عليها وقد استعيض عنها بأرقام بيانها فيما بعد :

١ — باب الحديد ٢ - جامع الحاكم ٣ - باب النصر ٤ - باب الغريب ٥ - باب المحروق - ٦ باب الوزير - ٧ - ميدان الرميلة ٨ - باب العزب - ٩ جامع السلطان حسن ١٠ - جامع السلطان حسن قلاون ١١ - جامع محمد على ١٢ - بئر يوسف ١٣ - قصر الجوهرة ١٤ باب القرافة ١٥ - باب السيدة ١٦ - باب طولون - ١٧ جامع طولون ١٨ قصر إلهامى باشا ١٩ - جامع المارستان ٢٠ جامع المؤيد ٢١ - قنصلية انجلترا ٢٢ قنصلية هولندا ٢٣ - قنصلية اليونان ٢٤ - قنصلية أيطاليا ٢٥ - قنصلية السويد ٢٦ - قنصلية بروسيا ٢٧ - فندق الشرق ٢٨ - قنصلية فرنسا ٢٩ - فندق المساجيرى ٣٠ - قنصلية البرتغال ٣١ - قنصلية روسيا ٣٢ قنصلية النمسا ٣٣ - فندق النيل ٣٤ - قصر الأمير حليم باشا ٣٥ - باب اللوق ٣٦ - باب الشيخ ريحان ٣٧ باب السيدة زينب ٣٨ - باب أيوب بك ٣٩ - معمل بلح البارود ٤٠ - وابور المياه البخارى ٤١ - شركة الغاز ٤٢ - المرصد ٤٣ - فندق أوربا ٤٤ - ورش السكة الحديدية ٤٥ - المسبك ٤٦ - الترسانة ٤٧ - الطواحين ٤٨ - ادارة المحافظة والمحكمة ٤٩ - قصر الأمير أحمد ٥٠ - الكنيسة الانجليزية ٥١ - الكنيسة القبطية - ٥٢ - مستشفى قصر العينى ٥٣ - المستشفى اليونانى ٥٤ فندق التجارة ٥٥ - فندق فرنسا ٥٦ - فندق أسطفان ٥٧ - بيت قنصل فرنسا ٥٨ - فندق السفراء ٥٩ - النادى الشرقى ٦٠ - قهوة الالدرادو - ٦١ - نادى جلوب

ومن هذه الخريطة يستطيع القارئ أن يصور أهم معالم القاهرة فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .



منزل السادات بالوفائية

المراجع

التي نقلنا عنها واقتبسنا منها واعتمدنا عليها في انشاء كتاب القاهرة

١ ـ إلياس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل في مجلدين

٢ ـ أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن ـ الجزء الأول ـ ١٩٣٤

٣ ـ إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار في مجلدين ـ ١٣١٤ هـ

٤ ـ تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أربعة مجلدات

٥ ـ جورجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ـ في مجلدين ـ ١٩٢٥

٦ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ في أربعة مجلدات

٧ ـ عبد الرحمن بك الرافعي : تاريخ الحركة القومية في ثلاثة أجزاء ـ ١٩٢٩
عصر اسماعيل ـ في مجلدين ـ ١٩٣٣

٨ ـ سمو الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية في عهد محمد علي ـ ١٣٥٣ هـ

٩ ـ علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ

١٠ ـ عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ـ ١٩٣١

١١ ـ عبد الرحمن زكي : تاريخ الجيش المصري قديماً وحديثاً ـ تحت الطبع

١٢ ـ كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ترجمة العالم محمد بك مسعود ـ في مجلدين

١٣ ـ محمد بن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور والأجزاء المتممة للمستشرق الألماني كاليه Kahle

١٤ ـ محمد عبد الجواد الأصمعي : قلعة محمد علي لاقلعة نابليون ـ ١٩١٤

15 — Reynolds Ball : The City of the Califhs — 1897

16 — M. Briggs : Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine — 1927

17 — Mrs. Butcher : The Story of the Church of Egypt. 2 vols. 1899

18 — Capt. Creswell, K. A. G :

a. Chronology of Muslim Monuments. B. 1. F.

b. The Citadel of Cairo. B. 1. F.

c. The Foundation of Cairo 1933

19 — M. Clerget :
Le Caire — 2 vols. 1934
20 — J. M. Carré :
Voyageurs et Ecrivains Francais en Egypte — 2 Vols.
21 — Mme. R. L. Devonshire:
a. L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926
b. Rambles in Cairo, 1917
22 — G. Ebers : Egypt — 2 vols.
23 — Fraser, W. R. Egypt to-day 1892
24 — L. Gardey :
Voyage du Sultan Abd el Aziz de Stamboul au Caire 1865
25 — G, Hanotaux :
Histoire de la Nation E'gyptienne. 4. Vols.
26 — Hautecoeur et M. Wiet :
Les Mosqùees du Caire 1933
27 — Linant de Bellefond :
Memoire sur les Principaux Travaux Utilite Publique exécutes en Egypte 1872
28 — Penfield, E. G :
Presnt day Egypt 1899
29 — Stanley, L. Poole :
a. The Story of Cairo
b. Cairo, Sketches of its history, monuments, and social life 1895
30 — E. Pauty :
Les Palais et les maisons d' Epoque Musulmane au Caire 1932
31 — Paton, A. A :
A History of the Egyptian Revolution — 2 Vols.
32 — Precis de l' histoire d'Egypte. 5. Vols
33 — Rhoné, A :
L'Egypt a petitès journées 1877
34 — Dr. Zaky M. Hassan :
Les Tulinides — 1934

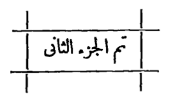
فهرس الجزء الثانى

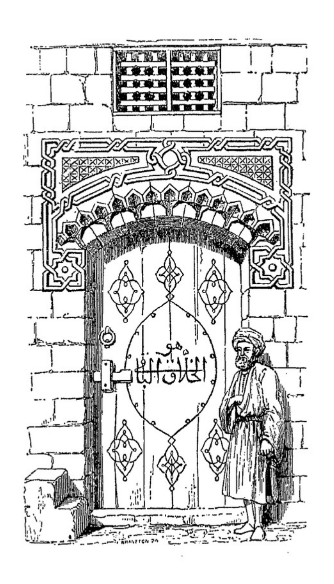
صحيفة

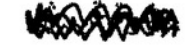
استدراك

ذكر خطأ فى صحيفة ٤٠ أن اسماعيل باشا التركى أنشأ جامعا بجوار باب قره ميدان والحقيقة أنه قره محمد باشا كتخدا اسماعيل باشا المتقدم ذكره

صحيفة ٨٥ سطر ٢ « الرفقى » وصحتها « رفقى »







مطبعة حجازي بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠